فتيات في حرب



فتيات في حرب



معلومات الكتاب

ترجمة : فرج الترهـوني

المتخصصون في الكتاب الجامعي الأكاديمي العربي والأجنبي دار زهران للنشر والتوزيع
تلفاكس: 5331289 – 6- +962، ص. ب 1170 عمان 11941 الأردن

يتحمل المؤلف كافة المسؤليات الخاصة بالملكية الفكرية قانونيا وماليا وجزائيا
حسب الأصول المعمول بها عالميا وفي بلده
الناشر ومزودي الخدمات لا يتحملون أية مسئوليات قانونية أو جزائية

E-mail : Zahran.publishers@gmail.com
Website: http://www. Zahranpublishers.com

تنويـــه

يضم هذا الكتاب ترجمة كاملة للمجموعة القصصية (فتيات في حرب وقصص أخرى) Girls at War and other stories للكاتب النيجيري تشنوا أشيبيي Chinua Achebe التي صدرت عن دار ضمن مجموعة سلسلة الكتاب الأفارقة AWS عن دار Heineman في طبعتها الثانية عام 1977 وأعيد نشرها أربع مرات .

أضيف إلى هذه المجموعة عدد من القصص القصيرة لنخبة أخرى من الكتاب الأفارقة من أنحاء القارة لإضفاء مزيج من التنوّع في الشكل والأسلوب الذين يعبران عن أساليب مختلفة في تناول هذا اللون من الأدب . وقد نشرت هذه القصص في نفس سلسلة الكتاب الأفارقة تحت عنوان (قصص أفريقية قصيرة) African Short Stories التي صدرت عام 1987 والقصص المختارة هي :

أنا وبابا والثعبان ..... بى ال هونوانا
دقائق من التألق ..... انجوجاي واثيونجو
تحـت التدريب.... أودن بالوجن
العريــس..... نادين جوردايمر
شبكة العنكبوت ..... ليونارد كييرا
الأوراق الخضراء ... جريس أوجوت
مهذبــو الأدغال .... جومو كينياتا

تقديــم

لقد كان بمثابة صدمة لي عندما أدركت أن قصصي القصيرة التي كتبتها مبكراً نُشرت منذ فترة طويلة مضت قد تصل إلى عشرين سنة في مجلة عبدان الطلابية " صوت الجامعة " . أعتقد أنني قد أصبحت أظنّ أنّ هذه الصفة المثيرة " جديد " وهي محببة للباعة والعارضين ستلتصق بي إلى ما لا نهاية ، ولكن يا للحسرة لا يمكن إطلاق صفة الجديد على شخص ممارس له عشرون سنة في هذا المجال ، في الغالب كلّ ما يمكنه القيام به هو الحصول على بعض الراحة من النظر إلى فنّه على ضوء النبيذ (الذي يتعتق ويتحسّن مع مرور الوقت) أكثر منه النظر إليه على ضوء المطهّر الذي يتوجب أن يكون جديدا على الدوام . لا أعني بالضرورة هنا النبيذ المصنوع من العنب لأن لأشجار النخيل التي أعرفها أكثر ، وأعرف نبيذها أيضا ، وهو حلو المذاق إلى حدّ ما عند بداية استخراجه في الصباح ، ولكنه يخشوشن ويصبح أكثر فاعلية مع مرور النهار .

اتهمني (وول سوينكا) وهو أحد مواطني ، وإن يكن بطريقة ودية ، بأن رواياتي تتمتع "بالكفاءة غير المريحة " وكلي أملٌ أن بعضاً على الأقل من هذه القصص القصيرة التي ظهرت قبل الروايات بوقت طويل، وتتطرق إلى مواضيع وتجارب أكثر اختلافا ، ستنال الإعجاب بتحولها أحيانا إلى الكفاءة المريحة (مع عدم الإشارة إلى العجز المريح وغير المريح) .

أعلنُ عن امتناني للبروفيسور توماس ميلون من جامعة ياوندي ، والبروفيسور من جامعة دار السلام لعثورهما على بعض من هذه القصص التي نشرت في مرحلة مبكرة .

تشنوا أشيبيى ، 1972

ملاحظة الناشر : قام المؤلف في الطبعة الثانية من مجموعة " فتيات في حرب " بحذف قصتين سابقتين هما " الطالب القطبي " و " في كنيسة القرية " وأضاف قصة أحدث هي "عاشق السكر".

اكـويكـــى

بقلم : تشنوا أشيبي

استلقت اكويكى على فراش المرض في أحد جانبي جدار العداوة الذي انتصب فجأة بينها وبين إخوتها . كانت تصغي إلى دمدماتهم بخوف ولم يخبروها بعد ما الذي سيفعلونه بشأنها ولكنها قد عرفت كل شيء، وأرادت أن تطلب منهم لكي يحملوها إلى جدّها لأمها في إنزي ولكن العداوة التي نمت بينهم فجأة كانت من الشدّة بحيث منعها كبرياؤها من الكلام . فليجرءوا إذن على القيام بأي شيء . البارحة أراد أوفوديل ـ وهو الأخ الأكبر ـ أن يقول لها شيئا، لكن كلّ ما فعله أنّه وقف إلى جانبها وطفق يرنو إليها والدموع في عينيه . على من يبكى ؟ فليغرب عن وجهها .. ويتناول الفضلات .

فيما يشبه النوم المتقطع الذي زارها أخيراً ، رأت اكويكى نفسها بعيداً قي بيت جدها في إنزى، وقد فارقتها كلَّ أعراض المرض . لقد عادت ملكةً لجمال القرية من جديـد .

كانت أصغر الأبناء لأمها ، وابنتها الوحيدة بعد ستة ذكور ، توفي الأب في طفولتها، لكنه كان من الثراء بحيث لم تعرف عائلته الحاجة بعد موته ، خاصة وأنّ بعضا من أبنائه أصبحوا يملكون مزارعهم الخاصة .

كانت الأمّ تأخذهم لزيارة أقاربها في إنزى بضع مرّات في العام وتستغرق الرحلة من يوموفيا يوما بكامله ، حسب مقدرة الصغار على المسير ، أمّا اكويكى فتمشي أحيانا وتمتطي ظهر أمها أحياناً أخرى ، وعندما تأخذ الشمس في الارتفاع تقطف لها الأم ورقة من نبات المينهوت لتحمي به رأسها .

غالبا ما انتظرت اكويكى هذه الزيارات لبيت جدّها بفارغ الصبر . فقد كان جدها ضخم الجثة ، أشيب الرأس ، لـه لحية بيضاء يمشطها أحياناً على شكل ضفيرة لها نهاية مدبّبة يسيل منها خمر اللاقبى (1) إلى الأرض كلّما عبّ المزيد منه ، ولم تملّ هي التمتّع بذلك المنظر أبداً ، أمّا العجوز فقد تفطّن إلى الأمر، وحسّن من أداء المشهد زيادة في إمتاعها، بالصّر على أسنانه بين تناول جرعات الخمر .

كان شديد الولع بالفتاة التي قالوا إنها صورة عن أمّه ، ونادراً ما ناداها اكويكى بل كان يناديها يا أمي . ما هي في الحقيقة إلا أمه الراحلة تجسّدت فيها وأعادت دورة الحياة . خلال تلك الزيارات لإينزى كانت اكويكى تعرف أنّ بإمكانها أن تفعل ما تريد لأنّ جدّها قد منع أن يوبخها أي أحد .

بدأت الأصوات تعلو من وراء الجدار . ربما كانت أصوات الجيران يعترضون على اخوتها، إذن لابدّ أنّ الجميع قد عرفوا بمرضها الآن . فليأكلوا الفضلات . لو أنها فقط تستطيع النهوض ، لطاردتهم بالمقشّة التي بجانب سريرها ، وكم تمنّت لو أنّ أمّها لا تزال حيّة . . . إذن ما كان هذا ليحدث لها أبداً .

توفيت أمّ اكويكى منذ عامين ونقلت لتدفن عند قومها في إنزى ، وعندها سأل العجوز الذي عايش الكثير من الأحزان " لماذا يأخذون أولادي ويتركونني ؟ " ولكن بعد عدّة أيام قال لبعض الذين أتوا لمواساته : " إنما نحن دجاجات الرّب ، أحياناً يختار منّا الدجاجات الصغيرة ليأكلها ، وأحيانا أخرى يختار الكبيرة ." تذكرت اكويكى هذه المشاهد بحيوية ، وللحظة كادت أن تبكي ، ماذا سيفعل العجوز إذا سمع بموتها المشين .

أقيمت لاكويكى أوّل حفلة رقص عامة للإعلان عن استعدادها للزواج ، وقد حدث ذلك في أول فصل جافّ بعد موت والدتهم، و تسببت اكويكى في خلق جوّ من الإثارة بسبب طريقتها في الرقص، ممّا جعل راغبو الزواج منها يزدادون عشرة أضعاف ، وأتى خاطبوها من سوق لآخر يحملون خمر اللاقبى إلى اخوتها، ولكنها رفضتهم جميعا مما تسبب في قلق لإخوتها الذين أحبوا أختهم الوحيدة، خاصة بعد موت أمهم . لقد بدا وكأنهم قد تحالفوا من أجل إسعادها .
تسبّب رفضها للكثير من فرص الزواج الجيدة في إزعاج كبير لإخوتها وأدى ذلك بأخيها الأكبر أودوفيل لأن يخبرها بما استطاع من غليظ القول بأنّ الفتيات الفخورات بأنفسهن اللاتي يرفضن كل خطّابهن غالبا ما ينتهين إلى وضع بائس ، وذكّرها بقصة أونيرو التي رفضت كل من تقدم إليها من الرجال ، وانتهت بأن تطاردها ثلاثُ سمكاتٍ تنكرت لها على هيأة شباب وسيمين يسعون لتدميرها .
لم تلق اكويكى بالاً للنصائح ، أمّا الآن فحتى روحها التي تحميها يئست منها وشاركت في بلائها، وهاهي تقع فريسة للمرض . لقد حاول الناس في البداية الادّعاء بأنهم لم يلاحظوا بطنها المنتفخة .
أُحضرالأطباء الشعبيون من كافة المناطق لعلاجها ولكنّ أعشابهم وأدويتهم لم تجد نفعاً ، وأرسل أحد كهنة آما الإخوة للبحث عن شجرة نخيل معينة مغطّاة بنبتة طفيلية من النوع المتسلق قائلا لهم : " عند عثوركم عليها خذوا بلطةً واقطعوا النبتة المتسلقة التي تخنقها وعندها ستغادر الأرواح التي تسكن أختكم ." طفق الإخوة يفتشون يوموفيا والقرى المجاورة عن نخلة بتلك الأوصاف حتى عثروا عليها وحرروها من النبتة المتسلقة ، لكن أختهم لم تتحرر من الأرواح ، وعلى العكس فقد ازداد حالها سوءاً .
أخيرا اجتمعوا وقرروا وقلوبهم مفعمة بالأسى أنّ شقيقتهم مصابة بمرض الانتفاخ ذو التأثير البغيض على الأرض . عرفت اكويكى سبب اجتماع إخوتها وما أن وطأت قدما أخيها الأكبر حجرتها حتى أخذت تصيح في وجهه فهرب من المكان على الفور . استمرّ هذا الحال طوال النهار وكان هناك تخوّفٌ من موتها في البيت ، حيث سيحل عندها غضب الإله آنى على العائلة بأكملها ، فحضر الجيران وأنذروا الإخوة من أنّ تلكؤهم سيعرض قرى يوموفيا التسعة للخطر، وعند حلول الظلام نقلوها إلى الغابة الملعونة بعد أن بنوا لها عشّةً مؤقتة وضعوا بها سريراً خشناً، وكانت صامتة طوال الوقت بسبب الإعياء وشعور الكراهية الذي تملّكها ، ثمّ غادروها وذهبوا بعيداً .
في صباح اليوم التالي ذهب ثلاثة من الإخوة إلى الغابة ليروا إن كانت ماتزال حية ، وأصيبوا بصدمة كبيرة عندما لم يجدوها في العشّة، فعادوا أدراجهم مسرعين لإخبار الباقين الذين حضروا إلى المكان ، وشرع الجميع يبحثون في الغابة ، لكنهم لم يجدوا أثرا لأختهم . يبدو أنّ الحيوانات البرية قد افترستها وهو ما يحدث في هذه الحالات .
مرّ شهران أو ثلاثة ، ثمّ بعث جدهم برسول إلى يوموفيا ليتأكد من حقيقة أنّ اكويكى قد ماتت ، فردّ الإخوة بتوكيد ذلك وعاد الرسول إلى إنزى . بعد أسبوع أو اثنان بعث العجوز برسالة أخرى إليهم يطلب فيها حضور الإخوة لرؤيته . كان ينتظر في كوخه عند وصول أحفاده وبعد تبادل عبارات الترحيب والمجاملة التي عكّر صفوها ذكرى فقدهم الأليم ، سألهم عن أختهم فأخبره الأخ الأكبر بقصة موتها . أنصت العجوز للنهاية متكئاً طوال الوقت برأسه على راحة يده اليمنى .
" إذن فقد ماتت اكويكى ." قال الجدّ في نبرة تجمع بين التساؤل والإقرار بحقيقة ما، ثمّ أردف " ولماذا لم تخبروني بالأمر ؟ " . ران عليهم الصمت لبعض الوقت، ثم ردّ الأخ الأكبر بأنهم أرادوا أن يتمّوا طقوس التطهير أوّلاً . عندها صرّ العجوز على أسنانه ونهض متثاقلا ، ومشى بصعوبة

صوب غرفة نومه ثمّ دفع بابها ، وعندها ظهر أمامهم شبح اكويكى ، متجهّمة ، حاقدة ، فقفز الجميع على أقدامهم وانطلق واحد أو اثنان منهم إلى الخارج .
قال الجدّ وابتسامة حزينة ترتسم على وجهه " عودوا هنا . هل تعرفون من تكون هذه الفتاة؟ أريدكم أن تجيبوني . أنت يا أوفوديل ، إنك أكبرهم وأريد الإجابة منك . من تكون هذه ؟"
" إنها أختنا اكويكى . "
" أختكم اكويكى ؟ ولكنك أخبرتني لتوّك أنها قد ماتت لإصابتها بمرض الانتفاخ اللعين ، فكيف تموت وتكون هنا في نفس الوقت ؟ " صمـــــت " ومادمتم لا تعرفون ما هو الانتفاخ اللعين، فلماذا لم تستعينوا بالذين يعرفون ؟ "
" لقد استشرنا ممارسي الطبّ في كل أنحاء يوموفيا و أبامى . "
" لماذا لم تأتوا بها إليّ ؟ " صمـــــت .
قال الجد بعد ذلك إنه قد جمعهم ليخبرهم أنّه ومنذ هذا اليوم ستكون اكويكى ابنته ، وسيصبح اسمها ماتيفي . فهي لم تعد ابنة ليموفيا ، بل هي ابنة إنزى . عندها تبادل الإخوة النظرات فيما بينهم بصمتٍ . ثمّ أردف العجوز " عندما ستتزوج سيكون مهرها لي وليس لكم ، أمّا بالنسبة لطقوس التطهير فبإمكانكم الاستمرار فيها لأن اكويكى تُعدّ في الحقيقة ميتة في يوموفيا ."اختفت اكويكى داخل الغرفة دون أن تكلف نفسها حتى إلقاء التحية على إخوتها .

(1) اللاقبى سائل حلو المذاق، يستحلب بطريقة خاصة من طلوع أشجار النخيل ، يتحوّل إلى شراب مسكر إذا ترك لفترة، ويعتبر خمر الفقراء في الدول التي ينبت فيها النخيل (المترجم)

.

الناخب

بقلم : تشنوا أشيبي

يتمتع روفيوس أوكيلي وكنيته رووف بشعبية مرتفعة في قريته ، ورغم أنّ القرويين لم يعبّروا عن ذلك بكثير الكلام ، إلاّ أنّ محبته كانت تعبيراً عن عرفانهم لشاب مفعم بالحيوية وخلافا للعديد من أقرانه هذه الأيام، لم يغادر القرية بحثاً عن أيّما عمل في المدن الكبرى . لم يكن رووف بالشخص الأخرق أو المغفل ، فالجميع يعرف أنه قد أمضي عامين يتدرب على إصلاح الدرّاجات الهوائية في ميناء هاركوت ، وأنه تخلى بمحض إرادته عن مستقبل مشرق ليعود إلى مواطنيه، ويقودهم في هذه الأوقات العصيبة . إنّ ذلك لا يعني أنّ يوموفيا كانت بحاجة إلى قيادة فهي تتبع بالكامل لحزب اتحاد الشعب (ح ت ش) ، وابنها الأكثر شهرةً هو جناب النائب الشيخ ماركوس إيبي الذي كان وزيراً للثقافة في الحكومة المنصرمة (من المؤكد أنها ستكون الحكومة القادمة أيضاً) . لم يشكّ أيّ أحد في أنّ الشيخ الوزير المحترم ، سيعاد انتخابه في دائرته ، أمّا معارضيه فيمكن وصفهم بالذبابة التي تحاول زحزحة كومة روث من مكانها، وقد كان من السخف أن تأتي هذه المعارضة من شخص غير معروف بالمرّة .

كما هو متوقعٌ فقد كان رووف في خدمة جناب الوزير في الانتخابات القادمة، حيث اكتسب خبرة في مجال الدعاية الانتخابية على مستوى القرية ، والمقاطعة ، والبلاد بأسرها ، وبإمكانه أن يعرف مزاج واتجاهات الناخبين في أي وقت، فهو مثلاً كان قد حذر الوزير منذ شهور من التغيّرات الراديكالية التي حدثت في تفكير أهالي يوموفيا منذ الانتخابات الأخيرة .

كان لدى القرويين خمس سنوات بكاملها ليتبينوا خلالها مدى السرعة والنسبة التي تحقّقُ بهما السياسة وعودها الانتخابية المختلفة في مسائل مثل الازدهار ، ومنح الألقاب القيادية القبلية، وبعض الألقاب الأخرى صعبة الفهم ـ مثل الدكتوراه ـ التي يتوجب شرحها لهم بعناية ، لأنّ القرويين ببساطة فهمهُم، مازالوا يعتقدون أنّ مهمة كلُّ من يحمل هذا اللقب هي معالجة المرضى فقط . على أية حال فقد جاءت هذه الوعود بالألقاب والامتيازات ولكن لتحط على الرجل الذي منحوه صوتهم منذ خمس سنوات دون أيّ مقابل ، أمّا الآن فهم يستعدون للقيام بالعمل بطريقة مختلفة .

تكمن حجّتهم في أنّ ماركوس إيبي لا يعدو أن يكون أكثر من معلم فاشلٍ في مدرسة الإرسالية التبشيرية، إلى أن جاءت السياسة إلى قريتهم فاستغلها بحكمة ، وقال البعض أنه لجأ إلى السياسة في الوقت المناسب تلافيا لإجراءات فصله من المدرسة، لحدوث حالة حمل لإحدى المعلمات فيها .

أما اليوم فهو الشيخ المحترم ، ولديه سيّارتين طويلتين ، وقد ابتنى لنفسه أكبر بيتٍ شهدته هذه المنطقة . لكن يجب القول أنّ أيّا من هذه النجاحات لم تذهب بعقل ماركوس كما يحدث في العادة ، فقد بقي مخلصا لمواطنيه، وكان يترك العاصمة بكل مباهجها كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ويعود إلى قريته التي تفتقر لإمدادات المياه والكهرباء ، رغم أنه ركّب أخيرا محطة خاصة لتوليد الكهرباء في بيته الجديد . وخلافا للطائر الصغير الذي أكل وشرب ثمّ خرج لتحدّي روحه الخاصة التي تحميه ، فإنّ ماركوس كان على بينة من المصدر الذي أتت منه نعمته، ولذلك سمّى بيته الجديد " قصر يوموفيا " تكريما لقريته ، كما ذبح خمسة عجول وعدد لا يحصى من الماعز لتكريم الناس في يوم افتتاح قصره الذي دشّنه رئيس الأساقفة بنفسه .

كان الجميع يغدق عليه عبارات الثناء ، وقال أحد الشيوخ " إنّ ابننا رجل طيبٌ ولا يشبه الهاون الذي يعطي ظهره للأرض بمجرد أن يضعوا لـه الطعام " . لكن عند انتهاء الوليمة قال القرويون في أنفسهم إنهم لم يعيروا في الماضي أية أهمية لأصواتهم الانتخابية، ويجب ألاّ يكرروا ذلك في المستقبل . لم يكن الشيخ ماركوس إيبى ليؤخذ على حين غرّة في مثل هذه المواقف ، حيث قام بسحب مرتباته لخمسة شهور قادمة، وغيّر عدة مئات من الجنيهات إلى نقود معدنية براقة، وسلّح العديد من فتيان حملته الانتخابية بالعديد من الأكياس الصغيرة . كان يقوم بإلقاء الخطب أثناء النهار أما في الليل فيقوم أنصاره راسخو الإيمان بحملة الهمس ، وكان رووف أحد أكثر هؤلاء الدعاة إخلاصاً .
قال رووف لمجموعة من الشيوخ المجتمعين في منزل أوقبويفي إيزنوا وهو رجلٌ يحمل لقبا قبلياً رفيع المستوى " إنّ لدينا وزيراً ينحدرُ من قريتنا ، وهو أحد أبنائنا ، وياله من شرف عال يمنح لأي قرية .. هلاّ توقفتم وسألتم أنفسكم لماذا وقع علينا الاختيار لحمل هذا الشرف ؟ سأخبركم .. إنّ ذلك يعود لتفضيلنا من قبل قادة حزب اتحاد الشعب ، وسيستمر هذا الحزب في القيادة سواءً أعطينا أصواتنا لماركوس أم لم نفعل ، فكروا في شبكة المياه التي وعدونا بها .. "
تواجد في تلك الغرفة خمسة رجال بالإضافة إلى رووف ومساعده ، وكانوا قد تحلّقوا حول مصباح كيروسين قديم ينبعث من بين زجاجه المتشقق المليء بالسخام ضوءٌ يميل إلى الصفرة . جلس الكهولُ على كراسي وطئة وافترش بعضم الأرض ، وقد ألقيت أمام كلّ منهم قطعتا نقودٍ معدنيتين من فئة الشلن ، أمّا في الخارج خلف الباب الموصد، فقد كان وجه القمر متجهّماً .
قال إيزنوا " نحن نؤمن أنّ كلّ كلمة قلتها هي الحقيقة ، وسيقوم كلٌّ منا بإعطاء صوته لماركوس . فمن باستطاعته أن يترك وليمة ضخمة ويذهب لتناول طعام الفقراء ؟ قل لماركوس أنّ بإمكانه أن ينال أصواتنا وأصوات زوجاتنا أيضاً ، ولكننا نقول أنّ إعطاء شلنين هو أمرٌ مخزٍ ،" ثمّ أدنى المصباح وأماله صوب النقود كما لو كان يريد التأكد أنه لم يكن مخطئاً في تقدير قيمتها ." نعم إنّ شلنين مبلغٌ تافه ، فلو أنّ ماركوس كان رجلاً فقيراً ــ لا سمح الأسلاف ــ فسأكون أوّل من يمنحه صوتي كما فعلتُ في السابق ، ولكن ماركوس اليوم رجلٌ عظيمٌ ويتصرف كالعظماء . لم نطلب منه أية نقود بالأمس ولن نطلب منه شيئا غدا، لكن هذا اليوم هو يومنا ، لقد تسلقنا بالأمس شجرة الإيروكو وسيكون من الحماقة أن نهبط عنها قبل الحصول على ما يلزمنا من الحطب ."
لم يسعْ رووف إلاّ الموافقة على ما قالوا ، وقد حصل هو نفسه أخيراً على الكثير من الحطب، فبالأمس فقط طلب من ماركوس إحدى عباءاته القيّمة وحصل عليها ، وفي يوم الأحد الماضي قامت زوجة ماركوس (وهي المعلمة التي كادت أن تسبب لـه المشاكل) بالاعتراض ــ وذلك من طبعها ــ عندما تناول رووف زجاجة البيرة الخامسة من الثلاّجة ؛ مما أدى بزوجها إلى تعنيفها وإسكاتها على مسمع منه ، وأخيرا ربح قضية خلافٍ على الأرض في الفترة الأخيرة لأنّ السبب كان ــ من ضمن أسباب كثيرة ــ ذهابه إلى موقع الأرض المتنازع عليها يركب سيّارة يقودها سائق ، ولكلّ ذلك فهم رووف ما كان يعنيه أولئك الرجال بمسألة الحصول على الحطب .
" حسنٌ " قال رووف باللغة الإنجليزية ، وعاد ليتحدث بلغة الإيبو " لا يجب أن نختلف حول هذه الأمور الصغيرة ." ثم نهض ليعدّل من وضع عباءته ، ووضع يده مرة أخرى داخل كيس النقود ، ثمّ انحنى وكأنه قسيسٌ يوزعُ خبز القربان المقدس، وأعطى شلنا إضافيا لكل رجل من الحاضرين ، لم يسلمها لهم في أيديهم بل ألقى بها أمامهم على الأرض . قام الرجال الذين لم يتنازلوا حتى الآن ويلمسوا النقود بهزّ رؤوسهم ، فنهض رووف مرّة أخرى وأضاف لكل منهم شلناً .

" لن أزيدكم شيئا " قال بنوع من التحدي الذي يكاد يكون مزيفاً ، أمّا الشيوخ فكانوا يعرفون المدى الذي يمكنهم الذهاب إليه دون أن يتخلوا عن كبريائهم ، ولهذا عندما استمرّ رووف في الحديث قائلا : " اذهبوا وأعطوا أصواتكم للأعداء إن أردتم " أسكتوه بسرعة بحديث مناسب من كلٍّ منهم ، ومع انتهاء آخرهم من الحديث ، كان ممكنا التقاط تلك الأشياء من الأرض دون أن يفقدوا الكثير من كبريائهم . .
كان العدوّ الذي يشير إليه رووف هو حزب منظمة التقدم (ح م ت) الذي أسسته القبائل المنتشرة على طول الساحل لحمايتهم ــ كما قال مؤسّسو الحزب ــ من محوهم بالكامل ثقافيا ، وسياسيا ، واجتماعيا ، ودينيا . ورغم أنه لم يكن لهذا الحزب أيّ أمل، فقد ورّط نفسه في حملة حمقاء وحرب معلنة ضد (ح ت ش) حيث جهزوا سيارات ومكبرات صوت وسلموها لبعض الأوغاد والمجرمين المحليين، ليثيروا بها الكثير من الضوضاء في أنحاء المكان . لم يكن أحدٌ يعرف بالتحديد كم صرفوا من النقود في يوموفيا ، ولكن قيل إنه مبلغٌ كبيرٌ ومن المؤكد أنّ المسؤولين المحليين عن حملتهم الانتخابية سيصبحون أغنياء فور الانتهاء منها .
حتى ليلة البارحة كانت الأمور تسير حسب ما هو مخطط لها ، كما كان سيقول رووف ، إلى أن تلقّى زيارة غريبة من مدير الحملة الانتخابية لحزب منظمة التقدم ، ورُغم أنه و رووف يعرفان بعضهما جيدا ويمكن حتى وصفهما بالأصدقاء ، لكنّ الزيارة اكتنفها جوّ من البرود لكونها زيارة عمل . لم يقل لـه أية كلمات غير ضرورية بل وضع أمامه على الأرض مبلغ خمسة جنيـهات وقال لـه " نريد صوتك " . نهض رووف من كرسيّه واتجه إلى الباب الخارجي وأغلقه بعنايةٍ ثمّ عاد إلى مكانه ، وقد أعطاه هذا التصرف بعض الوقت لكي يزن ما عُرض عليه . أثناء الحديث تسمّرت عيناه على أوراق النقد الحمراء، وكان يبدو وكأنه قد سُحر بصورة الفلاّح المنهمك في جني ثمار الكوكا المرسومة على النقود .
قال بصوت واهن " تعلمون إنني أعمل لصالح ماركوس وسيكون الأمر في غاية السوء لو أنّ .. "
" لن يكون ماركوس هناك عندما ستدلي بصوتك . أمامنا الكثير من العمل هذه الليلة فهل ستأخذ النقود أم لا ؟ "
سأل رووف " ألن يسمع أحدٌ بهذا الأمر خارج هذه الغرفة ؟ "
" نحن نبحث عن الأصوات وليس عن الإشاعات . "
" هذا أمر جيد " نطقها رووف بالإنجليزية .
أشار الرجل إلى رفيقه الذي أحضر شيئاً مغطىً بخرقة حمراء ، وشرع ينزع عنها الغطاء .. فظهرت تحته حلة فخارية بداخلها شيء مخيف وقد غُرس فيه بعض الريش .
" تعرفُ أنّ ييي في الأصل من امبانتا ، وتعرف أيضا ما يعنيه ذلك . اقسم لنا أنك ستصوّت لصالح مادوكا ، وإذا لم تفعل فستعلمُ يـيي بذلك . "
كاد قلب رووف أن ينفطر عندما شاهد الييي ، وطبعا فهو يعرف شهرة امبانتا في مثل هذه المسائل ، ولكنه كان رجلا يتخذ قراراته بسرعة . فما هو تأثير صوت واحد يدلي به في الخفاء على مادوكا ، هل يمكن أن يسرق من ماركوس نصره المؤكد ؟ لن يؤثر ذلك الصوت في شيء.
" سأدلي بصوتي لمادوكا ، وإذا لم أفعل فستعرف هذه الييي بذلك . "
" هذا كل مافي الأمر . " قال الرجل وهو ينهض ، بينما غطى رفيقه ذلك الشيء ثانية واتجه به صوب السيارة .
قال رووف عند الباب " أنت تعرف أنه لا فرصة لديه ضدّ ماركوس . "

" يكفي أن يحصل على عدة أصوات هذه المرة . وسيحصل على المزيد في المرة القادمة ، فيعرف الناس إنه يعطي جنيهات وليس شلنات ، وعندها سينصتون لما سيقول . "
حل يوم الانتخابات . اليوم العظيم الذي يتكرر كل خمس سنوات، حيث يمارس المواطنون سلطتهم . انتشرت ملصقات الدعاية الانتخابية ــ وقد فعلت فيها العوامل الجوية فعلها ــ على جدران المنازل ، وجذوع الأشجار ، وأعمدة البرق ، وحثت القليل منها التي لم تتمزق بعد أولئك الذين بإمكانهم القراءة على التصويت لصالح حزب اتحاد الشعب ، أو حزب منظمة التقدم؟
كما جرت العادة ، كان الشيخ المحترم ماركوس إبى يعمل بأسلوبه الفخم المعتاد ، فقد استأجر فرقة موسيقية من مدينة يومورو ووضعها على مسافة، حاول أن تكون قانونية، من مكان الاقتراع ، وأخذ الكثير من القرويين في الرقص على أنغام الفرقة وهم يرفعون بطاقاتهم الانتخابية عاليا قبل التوجه إلى مكان صناديق الاقتراع ، أما الشيخ المحترم ماركوس إبي فجلس في الكرسي المخصص لـه في سيارته الخضراء الفارهة .. يهزّ برأسه ويبتسم . اقترب أحد القرويين المتنوّرين من السيارة وصافح الرجل العظيم ثم هنّـأه مقدما بالفوز ؟ ومباشرة دفع ذلك الآخرين ليحتذوا به فقام المئات بمصافحة ماركوس وقدموا له التهاني .
في نفس الوقت كان رووف وآخرين من المنظّمين يطفرون في أنحاء المكان ، يتصببون عرقا ويوجهون تعليمات اللحظات الأخيرة للناخبين .
قال رووف لمجموعة من النساء الأمّيّات اللاتي بدت عليهن الحماسة وروح الدعابة . " لا تنسين أنّ علامة صندوق مرشحنا هي السيّارة . . "
" مثل التي يجلس فيها ماركوس ؟ "
ردّ رووف " تماماً يا أمّاه . هي نفس السيارة ، إنّ الصندوق الذي تنشدين هو الذي رُسمت عليه سيارة ، ولا تنظرى للصندوق الآخر المرسوم عليه رأس رجل ، فهو مخصص لذوي الرؤوس الفاسدة . "
أدّت ملاحظة رووف إلى انطلاق نوبة عالية من الضحك ، فاسترق نظرة خاطفة صوب الوزير، تعبر عن شخص منهمك في أداء عمله، وتلقى منه ابتسامة رضىً .
انتصبت العروق في رقبته وهو يصيح " صوّتوا للسيارة ، صوتوا للسيارة ، وسوف تتمكنون من ركوبها ؟ "
صاحت نفس السيدة العجوز " وإذا لم تتح لنا الفرصة ، فسيركبها أولادنا . " ومباشرة بدأت الفرقة في عزف لحن " لماذا تسير حين يمكنك الركوب . . . "
بالرغم مما يظهر على الشيخ المحترم ماركوس من هدوءٍ وثقةٍ ، إلاّ أنّه في داخله يسكن شخص قلق شديد التمسك بتفاصيل الأمور . كان يعرف أنه سيفوز بما درجت الصحف على تسميته (فوزا ساحقا) لكنه مع ذلك لم يرغب أن يفقد صوتا واحدا، وبمجرد أن انتهى زحام الناخبين ، طلب من أعضاء حملته أن يذهبوا للإدلاء بأصواتهم .
" رووف . من الأفضل أن تكون أنت البادئ ."
تدهورت روح رووف المعنوية على الفور، لكنه لم يدع أحدا يلحظ ذلك . لقد نجح طوال الصباح في إخفاء قلقه الداخلي بوضع قناع ظاهري ، ولم يكن ذلك أمرا طبيعيا حتى بالنسبة لـه. انطلق بمشيته المرنة التي تشبه القفز متجها إلى مقصورات الإدلاء بالأصوات ، وعند المدخل قام رجل شرطة بتفتيشه للتأكد من عدم حمله لأي بطاقات انتخابية غير قانونية .. ثم سمح لـه بالمرور . شرح لـه المشرفُ على الاقتراع عن الاختلاف في الصناديق ، وعند هذه النقطة فقدت قدماه

مرونتهما المعتادة وقدرتهما على القفز فجرجر قدميه صوب الخلوة . هنالك فوجئ بالسيارة وبالرأس . أخرج من جيبه الورقة الانتخابية ونظر إليها .. كيف يمكن أن يخون ماركوس .. وفي السر ؟ ثم قرر أن يعود إلى الرجل الآخر ويعيد إليه جنيهاته الخمسة .. خمسة جنيهاتٍ بكاملها ؟ ولكنه عرف مباشرة أنّ ذلك أمرٌ مستحيل . لقد أقسم على يبي ، وكانت الأوراق النقدية تبدو حمراء ، والفلاح المرسوم عليها منهمك في عمله .
عند هذه اللحظة سمع صوت الشرطي يسأل المشرف الانتخابي عن الذي يفعله هذا الرجل في الداخل ، وبسرعة البرق تفتّق ذهنه عن فكرة فبسط الورقة ومزّقها إلى نصفين ثمّ وضع كلّ نصفٍ في صندوق ، وقد حرص على وضع النصف الأول في صندوق مادوكا ، وأكّد على ذلك بقوله " إنني أقدم صوتي لمادوكا "
في الخارج وضعوا حبرا على إبهامه كعلامة لمنعه من العودة والتصويت من جديد ، وغادر مكان التصويت مرحا كما دخله .

ممر الموتى

بقلم : تشنوا أشييبي

تحققت آمال " مايكل أوبي " بأسرع مما توقع عندما عيّن مديراً لمدرسة ندومى المركزية في يناير 1949 ، وقد عُرفت هذه المدرسة دائما بتردي مستواها ولذلك قرّرت سلطات الإرسالية التبشيرية تكليف رجل فتي ذا حيوية لإدارتها ، وبدوره تقبل أوبي هذه المسؤولية بكل حماس . كان لديه العديد من الأفكار الرائعة وهاهي الفرصة قد حانت لوضعها حيز التنفيذ، وهو الذي كان قد تلقى دراسة مكثفة في المرحلة الثانوية، أعدته ليكون " معلما متميزاً " ، كما جاء في الملفات الرسمية أنه صنّف بطريقة مختلفة عن باقي المديرين في المجال التبشيري ، وكان معروفا عنه نقده اللاذع لطرق وأساليب المدراء القدامى ، وهم في العادة ذوي مستوىً تعليمي أقل .

سأل زوجته عندما تناهت إليهما تلك الأخبار المفرحةُ بترقيته " سنقوم بعمل جيد، أليس كذلك؟ "

أجابت " سنفعل ما بوسعنا وسيكون لدينا حدائق جميلة ، وستكون كل الأساليب المستعملة عصرية وممتعة .. " فخلال العامين ومنذ أن تزوجا ، تشبّعت كليا بولعه " بالأساليب العصرية " وتشنيعه على أولئك الشيوخ العاجزين في مجال التعليم الذين من الأفضل لهم أن يعينوا كمدرسين في سوق اونيتشا . لقد بدأت تتخيل نفسها محط الإعجاب بصفتها زوجة للمدير الشاب، وكملكة متوجة للمدرسة .

ستحسدها زوجات المعلمين على مركزها ، وستكون قدوة لهم في كل شيء . . . ثم فجأة خطر لها أنه ربما لن يكون هناك أخريات غيرها ، وبينما هي في حالة بين الرجاء والخوف ، سألت زوجها عن الأمر وهي تنظر إليه بقلق .

" كل زملائنا شباب وغير متزوجين " أجابها الزوج بحماس لم تشاطره إياه هذه المرة ، ثم استطرد " وذلك أفضل بالطبع "

" لماذا ؟ "

" لماذا ؟ لأنهم سيعطون جلّ وقتهم وجهدهم للمدرسة . "

خاب أملُ نانسي، ولعدّة لحظات تولدت لديها شكوكٌ حول المدرسة الجديدة ، لكنّ ذلك لم يدمْ أكثر من ثلاثُ دقائق لأنّ حظها العاثر لن يعميها عن أهمية هذا العمل لمستقبل زوجها . نظرت إليه وهو منكمشٌ في كرسيه وقد بدت لها بنيته الضعيفة وكتفيه المتهدلين ، لكنه كثيراً ما يفاجأ الناس بنوبات من الحيوية الجسمانية الزائدة .. على كلٍّ فقد بدا في جلسته تلك وكأنّ كلّ قوّته الجسمانية قد غادرته لتختفي خلف تلك النظرة الثاقبة في عينيه، لتُضفي عليهما قوة اختراقٍ هائلة. كان في السادسة والعشرين ولكنه يبدو وكأنه في الثلاثين أو أكبر ، وبشكل عام لم تعدمه الوسامة .

بعد برهة قالت نانسي مستعيرة جملة قرأتها في المجلة النسائية " هلاّ شاركتنا في أفكارك ، يا مايك ؟ "

" كنت أفكر في هذه الفرصة العظيمة التي مُنحنا إيّاها مؤخراً ، لنبيّن لهؤلاء القوم كيف يجب أن تدار المدارس . "

كانت مدرسة ندومي في وضع سيئ بكل معنى الكلمة ، وقد خصّص السيد أوبي كلّ وقته للعمل وكذلك فعلت زوجته . كان لـه هدفان ، الأول هو رفع المستوى التعليمي، والثاني تغيير ساحة محيط المدرسة إلى مكان غاية في الجمال . تحققت حديقة أحلام نانسي، حيثُ استعادت الحياة وربت مع حلول موسم الأمطار ، وتميزت بسور من شجيرات الخبّازى والألماندا بورودها

الحمراء والصفراء الزاهية يمرّ على طول حدود المدرسة ويفصلها عن الأشجار الكثيفة للمنطقة المجاورة .
ذات مساءٍ وبينما كان أوبي يتفقد مزهوّا ما صنعت يداه بالحديقة، فوجئ برؤية عجوز من القرية تمرّ عبر الساحة وتخترق حقلا من زهور القطيفة لتسير بين سور الشجيرات ، وعندما ذهب إلى نفس المكان رأى أثراً باهتا لممر أقدامٍ من القرية يخترقُ باحة المدرسة لينتهي في الجهة الأخرى .
قال أوبي لأحد معلميه وكان قد أمضى ثلاثُ سنوات في المدرسة " إنّ ما يدعو للاستغراب هو أنكم سمحتم لهؤلاء القرويين باستخدام الممر ، وذلك أمرٌ في غاية الغرابة ." ثمّ هزّ برأسه مستنكراً .
قال المعلم معتذرا " يبدو أنّ هذا الممر مهمّ جدا لهم .. رغم ندرة استخدامهم له ، فهو يربط بين معبد القرية وموقع مقبرتهم . "
سأل المدير " وما علاقة ذلك بالمدرسة ؟ "
أجاب المعلم هازّا بكتفيه " لا أعرف ، ولكنني أذكرُ أنّه قد حصلت مشكلة كبيرة في الماضي عندما حاولنا إلغاء هذا الممر . "
قال أوبي وهو يخطو بعيدا " لقد كان ذلك في الماضي ، ولن يستعمل بعد الآن . إذْ ماذا سيظنُّ مفتش الحكومة عندما يحضر للتفتيش على المدرسة في الأسبوع القادم ؟ فحسب ما أعرف ، قد يقررُ القرويون استخدام المدرسة لإقامة شعائرهم الوثنية أثناء التفتيش . "
غرس المدير أوتادا كبيرة دُعّمت بأسلاك شائكة عند كلّ من فتحة الدخول إلى الممر، والمكان الذي ينتهي عنده خارج سور المدرسة .
بعد ثلاثة أيام حضر كاهن القرية إلى المدرسة . كان طاعنا في السن محدودب الظهر قليلا، يحمل عكازا متينا يطرق به الأرض كنوع من توكيد آرائه في كل مرة يتطرق فيها إلى نقطة جديدة خلال المناقشة .
قال الكاهن بعد تبادل المجاملات المعتادة " لقد سمعتُ أنّ ممر أسلافنا قد أغلق أخيراً .. "
أجاب السيد أوبي " نعم . فلا يمكننا السماح للناس باستعمال فناء مدرستنا كطريق عام . "
قال الكاهن وهو يدقّ الأرض بعصاه " إنّ هذا الممر موجود هنا قبل أن تولد أنت وقبل أن يولد أباك ، حياة القرية متعلقةٌ به لأنّ موتانا يغادروننا عن طريقه ، وكذلك يزورنا أسلافنا من خلاله ، والشيء الأهم هو أنّ المواليد الجدد يأتون إلينا عبر هذا الممر .. "
كان السيد أوبي يصغي إليه بينما ترتسم على وجهه ابتسامة رضىً، ثم قال " إنّ الغاية الأساسية لمدرستنا هي محو كل هذه المعتقدات ، فالموتى لا يحتاجون إلى ممر مشاة ، والفكرة برمتها مضحكة ، ومهمتنا أن نجعل أطفالكم يضحكون على مثل هذه الأفكار. "
أجاب الكاهن " قد يكون فيما تقول حقيقة ، ولكننا نتبع ما كان يفعله آباؤنا، وإذا أعدت فتح الممر فلن يكون هناك ما نختصم عليه ، فأنا دائما أقول : دع الصقر يحطّ ، ودع النسر يحطّ أيضاً" ثمّ نهض ليغادر .
قال المدير الشاب :" إنني آسفٌ ، ولكن لا يمكن للمدرسة أن تكون طريقاً عاماً للمرور لأنّ ذلك ضدّ التعليمات ، وعليه أقترح أن تنشئوا ممرا جديداً خارج نطاق مدرستنا ، ونستطيع حتى السماح لطلبتنا بمساعدتكم على إنشاء الممر ، ولا أظن أنّ الأسلاف ستزعجهم تحويلة طفيفة فيه."
" ليس لدي أكثر مما قلت ." نطق بها الكاهن العجوز من خارج الغرفة .

بعد يومين توفيت امرأة شابة أثناء الوضع ، ومباشرة استعان الأهالي بأحد الكهنة الذي أمر بتقديم الكثير من القرابين لاسترضاء الأسلاف الذين أهانهم إغلاق فتحات السور .

نهض أوبي صباح اليوم الذي يليه وشاهد الخراب الذي حلّ بكل إنجازاته ، حيث اقتُلع سور الشجيرات بالكامل وليس عند بداية ونهاية الممر فقط ، وقُطّعت وخرّبت كافة أحواض الزهور كما أطيح بأحد أبنية المدرسة .. في هذا اليوم بالذات حضر المفتش الأبيض وكتب تقريرا سيئا عن حالة المكان ، ولكنه تحدث بصورة أكثر عن قضية الحرب القبلية التي نشبتت بين المدرسة والقرية ، وسببها الحماسة الزائدة عن اللزوم للمدير الجديد .

الزواج مسألة شخصية

بقلم : تشنوا أشيبي

" هل كتبت لأبيك بعد ؟ " وجّهت نيني هذا السؤال ذات عشية، بينما كانت تجلس مع نايميكا في غرفتها في شارع كاسنجا ، رقم 16 ، في مدينة لاجوس .

" كلاّ . كنت أفكر في الأمر ، وأظنّ أنه من الأفضل إخباره عندما أعود إليهم في الإجازة؟ "

" ولكن لماذا ؟ إنّ إجازتك ماتزال بعيدة ــ ستة أسابيع بكاملها ويجب أن يعلم الآن عن السعادة التي نرفل فيها . "

ظلّ نايميكا صامتا لوهلة ، ثم شرع في الحديث ببطء وكأنه يتخير كلماته " أتمنى لو كنت متأكدا من أنّ هذا الأمر سيعني له السعادة . "

فوجئت نيني قليلا وأجابته " بالطبع يجب أن يكون ذلك مصدر سعادة له ، ولم لا ؟ "

" لقد عشت في لاجوس طوال حياتك ولا تعرفين إلاّ القليل عمّن يعيشون في مناطق نائية من البلاد . "

" هذا ما تقوله دائما . ولكنني لا أعتقد بوجود أي أشخاص مخالفين لباقي البشر، بحيث يشعرون بالتعاسة لمجرّد أنّ أبناءهم قد خطبوا ، أو تزوجوا . "

" نعم . سيكونون غير سعداء بالمرة إذا لم تتم هذه الخطوبة عن طريقهم ، وبالنسبة لوضعنا فالأمر أكثر سوءاً ــ لأنك لا تنتمين حتى لقبائل الإيبو ؟ "

قيلت الجملة الأخيرة بجدية وفظاظة بحيث أنّ نيني عجزت عن الرد مباشرة ، ففي جو المدينة المتحرر من الأحقاد القبلية بدا لها دائما أنّ تحديد الشخص الذي تتزوجه يتعين أن يكون لـه علاقة بانتمائه القبلي، هو مدعاة للضحك .

أخيرا قالت " أنت حقا لا تعني أنه سيعارض زواجك مني لهذا السبب ؟ لطالما اعتقدتُ أنكم الإيبو تتقبلون الآخرين بشكل ودّي ."

" نحن كذلك ، ولكن عندما يتعلق الأمر بالزواج ، في واقع الأمر . . . فالأمور ليست بهذه البساطة ، ثم إنّ هذا الشأن لا يقتصر على الإيبو فقط ، فلو أنّ أباك عاش في وسط منطقة الإيبوبو لكان مثل أبى تماما . "

"لا أعرفُ ، وعلى أية حال مادام أبوك مغرما بك كثيرا فإني واثقة أنه سيسامحك بسرعة ، هيا كن فتىً طيباً وابعث له برسالة لطيفة . . "

" لن يكون من الحكمة أن يصله الخبر عن طريق رسالة حيث ستسبب لـه صدمة ، أنا واثق من ذلك . "

" طيّب يا عزيزي ، افعل كما تريد فأنت أدرى بأبيك . "

بينما كان نايميكا في الطريق إلى بيته ذلك المساء ، شرع يستعرض العديد من الطرق للتغلب على معارضة أبيه خاصة في هذا الوقت بعد أن عثر أبوه على عروسٍ لـه . فكر أنْ يُطلع نيني على رسالة أبيه ، ثم قرر عكس ذلك .. ليس في الوقت الحالي على الأقل . بعد وصوله للبيت أخذ في قراءتها ثانية ولم يتمالك منع نفسه من الابتسام . إنه يتذكرُ يوقوي جيدا . فتاة قوية ، فارعة الطول، كان من عادتها أن تتغلب على الفتيان بما فيهم هو ـ عند بركة المياه ــ كما كانت غبية جدا في الدراسة .

" لقد عثرت لك على فتاة ستناسبك ، وتعجبك ، إنها (يوقي نويكي) الابنة الكبرى لجارنا جاكوب نويكي . تحصلت الفتاة على تنشئة دينية مناسبة ، فعندمـــا انقطعت عن الدراسة منذ بضع سنوات قام والدها (وهو رجل يتمتع بحكمة) بإرسالها إلى بيت راعي الأبرشية حيث تلقت كل التدريب الذي تحتاجه أيّ زوجة، وأخبرني معلم الدين أنّ بإمكانها قراءة الكتاب المقدس بكل طلاقة . آمل أن نبدأ المفاوضات حول الزواج عند عودتك في ديسمبر . "

في المساء الثاني لعودته من لاجوس جلس نايميكا مع أبيه تحت شجرة القرفة ، وهو المكان الأثير لدي الأبُ، حيث يجلس فيه لقراءة الكتاب المقدس عندما تغرب شمس ديسمبر الجافة وتأخذ الرياح الخفيفة المنعشة في اللعب بأوراق الشجر .

قال نايميكا فجأة " أبي لقد أتيتُ طالبا المغفرة . "

سأل الوالد مستغرباً " المغفرة ؟ ولماذا يا بني ؟ "

" الأمر يتعلقُ بموضوع هذا الزواج . "

" أي زواج تعني ؟ "

" لا أستطيع ــ لابدّ أن نقوم بـ ــ أعني من المستحيل أن أتزوج ابنة نويكي . "

" مستحيل ؟ ولماذا ؟ "

" لأنني لا أحبها . "

" لم يقل أحدٌ إنك تحبها . ولماذا تحبها ؟ "

" الزواج شيء مختلفٌ هذه الأيام . . . "

قاطعه الأب " انظر يا بني ، ليس هناك شيء مختلف لأنّ ما ينشده المرء في الزوجة هو الصفات الجيدة والخلفية الدينية الممتازة . "

اكتشف نوايميكا أنّ الطريقة التي تسير بها المناقشة الحالية لن تؤدي إلى أية نتيجة، فقال : "والأنكى من ذلك، أنا مخطوب لفتاة أخرى لها نفس مميزات يوقوي ، وهي . . "

لم يصدق الأب ما تناهى إلى سمعه فسأله مضطرباً ، وببطء " ماذا قلت ؟ "

" إنها فتاة متدينة ، وتعمل معلمة في مدرسة بنات في لاجوس . "

" هل قلت معلمة ؟ إن كنت ترى أنّ ذلك هو أحد مؤهلات الزوجة المناسبة، فأودّ يا إيميكا أن أبين لك أنّ المرأة المتدينة لا يجب أن تعمل في مجال التعليم ، فقد قال القديس بولس في رسالته إلى الكورنثيين بأنه على المرأة أن تلتزم الصمت ، ثم نهض من كرسيه ببطء وشرع يذرع المكان جيئة وذهابا . لقد عثر على موضوعه المفضل، وأخذ يدين بعنف قادة الكنيسة الذين يشجعون النساء على ممارسة مهنة التعليم في مدارسهم ، وبعد أن استنفذ عواطفه المتأججة في منولوج طويل، عاد أخيرا إلى موضوع خطوبة ابنه بعد أن هدّأ من نبرته قليلا .

" ابنة من هي ، على أية حال ؟ "

" إنها ننـي أتانج . "

" ماذا ؟ " وكأنّ الهدوء الذي استعاده من قليل قد غادره " هل قلت نينا تاقا، ما معنى ذلك؟"

" ننـي أتانق تنحدر من منطقة كالابار ولن أتزوج غيرها ." لقد كانت تلك إجابة قاسية وتوقع نايميكا أن تهبّ العاصفة، ولكن ذلك لم يحدث وكل ما فعله والده أنه اتجه إلى غرفته . لم يكن يتوقع ردّة الفعل هذه .. وكان ذلك مثار حيرة لـه. إنّ صمته أكثر رهبة من سيل من أحاديث الوعيد ، ولم يتناول الأبُ عشائه في تلك الليلة .

عندما أرسل في طلب نايميكا في اليوم التالي استعمل معه كلّ الطرق الممكنة لثنيه عن موقفه، ولكن الفتى ظل على صموده ، وفي النهاية يأس الأب من محاولته وأعتبر أنه قد فقد ابناً.
" من واجبي ومن حقي عليك يا بني أن أبين لك مواقع الخطأ من الصواب ، إنّ من حاول زرع هذه الفكرة في مخيلتك كأنه ذبحك، فما ذلك إلا عملٌ شيطاني ." ثم أشار عليه بالابتعاد عنه.
" ستغير رأيك يا أبت عندما تعرف نني . "
أجاب الأب " لن أرها مطلقاً " . ومنذ تلك الليلة لم يتحدث الأب إلى ابنه إلا نادراً، لكنه لم يتوقف عن الأمل بأن ابنه سيكتشف مدى جدية الخطر الذي يسير فيه ، ولذلك أدرجه في برنامج صلواته الصباحية والمسائية .
من جانبه كان نايميكا متأثراً للغاية من حالة الأسى التي اكتنفت والده ، لكنه ظل يأمل أن تذهب تلك الحالة ، ولو أنه عرف أنّ تاريخ قومه في الماضي لم يسجّل أن رجلا منهم تزوّج امرأة تتحدث لغة أخرى لكان أقل تفاؤلاً . لم نسمع بذلك من قبل . كان ذلك حكمٌ صدر من أحد الكهول بعد عدة أسابيع ، وقد قال هذه الجملة القصيرة نيابة عن كل قومه . كان قد حضر مع آخرين لمواساة أوكيكي، عندما انتشرت الأخبار حول تصرفات ابنه الذي غادر إلى لاجوس في هذا الوقت
.
" لم نسمع بذلك من قبل " كرّرها العجوز ثانيةً وهو يهز رأسه بأسى .
سأل رجل أخر " وماذا قال الرب بخصوص ذلك "
" قال إن الأبناء سيقفون في وجوه آبائهم . لقد نص على ذلك في الكتاب المقدس ."
قال آخر " إنها بداية النهاية . "
أخذت المناقشة منحىً دينياً ، ولذلك قام مادوبقو وهو رجل عملي بتحويل دفة النقاش إلى المستوى المعتاد فوجه السؤال إلى والد نايميكا .
" هل فكرت في مراجعة أحد الأطباء الشعبيين حول مشكلة ابنك ؟ "
وكانت إجابته " ليس ابني بمريض ."
" وماذا يكون إذن ؟ إن عقل الفتى مريضٌ، وبإمكان طبيب أعشاب ممتاز أن يعيده إلى رشده. إن الدواء الذي يحتاجه هو (أماليل) وهو نفسه الذي تستعمله النساء بنجاح لاستعادة حب أزواجهن ."
قال رجل آخر " إن مادوبقو على حق فهذا الأمر يستدعي العلاج ."
" لن أستدعي الطبيب الشعبي " قال والد نايميكا الذي كان معروفاً بعناده في مواقفه حيال جيرانه الأكثر تشاؤماً في هذه الأمور، ثم أردف " لن أكرر مافعلته السيدة اوشيوبا . إن أراد ابني أن يقتل نفسه، فليفعل ذلك بيديه، ولا يجب أن أساعده في هذا الأمر ."
" ولكن ذلك كان خطئها ، كان يجب عليها أن تقصد عشّاباً شريفا، وعلى كل فهي امرأة ذكية." قال مادوبقو
عقّب جوناثان الذي نادراً ما يتورط في أي نقاش مع جيرانه، لأنه يرى أنهم غير قادرين على النقاش العقلاني " كان الدواء قد أعدّ لزوجها ، حيث سُمّي على اسمه أثناء إعداده وأنا على ثقة أنه كان مناسبا لـه . لقد كان عملا شريرا منها أن تضع الدواء في طعام العشّاب وتدعي أنها كانت تجربه فقط ."
بعد ستة أشهر كان نايميكا يُطلعُ زوجته الشابة على رسالة قصيرة استلمها من أبيه :
" إن ما يحيرني فعلا هو كيف تكون بدون مشاعر وترسل لي صورة زواجـك . كنت سأعيد الصورة إليك ولكن بعد تفكير قررت أن أقصّ صورة زوجتك وأرسلها إليك لأنه لا علاقـة لـي بها

. وكم كنت أتمنى ألا تكون لي علاقة بك أيضا . "
عندما قرأت نني الرسالة ، ورأت صورتها الممزقة اغرورقت عيناها بالدموع ، وأخذت في النحيب .
قال زوجها : " لا تبك يا عزيزتي ، فهو طيبٌ بطبيعته وسيأتي يومٌ يبارك فيه زواجنا ." لكن مضت سنوات ولم يأت ذلك اليوم . طوال ثمان سنوات رفض أوكيكي إقامة أية علاقة بابنه نايميكا ، كاتبه ثلاث مرات فقط عندما طلب الابن أن يعود إلى بيتهم لقضاء أجازته وقال في إحدى تلك الرسائل " لا أستطيع استقبالك في بيتي، ولا يعنيني في شيء أين وكيف ستمضى إجازاتك .. أو حتى حياتك إذا لزم الأمر ."
لم تقتصر النظرة العنصرية لزواج نايميكا على قريته الصغيرة ، ففي أوساط شباب قبيلته العاملين في لاجوس ، بيّنت هذه العنصرية نفسها بشكل مختلف . لم تكن نسائهم في اجتماعاتهنّ القبلية يبدين العداء لنني، ولكنهن عاملنها بجفاءٍ لكي لا تشعر بأنها واحدة منهن ، ولكن مع مرور الوقت بدأت نني شيئا فشيئا في اختراق هذا الحاجز، حتى أنها اتخذت من بعضهن صديقات ، وقد بدأن يعترفن ببطء وباطراد بأنها كانت مدبرة حكيمة ، وأنّ بيتها أحسن ترتيبا من بيوتهنّ .
أخيرا أخذت قصة سعادة نايميكا مع زوجته الشابة تصل وتنتشر في مناطق الإيبو ، ولكن أباه كان من القلائل الذين لم يسمعوا بتلك الأخبار ، حيث كان يبدي امتعاضا شديدا كلما ذكر اسم ابنه، ولذلك تجنب الجميعُ أية إشارة لـه في حضوره ، وتمكن بإرادته الجبارة من الإبقاء على ذكرى ابنه بعيداً عن تفكيره ، وقد كاد هذا المجهود أن يقضي عليه ، ولكنه قاوم ونجح في ذلك .
ذات يوم تسلم رسالة من نني ، ورغما عن إرادته لم يستطع منع نفسه من إلقاء نظرة خاطفة عليها ، وفجأة أضاء وجهه بتعبير مفاجئ وشرع يعيد قراءتها بجدية أكثر .
" منذ أن علم ابنانا بوجود جدّ لهم وهم يصرُّون على مقابلته ، ومن المستحيل
أن اخبرهم إنك ترفضُ رؤيتهم ، إنني أناشدك أن تسمح لنايميكا أن يأتي بهم
لزيارتك لفترة قصيرة خلال إجازته في الشهر القادم، وسأبقى أنا في لاجوس.."
أحس العجوز بأنّ القرار الذي اتخذه طوال السنوات الماضية قد بدأ في الانهيار . كان يقول لنفسه ألا يستسلم ، وحاول أن يغلق قلبه في وجه تلك النداءات العاطفية.
لقد كان الأمر يتعلق بإعادة سن قوانين الصراع . اتكأ على النافذة ونظر عبرها إلى الخارج حيث امتلأت السماء بغيوم ثقيلة سوداء ، بينما أخذت الرياح القوية تملأ الجوّ بالغبار وأوراق الأشجار الجافة ، لقد كانت تلك إحدى الحالات التي تشارك فيها الطبيعة في خوض الصراعات الإنسانية .
سرعان ما بدأ المطر ينهمر ، إنه أول مطر في هذا العام ، وأخذ يسقط على شكل قطرات كبيرة وحادة مصحوبة ببرق ورعد كعلامة لتعاقب الفصول . كان أوكيكي يحاول جاهدا ألاّ يفكر في حفيديه، لكنه عرف الآن أنه يخوض معركة خاسرة . حاول أن يدندن لحنا دينيا أثيرا لديه، لكن الضوضاء الناتجة عن سقوط قطرات المطر الثقيلة فوق السطح منعته من متابعة ترديد اللحن ، واتجهت مخيلته مباشرة إلى الطفلين . . كيف يستطيعُ أن يغلق الباب في وجهيهما ؟ ثم تخيل منظر الطفلين واقفين يملؤهما الحزن والأسى في هذا الجو العاصف ــ ولا يستطيعان دخول بيته .
لم يتمكن من النوم في تلك الليلة جراء الشعور بالندم ــ وقد تملكه إحساسٌ مبهم بالخوف ، خشية أن يدركه الموت قبل أن يعوضهما عمّا لحق بهما .

المجنــــون

بقلم : تشنوا أشيبي

كان مفتونا بالأسواق والطرق المنبسطة . ليست أسواق المنطقة الصغيرة حيثُ تجتمعُ بضع نساءٍ عند الغروب يثرثرن ثمّ يشترين الأوقيلى ليضعنه في حساء العشاء ، وإنما الأسواق الكبيرة التي تضمّ بضخامتها المألوفين والغرباء، وتستقطب القاصي والداني . ولم يكن مفتونا بالمسارب الترابية العتيقة التي تبدأ في القرية لتنتهي عند مجرى المياه ، لكن ما يفتنه هو الطرق العريضة الغريبة السوداء التي لا بداية لها ولا نهاية . بعد طول تجوال اكتشف مثل ذينيك السوقين ، وتربط بينهما مثل تلك الطريق ؛ وعليه فقد انتهت رحلة تيهه . أحد هذين السوقين كان أفو والآخر إيكي ، وكان فاصل اليومين بين إقامتهما مناسبا جدّا لـه : حيثُ لديه متسع من الوقت ليرتّب أعماله في إيكي قبل أن يبدأ في التوجه نحو أفو . كان يمضى الليلة في إعادة تنظيم كوخه، بعد أن أخذت امرأتان ذواتا مؤخرتين كبيرتين من البائعات في السوق بتدنيسه طوال اليوم، مدّعيات أنه مصطبة السوق الخاصة بهنّ . في البداية دخل معهن في شجار ولكنهما ذهبتا لاستدعاء رجالهنّ ــ أربعة وحوش ضخمة أتوا من الغابة ــ لضربه وطرده من الكوخ. بعد ذلك بات يتجنبهما ، حيث يغادر الكوخ صباح يوم السوق ليعود إليه عند الغروب ويمضي الليل فيه. في الصباح يلملم حاجياته بسرعةٍ ليبدأ المسير على تلك الطريق الطويلة الجميلة التي تشبه في التفافاتها أفعى البوا، وتصل حتى سوق إيكي في بلدة أوقبو البعيدة . أمسك هراوته بيده اليمنى في وضع الجاهزية ، واستعمل يده اليسرى في حفظ توازن الصرّة التي تحوي مقتنياته فوق رأسه، وكان قد اقتنى تلك الهراوة ليتعامل بها مع أولئك الوحوش الصغار الذين يصادفهم في الطريق، حيث يقومون برميه بالحجارة ، ويتفكهون مشيرين إلى عرْي أمهاتهم ، وليس لعري أمّه .

كان معتاداً على السير في وسط الطريق ، مندمجاً في حديث معها ، ولكن ذات يوم نزل له سائق إحدى الشاحنات مع رفيق لـه صائحيْن يدفعانه ويلطمانه على وجهه ، وقالا لـه إنّ شاحنتهما كادت أن تدوس أمّهما ، وليس أمّه . بعد هذه الحادثة أخذ يتجنب هذه الشاحنات أيضاً، مع كافة أصنافُ المتشردين الذين يركبونها .

أخذ الآن يقترب من سوق إيكي بعد مسيرة يوم وليلة كاملين . وكانت مجموعات من المتسوقين يسيرون عبر الطرق الجانبية متدفقين إلى الطريق الرئيسة ليشاركوا الجموع المتجهة إلى سوق إيكي . ثمّ شاهد عددا من الشابات يحملن قدور الماء فوق رؤوسهنّ ، وخلافا للآخرين فقد كنّ يسرن في اتجاهه مبتعدات عن السوق، الأمر الذي شكّل مفاجأة لـه . ثمّ شاهد قدريْ مياه آخرين يظهران عليه من الممر المنحدر الذي يقود إلى جانبه من الطريق . شعر بالعطش وتوقف ليفكر في الأمر، ثمّ أنزل صرّته إلى جانب الطريق واستدار نحو المنحدر ، لكنه استعطف أوّلا طريقه الرئيسة لألاّ تشعر بالإهانة أو تواصل الرحلة بدونه . قال وهو يلقي بنظرة حنونة خلفه أعرفُ أنك عطشى ، وسأحضر لك بعض الماء .

كان نويبي رجلا ذا مكانة عالية في أوبقو ، ومكانته آخذة في الارتفاع كل يوم؛ يتمتع بالثراء والاستقامة، وقد بعث لتوه إعلانا لكافة رجال الأوزو في المدينة يبين فيه أنه يرغب في الانضمام إلى دائرتهم الفخرية في موسم قبول العضوية القادم .

قال الرجال الحاملين للعضوية " اقتراحك ممتازٌ ، وسنصدّقُ عندما نرى بأم أعيننا ." كانت تلك طريقتهم المهذبة لإبلاغك بأن تفكر في المسألة مجدداً، وأن تتأكد من امتلاكك للإمكانات المناسبة

للنجاح ؛ لأنّ الأوزو لا تشبه احتفالات منح أسماء الأطفال؛ فأين يمكن أن يخفي الرجل وجهه عندما يبدأ رقصة الأوزو ويجد أنّ رجله قد غُرستْ في الحلبة ؟ ولكن هذه المرة لم يكن تحذير الشيوخ أكثر من إجراء شكلي، لأنّ نويبي كان من الحكمة بحيث لا يمكن لأي شخص أن يظنّ أنه سيشرع في أمر لا يستطيع إنهائه .
في يوم سوق إيكي، نهض نويبي من نومه مبكرا ليذهب إلى مزرعته الواقعة خلف جدول المياه ويقوم ببعض الأعمال الخفيفة قبل الذهاب إلى السوق عند منتصف النهار، ويشرب ملئ قرن أو اثنين من خمر اللاقبى مع رفاقه ، وربما يشترى حزمة من قشّ الأسقف ليعالج به أكواخ زوجاته ، أمّا بالنسبة لكوخه الخاص فقد حسم الأمر منذ عامين عندما استبدل سقف القش بآخر من الصفيح ، وعاجلا أم آجلا سيقوم بنفس الشيء لزوجاته . كان بإمكانه استبدال سقف كوخ موقبوي الآن ولكنه قرر الانتظار لإصلاح الكوخين معاً، لأنّ يودينكوو كانت ستضرم النار في المكان بأكمله . كانت يودينكوو الزوجة الأحدث بثلاث سنوات، لكن هذه المسألة لم تزعجها قط، ولحسن الحظ فإنّ موقبوي امرأة مسالمة ونادرا ما تطالب بالاحترام المتوجب لها من الزوجة الأخرى . كانت تعاني أحيانا من الأذى الذي يلحقها من لسان يودينكوو طوال اليوم دون أن تردّ بكلمة واحدة ، وعندما تضطر للردّ يكون ذلك بكلمات قليلة وبصوت منخفض .
تحديدا في صباح ذلك اليوم ، اتهمتها يودينكوو بكل أنواع الشرور وبالحقد عليها بسب جروٍ لها .
" ماذا فعل لك هذا الجرو الصغير ؟ " كان صياحها من العلوّ بحث يسمعه نصف سكان القرية "
إني أسألك يا موقبوي ، ما الجرم الذي اقترفه هذا الجرو مبكرا في هذا اليوم ؟ "
أجابت موقبوي " ماذا فعل جروك مبكرا هذا الصباح .. لقد وضع فمه القذر في قدر حسائي . "
" وماذا بعد ؟ "
" وبعد ذلك ضربته . "
" ضربته ؟ ولماذا لا تغطين قدر حسائك ؟ هل ضربُ الكلب أسهل من تغطية القدر ؟ هل يُعقل أن يكون لجرو صغير عقلٌ أكثر من امرأة تترك قدر حسائها . . ؟ "" يكفي ذلك ، يا يودينكوو . "
" هذا غير كافٍ يا موقبوي ، غيرُ كافٍ . إذا كان هذا الكلبُ مدينا لك بشيء فأريد أن أعرفه، كل شيء أملكه، حتى هذا الجرو الصغير الذي اشتريته ليأكل فضلاتُ طفلي يجعلك تسهرين الليالي ، أنت امرأة سيئة ، يا موقبوي ، امرأة في غاية السوء ؟ "
من كوخه أصغى نويبي لكل ذلك في صمت ، وعرف من حدّة صوت يودينكوو أنّ باستطاعتها الاستمرار هكذا حتى موعد السوق ، وعليه فقد تدخّل بطريقته المعهودة بالمناداة على زوجته الأولى .
" موقبوي ؟ دعوني في سلام في هذا الوقت المبكر من الصباح ؟ "
" ألا تسمع كلّ هذه الإهانات ، إنّ يودينكوو . . "
" لم أسمع شيئا إطلاقاً من يودينكوو وأريد أن يعم السلام بيتي هذا ، إذا كانت يودينكوو مجنونة فهل يجب أن يجنّ الجميع معها ؟ ألا تكفي امرأة مجنونة واحدة في بيتي هذا، وفي هذا الوقت المبكر من الصباح ؟ "
" لقد نطق القاضي الأعظم " صاحت يودينكوو وهي ترجز ، ثم أردفت " شكراً أيها القاضي الأعظم ، يودينكوو مجنونة ، إنها دائما مجنونة ولكن أنتم يا ذوي العقول اتركوا . . "
" أغلقي فمك أيتها المرأة التي لا تستحي ، أو أنّ وحشا برّيا سيلحسُ لك عيناك هذا الصباح. متى ستتعلمين أن تقصري سوئك في محيط هذا المكان بدلا من إسماعه لكل سكان أوقبو ؟ قلت لك

اغلقي فمك ؟ "
عمّ المكان صمتٌ ، فيما عدا صراخ طفل يودينكوو الذي كانت تغطي عليه جلبة الكبار .
قالت يودينكوو مخاطبة طفلها " لا تبك يا أبت ، يريدون قتل كلبك ، ولكن قومنا يقولون في أمثالهم إن الرجل الذي يقرر أن يطارد الدجاجة ، فسقوطه . . "
ما أن انتصف النهار إلاّ وأنجز نويبي ماعليه من مهام في المزرعة وكان في طريقه للذهاب إلى السوق . عند وصوله إلى مجري المياه الصغير قرر كما هي عادته على الدوام أن يغتسل من عرقه الذي نتج عن العمل، وعليه نزع ملابسه ووضعها على صخرة كبيرة عند الجزء المخصص لاستحمام الرجال ونزل إلى الماء . لم يكن هناك أحدا غيره بسبب التوقيت ولأنه كان يوم السوق ، ولكن بدافع من غريزة الاحتشام فقد استدار ليواجه الغابة تاركا وراءه مسارب الاقتراب إلى بركة الماء .
راقبه المجنون لفترة لا بأس بها ، وكان يبتسم لمرأى مؤخرته في كل مرّة كان الرجل ينحني فيها ليغرف من مياه الجدول الضحلة ليصبها على رأسه وجسمه، ثم تذكّر : أنّ هذا هو نفس الرجل الضخم الذي أحضر معه ثلاثة آخرين مثله وأخرجوني ضرباً من كوخي في سوق أفـو ، فهزّ رأسه . ثمّ تذكر ثانية : إنه نفس المتشرد الذي نزل عليّ من الشاحنة أثناء سيري في منتصف طريقي ، وهزّ رأسه مرة أخرى . ولكنه تذكر أيضا : إنه نفس الرجل الذي أوصى أولاده برميي بالحجارة ، وبقول تلك الألفاظ حول مؤخرات أمهاتهم ، وليس حول أمي . ومن ثم شرع في الضحك .
التفت نويبي خلفه بحدّة ورأى الرجل العاري يضحك، وقد ساعد الانحناء الحاد في مجرى الجدول على تضخيم صدى ضحكته ، ثمّ توقف عن الضحك فجأة مثلما بدأه واختفى السرور من وجهه .
" لقد أمسكت بك عارياً . "
مرّر نويبي يده بسرعة على وجهه ليمسح الماء عن عينيه .
" قلتُ لقد أمسكتُ بك عاريا ، وعضوك يتدلّى ."
" أرى أنك تريد الضرب بالسوط " نطق نويبي الجملة بلهجة لا تخلو من وعيد ، لأنه يقال أن المجنون سرعان ما يخاف ويهرب بعيدا عند ذكر السوط . " انتظر حتى أصل إليك . . ماذا تفعل ؟ أتركها فورا . . قلت لك اتركها ؟ "
التقط المجنون حرام نويبي ولفه حول وسطه . ثمّ نظر إلى نفسه ثانية وشرع في الضحك من جديد .
" سأقتلك " صرخ نويبي وهو يخوض في الماء متجها إلى الرابية وقد أعماه الجنون . "سأضربك بالسوط ، حتى تغادرك جنّتك اليوم ؟ "
ركضا طوال مسافة الممر الصخري الشديد الانحدار الواقع بين شجيرات الغابة ، لكن تجمّع الضباب حجب عن نويبي الرؤية أثناء جريه، فتعثّر ووقع ثم نهض ثانية ، ليقع من جديد وهو يصيح ويلعن . أمّا الآخر فرغم إعاقته المعهودة إلا أنه زاد من مسافة ابتعاده لأنه كان نحيلا رقيق العود كأنه قد خلق من أجل السرعة، ولأنه كان يعدو فقط ولم يضيّع أنفاسه في الصراخ والسباب .
شاهدت فتاتان كانتا تهبطان إلى المجرى رجلاً يركض صاعدا المنحدر يطارده مجنون عارٍ تماماً فقذفتا بأوعيتهما وهربتا صائحتين .
عندما خرج نويبي إلى ضوء الطريق الرئيسي الساطع لم يتمكن من رؤية حرامه، وكاد صدره ينفجر من الغيظ والنار المتأججة بداخله، لكنه واصل الركض ، وبالكاد كان يحسّ بالجموع من

حوله وهو يرجوهم باكيا بدون توقف : " أرجوكم أن توقفوا المجنون ، لقد سرق ملابسي ؟"
وخلال هذا الوقت كان الرجل الذي سرق الملابس قد فُقد بالفعل بين جموع الناس الأكثر كثافة في المقدمة، بحيث أصبحت الصلة بينه وبين الرجل العاري مقطوعة .
اصطدم نويبي أثناء ركضه بالذين يسيرون على الطريق ، وألقى بعجوزٍ نحيلٍ أرضاً بينما كان الأخير يجرُّ عنزة عنيدة مربوطة إلى حبل " أوقفوا المجنون ." صاح فيهم بصوت أجش وقلبه يكاد ينفطر " لقد استولى على حرامي ؟ " نظر الجميع إليه مندهشين ، ثم قلّت الدهشة لأنهم اعتادوا المشاهد الغريبة في يوم السوق الكبير ، حتى وأنّ بعضهم شرع في نوبة ضحك .
" يقول إنهم استولوا على حرامه . "
" أنا متأكد أنّ هذه فكاهة جديدة ، فالجنون لا يظهر عليه بعد وأتساءل إن كان لديه أقارب؟"
" الناس لا يبالون هذه الأيام ، لماذا لا يفرضون رقابة صارمة على أقاربهم المرضى وخاصة يوم السوق ؟ "
في مقدمة الطريق وعلى مدخل السوق تعرّف على نويبي اثنان من قريته ، ألقى الأول بسلته المليئة بالبطاطس ، والثاني بحمله من خمر اللاقبى المعبأ في ثمار اليقطين، وجدّا في أثره لمنعه من الوصول إلى المكان المقدس لقوى السوق ، ولكن بدون نتيجة ، فعندما وصلوا إليه كان في وسط الميدان المزدحم . تساقطت الدموع من عيني يودينكوو ونزعت عنها الجزء العلوي من حرامها ، حيث غطّوه به وأخذوا بيده ليقودوه إلى بيته ، في أثناء ذلك تحدث مرة واحدة عن المجنون الذي أخذ ملابسه عند مجرى المياه .
" لا عليك ." قال لـه أحد الرجال بنبرة أبٍ يتحدثُ إلى طفله الباكي . اقتادوه وتبعهم كالأعمى بينما صدره العريض يعلو ويهبط في بكاءٍ صامتٍ . انضمّ الكثيرون من قريته وبعض أقاربه وواحدٌ أو اثنان من أقارب أمه إلى تلك المجموعة التي يعصرها الحزنُ. همس أحدهم لآخر بجواره بأنّ هذا هو أسوأ أنواع الجنون، لأنه يسكن في العمق ويربط اللسان .
رفض أول طبيب راجعه أقاربه أن يعالجه متذرعاً بالاستقامة .
" بإمكاني القبول ، وأخذ نقودكم منكم ولكن هذا ليس من صفاتي . إن قوى التطبيب التي أملكها معروفة في جميع مناطق أولو وإيقبو ، ولكن لم يحدث إطلاقا أن تنبأت أنّ بإمكاني أن أعيد للحياة رجلا تجرع المياه المسكونة بالأرواح في أني ــ مو ، ونفس الأمر ينطبق على مجنون يسلمُ نفسه طوعاً إلى عرّافي السوق . كان عليكم مراقبته بصورة أفضل . "
قال له أحد أقارب نويبي " لا تمعن في لومنا فعندما غادر بيته هذا الصباح كان مكتمل العقل مثلك ومثلنا الآن ، فلا تلومنّنا كثيراً . "
" نعم ، أعرف أنّ ذلك يحدث أحيانا وهي الحالات التي لا يستطيع الطبّ معالجتها . أعرف ذلك . "
" أليس بإمكانك إذن القيام بأي شيء ، على الأقل لفكّ عقدة لسانه ؟ "
" لا يمكن القيام بأي شيء فقد احتضنته الأرواح بالكامل . إنه أشبه بالذي يهرب من ظلم ذويه إلى عالم أليوسى ويقول لها : (خذيني أيتها الروح فأنا عبدك .) لا يمكن لأي كان أن يفعل شيئا لشخص مثل هذا ، إنه حرٌّ وفي نفس الوقت لا تستطيع أية قوة أن تفكّ رباطه ، إنه حرّ من جهة البشر ولكنه مربوط بالآلهة . "
لم يكن الطبيب الثاني بنفس شهرة الأول أو صرامته . قال إن الحالة سيئة ، بل سيئة للغاية، ولكن لا يمكن الوقوف مكتوفي الأيدي لمجرد اليقين أن حالة هذا الابن لا أمل فيها وأنه سيحاول البحث

في الأمر ويقدّم أحسن ما يمكنه . هزّ سامعيه برؤوسهم متفقين معه في الرأي ثم قال لنفسه : لو رفض الأطباء كل الحالات المستعصية التي تأتي إليهم فكم منهم سيقتصر طعامهم على وجبة واحدة في الأسبوع بسبب تصرفهم هذا؟
شُفي نويبي من جنونه ، وأصبح ذلك الطبيب المتواضع من أشهر أطباء المجانين في عصره وكانوا يطلقون عليه لقب { زائر أرض الروحانيات } . مع ذلك تظلّ حقيقة مفادها أن الجنون قد يفارق صاحبه فعلاً ولكن ليس بصورة كلّية وبنفس السرعة التي أتـى بها . يبقى بعضها ــ آثار الجنون كما يمكن أن نسميها ــ لتسكن بوابات العيون . إذ كيف لرجلٍ أن يعود سوياً بعد أن تندّر بتصرفه الناس في كل مناطق أوليو وأيقبو وتداولوا حكاية رجل معروف ضخم الجثة في مقتبل شبابه يركض عارياً مخترقا الحشود ليصل إلى السوق . ستظل سيرة هذا الرجل تروى على الدوام .
أصبح نويبي رجلا هادئا ، منعزلا يتجنب قدر استطاعته الجانب الصاخب من حياة قومه. بعد سنتين وقبل موعد إقامة احتفالات العضوية أجرى اتصالا جديدا حول إمكانية قبوله عضواً ضمن الحاملين للألقاب في بلدته . لو أنه ذهب شخصيّا إليهم لحصل على الأقل على العضوية ولو بصورة جزئية ، ولكنّ رجال الأوزو، أجلاّء ومؤدبون كما هي عادتهم ، أداروا دفّة النقاش إلى مواضيع أخرى .

بيضـة النــذر

بقلم : تشنوا أشيبي

جلس جوليوس أوبي يمعن النظر في آلته الكاتبة بينما أخذ رئيس الكتبة البدين ، وهو رئيسه المباشر بالشخير فوق طاولته ، أمّا في الخارج فكان حارس البوابة ببدلته الخضراء يغطّ في نومه في عين موقع حراسته . لا يمكنك لومه فلم يجتز تلك البوابة أي زبون طوال أسبوع . يوجد ثمة سلة فارغة فوق آلة الوزن الضخمة ، وهناك على التراب حول الآلة توجد بضع حبّات ملقاة من نوى النخيل، ولا يتواجد بكثافة سوى الذباب .

اتجه جوليوس صوب النافذة المطلة على السوق الكبير على ضفاف نهر النيجر، ورغم أنّ اسم انكوو مازال يطلقُ على السوق إلا أنه تفرع إلى أسواق إيكي ، وأوي، وأفو، وذلك بسبب من مقدم الحضارة ونمُوّ المدينة وتحولها إلى ميناء كبير لتصدير زيت النخيل. لكن رغم هذا التعدي على حرمة السوق فإنه يضلّ الأكثر ازدحاما على الإطلاق في اليوم المخصص لـه أصلا لأنّ الآلـهة المسئولة عنه منذ قديم الزمان لم تزل تلقي بسحرها في اليوم المخصص لها ـ فليندلق الرجال على أنفسهم نتيجة لطمعهم . لقد قيل بأنها تتجسد في صورة امرأة عجوز ، وتظهر قبل صياح الديكة بقليل لتشير بمروحتها السحرية إلى جهات الأرض الأربعة ـ أمامها وخلفها ، وعلى يمينها وشمالها ــ لكي تجتذب المتسوقين من الرجال والنساء من الأماكن البعيدة، ليأتوا بمنتجات أراضيهم ـ زيت النخيل ، والنوى ، حبات ثمار الكولا ، جذور نبات المينهوت ، الحصُر ، وقدور الفخّار ؛ ويعودون في المقابل بالأقمشة عديدة الألوان ، الأسماك المدخّنة ، والقدور والصحون المعدنية . كان هؤلاء الذين يقطنون الغابات ، أما نصف العالم الآخر اللذين يعيشون على ضفاف الأنهار العظيمة فكانوا يأتون أيضاً على متن قوارب الكنوي، يُحْضرون البطاطس والأسماك .

أحيانا يكون القارب كبيراً يحمل دستة من الناس أو يزيد، وأحيانا يأتي قاربٌ صغيرٌ على متنه صيّادٌ وحيدٌ مع زوجته من صوب أنامبارا حيثُ المياه سريعة الجريان . يربطان قاربهما إلى ضفة النهر ويبيعان أسماكهما بعد كثير المفاصلة ، تتسلق بعدها النساء ضفّة النهر الشديدة الانحدار في طريقهن إلى مركز السوق لشراء الزيت والملح ، وإذا كانت عملية البيع مناسبة فلا بأس من شراء قطعة قماش . أمّا لأولادها الذين تركتهم وراءها فتشتري الكعك المصنوع من الفاصوليا وحلوى الماي ـ ماي التي تشتهر بها نساءُ

إيقارا. عند اقتراب المساء يأخذان في التجديف بعيداً حيثُ يومض سطح الماء بأشعة الشمس الغاربة ، ويأخذ قاربهما في التضاؤل كلما ابتعدا إلى أن يتحول إلى ما يشبه هلالا مظلما يرتكز على صفحة الماء ، ويظهر فوقه ظلُّ شخصين يتمايلان إلى الأمام والخلف . كانت يومورو هي ملتقى سكان الغابة الذين كانوا يُسمّون إيقبو ، ثم هناك الغرباء القاطنون على ضفاف الأنهار الذين يطلق عليهم الإيقبو لقب أولو حيث يقع بعدهم العالم اللانهائي الاتّساع .

لم يكن جوليوس أوبي ينتمي إلى يومورو ، فقد جاء مثل كثيرين غيره من قرية ما في الغابات . بعد أن اجتاز الصف السادس من التعليم في مدرسة تبشيرية أتى إلى يومورو للعمل كموظف في مكاتب شركة التجارة الأوربية البالغة القوة التي تشتري ثمار النخيل بالأسعار التي تحددها ، وتبيع الأقمشة والمشغولات المعدنية بالأسعار التي تحددها أيضاً . تقع مكاتب الشركة ملاصقة للسوق الشهير ولذلك اضطُرّ جوليوس خلال أسابيع عمله الأولى إلى العمل في جوّ تلك الضوضاء التي تطغى على المكان . أحيانا وعندما لا يتواجد رئيس الكتبة يتجه إلى النافذة وينظر إلى الأسفل حيثُ

النشاط شبيه بما يجري داخل خلية النحل . قال في نفسه إنّ أغلب هؤلاء الناس لم يكونوا هناك بالأمس ومع ذلك فالسوق مملوء عن آخره ، لابد وأنّ هناك الكثير والكثير من البشر في هذا العالم ليمتلأ السوق عن آخره يوماً بعد يومٍ هكذا ، بالطبع ليس كلّ من يأتون إلى السوق الكبير أناسٌ حقيقيون . لقد أكّدت أمُّ جانيت ذلك حيث قالت :
" إنّ بعضا من النساء الجميلات اللذين تشاهدهن يحاولن المرور بين الناس ، لسن ببشرٍ عاديين مثلي ومثلك ، ولكنهن ينتمين إلى مامي ـ ووتا وتقع بلدتهنّ في أعماق النهر ، وبإمكانك التعرف عليهن بصورة دائمة لأنّ جمالهن من ذلك النوع الكامل ، والبارد جدّاً . قد يقع نظرك على إحداهنّ لوهلة ثمّ تطرف عينك قليلا ، وتنظر من جديد لتكتشف أنها قد اختفت في وسط الزحام . "
فكر جوليوس في ذلك عندما كان ينظر عبر النافذة إلى ذلك السوق الفارغ الصامت . من كان يصدقُ أنّ ذلك السوق المليء بالحركة يمكن أن يخمد هكذا ؟ ولكن هنا تكمن قوّة كيتيكبا ، إنها القوة التجسدية لمرض الجدري ، بإمكانه هو فقط أن يمنع الناس من المجيء إلى السوق ويتركه مرتعا للذباب .
عندما كانت يومورو قرية صغيرة الحجم ، كانت هناك مرحلة عمرية معينة تجتاح منطقة سوقها كل يوم سوق نكوو ، لكنّ التقدم حوّلها إلى ميناء نهري مزدحم قذر شاسع المساحة، حيث يزيد عددُ الأغراب عن عدد أبناء الأرض الذين لا يملكون إلاّ أن يهزّوا رؤوسهم لهذه الاستجابة المنحرفة لصلواتهم . لقد صلّوا بالفعل ـ ومن يلومهم ـ لأجل أن تنمو مدينتهم وتزدهر ، وقد نمت بالفعل ، لكن هناك نموّ حسنٌ، وهناك نموّ سيئ . فالمعدة لا تنتفخ إذا امتلأت بالطعام والشراب فحسب ، ولكنها يمكن أن تنتفخ أيضا جرّاء الإصابة بالمرض اللعين الذي ينتهي بصاحبه إلى طرده خارج البيت قبل حتى أن يموت تماماً .
وكأن ما سبق لم يكن كافيا ، فقد شجّعت الكنائس والمدارس شباب يومورو من الجنسين على اقتفاء عادات الغرباء ، حيثُ تخلّوا عن مهامهم وعاداتهم، وركنوا للصخب والعربدة .
ذلك كان حال البلدة عندما نزل عليها كيتيكبا ليراها، ويطلب من السكان تقديم النذور إلى آلهة المنطقة . لقد أتى وهو واثق من سيطرته الرهيبة على مصائر البشر ، فهو معبودٌ شرير يفتخر بهذه الصفة . وخوفا من إغضابه لم يكن يشارُ إلى قتلاه بهذه الصفة ، بل بالمكرّمين ، حيث لم يكن أحدٌ يجرؤ على البكاء عليهم . كان يمنع الزيارات بين الجيران والتنقل بين القرى ، وعندما ينتشر الخبر بأنّ " كيتيكبا في تلك القرية " يتم عزلها مباشرة من قبل القرى المجاورة .
أصبح جوليوس اللاقبى سائل حلو المذاق، يستحلب بطريقة خاصة من طلوع أشجار النخيل ، يتحوّل إلى شراب مسكر إذا ترك لفترة، ويعتبر خمر الفقراء في الدول التي ينبت فيها النخيل (المترجم) قلقاً لمرور أسبوع تقريبا منذ آخر مرة رأى فيها جانيت، فتاته التي يعتزم الزواج منها .
لقد شرحت لـه ما ـ أمّ جانيت ـ بطريقة لطيفة بأن يمتنع عن زيارتهم " إلى أن يمرّ هذا الأمر بسلام ، بفضل إرادة الربّ يهوه . " (كانت ما مسيحية مخلصة اعتنقت هذا الدين حديثا ، والسبب الذي وافقت من أجله على زواج ابنتها الوحيدة منه هو كونه ضمن أعضاء جوقة التراتيل الدينية في الكنيسة .)
" عليك أن تلزم مكانك " قالت لـه بصوت أشبه بالهمس، لأنّ كيتيكبا يكره أي صخبٍ أو ضوضاء " فأنت لا تعرف من سيقابلك في الشوارع ، لقد نال من تلك العائلة ." ثمّ خفضت من صوتها أكثر وأشارت بتشاؤم إلى منزل عبر الشارع وُضع على مدخله بعض سعفُ النخيل الأصفر " لقد كرّم أحد أفراد تلك العائلة ونُقل الباقون بعيدا في إحدى الشاحنات الحكومية ."

سارت جانيت لبعض الوقت مع جوليوس ثمّ توقفت ؛ فتوقف هو أيضا . بدا وكأنّ ليس لديهما ما يقولانه لبعضهما ، ورغم ذلك فقد ضلاّ متردّدان في الفراق . وأخيرا قالت لـه عمت مساءً فردّ لها نفس التحية، ثمّ تصافحا وهو أمرٌ غيرُ مألوفٍ وكأنّ الفراق لفترة الليل شيء غيرُ مألوفٍ وخطير .
لم يتجه إلى بيته مباشرة لأنه أراد في لحظة القنوط تلك أن يحتفظ بصورة هذا الوداع الغريب، ولأنه شخصٌ متعلمٌ لم يكن يخشى ما سيقابله ، ولذلك ذهب إلى ضفّة النهر وشرع يذرع المكان جيئة وذهابا . لابدّ أنّه مكث فترةً طويلة لأنه كان مايزال هناك عندما سمع رنين الجرس الخشبي الذي يؤذن بظهور أشباح الظلام الدّامس ، فبدأ مباشرة في الاتجاه نحو بيته في خطوات تجمع بين المشي والجري، لأنّ أشباح الظلام الدامس لم يكونوا مجرّد مسألة تشاؤم ، بل أمرٌ حقيقيّ، وقد اختاروا الليل لظهورهم ، فهم مثل الوطاويط في غاية البشاعة .
أثناء عجلته داس على شيء تكسّر تحته محدثا مايشبه انفجارا مائياً خفيفاً ، فتوقف وتلصّص النظر أسفل قدميه نحو المسرب . لم يكن القمر قد ظهر بعد ولكن كان ثمة ضوء ضئيل في السماء ، يبدو أنه لم يدم طويلا .. وتبين لـه في لمحة الضوء تلك أنه قد وطأ على بيضة من النوع الذي يقدمُ كنذر . يبدو أن شخصا ما من الذين لازمهم سوء الحظ قد أتى بالنذر إلى ذلك المكان خلال فترة الغسق ، وداس هو عليها . كما جرت العادة فقد أُحيطت البيضة بعدد من أوراق النخيل الغضّة ، لكنّ جوليوس رآها بشكل مختلف وكأنه بيتٌ كان الفنّان البغيض منهمكٌ في العمل فيه . مسح بنعله على ممر السابلة الرملي ، وانطلق في طريقه مسرعاً تنوء أفكاره بمشغلة إضافية ، لكن العجلة لن تفيده لأنّ شبح الليل السريع قد ظهر الآن . ربما كان مجبراً على التصرّف بسرعة لضيق وقته وبسبب الظهور المتوقع للقمر . ارتفع الصوت عاليا وجليا يشقّ هواء الليل الساكن مثل حسامٍ قاطع ولكنه لا يزال بعيدا عنه ، ولأنّ جوليوس كان يعرفُ أنّ المسافات تتلاشى أمام هذا الشيء ، لذلك هرع بسرعة إلى حقل ثمار الكوكو الواقع بجوار الممر وارتمى هناك على بطنه محتميا بأوراق الشجيرات . ما كاد ينتهي من ذلك حتى تناهى إلى سمعه طرقعة هراوة الشبح وسيل لا ينقطع من الضوضاء واللغط غير المفهوم ، فطفق يرتعد بشدّة بينما اقتربت الأصوات منه كثيرا حتى تكاد تدفعه لأن يدفن وجهه في الرمال الندية . . . الآن بإمكانه سماع وقع الخطى وكأنّ عشرون شيطانا يركضون مجتمعين ، سال عرق الرعب على كامل جسمه وكاد يدفعه للنهوض والجري ، ولحسن حظه تماسك وضل في مكانه . . . لم يمض وقت إلا وعمّت الفوضى الكاملة الجوّ والأرض ــ الرعد ، والأمطار الغزيرة ، الزلزال ، والفيضانات ــ ثمّ توقفت وتلاشت في الجانب الثاني من الطريق .صباح اليوم التالي في مكتب رئيس الكتبة ، تحدث أحد سكان المنطقة بمرارة عن عملية إغضاب كيتيكبا التي تمّت من قبل مجموعة من الفتية مما أدى إلى خروج شبح الليل السريع ، وذلك رغم تحذير آبائهم لهم، لأنّ ذلك سيتسبب في إغضاب كيتيكبا ، ثمّ . . .
المشكلة تكمن في أنّ هؤلاء الشبابُ العاقّون لم يجرّبوا بعد قوّة كيتيكبا بأنفسهم ؛ لقد سمعوا عنها فقط وسرعان ما يعرفون ذلك .
بينما وقف جوليوس في النافذة ينظر إلى ذلك السوق المُخلى ، عاش أحداث تلك الليلة الرهيبة مرة ثانية ، لم يمض عليها غير أسبوع، لكنها بدت وكأنها حياة أخرى يفصلها عن الحاضر خُواءٌ لاحدود لـه يزدادُ عمقاً مع مرور كلّ يوم . . . يقف جوليوس على أحد جانبيه بينما يقفُ على الجانب الآخر جانيت وأمها ، اللتان زخرفهُما ذلك الفنّانُ اللعين .

خيــار العمّ تـوم

بقلم : تشنوا أشيببي

سنة تسع عشرة وتسعمائة وألف ، كنتُ موظفاً شابّا في شركة النيجر ، في يومورو . وأن تكون موظفاً في ذلك الوقت ، مثل كونك وزيراً هذه الأيام حيثُ مرتبي يصل إلى جنيهين وعشرةُ شلناتٍ . قد تضحكُ لذلك ولكنّ هذا المبلغُ يعادلُ خمسين جنيهاً اليوم . فمثلا كان باستطاعتك شراء عنزٍ ضخمة بأربعة شلناتٍ ، وأتذكّرُ أنّ أعلى الموظفين الأفارقة رتبة رجل أصله من سارو ، يصلُ راتبه إلى عشرة جنيهات وثلاثة عشر شلنا وثلاثة بنساتٍ . كان يبدو في أعيننا وكأنه حاكمٌ عام .

ككل الشباب التقدميين فقد التحقتُ بالنادي الأفريقي ، حيث مارسنا لعبة التنس ، والبليارد ، وفي كلّ سنة كنّا نلعبُ مباراة مع النادي الأوروبي ، لكنّ ذلك كان أقلّ اهتماماتي ، فما أحببته فعلا هو حفلات الرقص يوم السبت حيثُ النساءُ يتوفّرْن بأعداد كبيرة ، لسن مثل نساء الواو واو اللاتي تشاهدهنّ اليوم ، لكنهن مخلوقات جميلة أخرى .

كنتُ أملك درّاجة من نوع رايلى، جديدة بالمرّة وينعتني الجميعُ (بنْ المرح) حيث كانت صحبتي مرغوبة منهم، ولكن هناك أمر ما يتعلّقُ بي ـ بإمكاننا الضحكُ والهذرُ ، وتناول الكحول ، وفعلُ ما نحبُّ ، لكن علي دائماً أن أحتفظ بعقلي سليماً . أخبرني أبي إن على الابن الحقيقي لهذه البلاد أن يعرف كيف ينامُ بعين مفتوحة وعينٍ مغلقة ، ولم أنس ذلك مطلقاً. فصرتُ ألعبُ وأضحكُ مع الجميع وهم يصيحون " بن المرح ؟ بن المرح ؟ " ولكن كنتُ دائماً أعرفُ ما أنا بصدده . ميزة نساءُ يومورو أنهنّ ذكياتٌ جدّاً ، فقبل أن تقول (أ) يقلن (ب) ولهذا السبب اضطررتُ لأن أكون حذراً للغاية ، فلم أريهنّ مطلقاً الطريق إلى بيتي ، ولم أتناول إطلاقا أي طعامٍ كنّ يعددنهُ خوفاً من خلطه بأعشاب المحبّة . لقد رأيتُ في تلك الأيام العديد من الرجال الشبُان يضيّعون أنفسهم من أجل النساء ، ولذلك تذكّرتُ مقولة أبي (لا تسمح للمصافحة أن تتعدّى المرفق .)

لكن لابدّ أن أقول أنّ هناك استثناءً واحدا ، فتاة طويلة، صفراء، من اللذين يعيشون بالقرب من المياه المالحة ، وتُدعى مارجريت . في صباح أحد أيام الآحاد بينما كنتُ أديرُ صندوق مشغل الأسطوانات ، وكان جديدا من أحسن الأنواع (لم أكن أؤمن باقتناء الأشياء المستعملة ، وإذا لم تكن نقودي تكفي لشراء الجديد فلا أحرّك ساكناً ، هذا هو مثلي الذي أعمل به .) كنتُ واقفاً بالنافذة أديرُ تلك الاسطوانة محتفظاً في فمي بعود أمضغ عليه ، بينما يتجه الناس وهم يرتدون أبهى حللهم إلى كنيسة مجاورة ، وكانت مارجريت هذه تسيرُ معهم عندما رأتني ، وليكمل الحظّ لعبته لم يقع نظري عليها في الوقت المناسب لأخفي نفسي ، وعليه فقد قامت بمجرد انتهاء الصلاة في نفس اليوم ــ لم تنتظر حتى يوم الغد أو بعد الغد ـ بالعودة أدراجها ، وحسب قولها أنها كانت تريد أن تغيّر ديانتي إلى طائفة الروم الكاثوليك . إنّ المعجزات لا تتوقف عن الحدوث ؟ مارجريت العملاقة ؟ هذه المخلوقة الجميلة . لكنني لا أرغب الآن أن أقـول لـكم شيئا عن مارجريت ، بل أريـد إخباركم كيف توقفتُ عن حماقاتــي .

كـان الوقت يـوافق ليلـة رأس السـنة، أي مـثل هـذا اليـوم تمـاماً ، وتعـرفـون أهمية السـنـة الجديدة لنا نحن الـذين نـترقب آخـر الشهر بشوق لتمضية أعياد الميلاد بفرح وغبطـة، لأنه ما أن يحلّ عيد الميلاد إلاّ وتكون قد مضت عشرون يومًا عجافاً . لكن الجيبُ يصبحُ عامـراً مع نـهاية العام ، ولـذلك توجهت إلى النادي في ذلك اليوم .

عندما أراكم شباب اليوم تقولون أنكم تشربون الخمر ، يدفعني ذلك إلى الضحك ، فأنتم لا تعرفون حتى معنى الخمر . تتناولون زجاجة بيرة ، أو كأساً من الويسكي ، فتأخذون في الصياح مثل المجانين . في تلك الليلة كنتُ أتعاملُ برفق مع زجاجة ويسكي [وايت هورس] . إلى كل أولئك الراغبين في السفر من إدنبرة إلى لندن أو أي مكان أخر في تلك الطريق، عليهم أن يعرجوا إلى القبو حيث مخازن [الوايت هورس] يا إلهي .. يا لعظمة هذا الشراب ؟
هناك شيء درجتُ عليه وهو أنني لا أنوّعُ في الشراب أبدا ، ففي اليوم الذي أقرر فيه شرب الويسكي أعرفُ أنه يوم ـ الويسكي ؛ وإذا أردت شرب البيرة يوم الغد أعرف عندها أنه سيكون يوم البيرة ولا أقربُ شيئا أخر . في تلك الليلة كنتُ أشربُ الوايت هورس ، وأمامي دجاجة مشوية ، وعلبة من تبغ غينيا الممتاز ، نعم كنتُ أدخّنُ في تلك الأيام وقد أقلعتُ عنه عندما أخبرني طبيبٌ ألماني إنّ قلبي يشبه في سواده طنجرة الطهي ، كم كان هؤلاء الأطباءُ الألمان أرواحا طيبة . يعطونك الحقنة في الرأس ، أو البطن ، أو في أي مكان ، فما عليك إلا أن تشير لهم إلى موضع الألم فيغرزون فيه حقنتهم بدون تأخير .
ماذا كنت أقول ؟ نعم ، لقد تناولت زجاجة وايت هورس ، وأتبعتها بدجاجة مشوية ، وعلبة من تبغ غينيا . . . ثمل ؟ ليست هذه الكلمة في قاموسي ، فلم أثمل مرة في حياتي . كان أبي يقول أنّ علاج السكْر هو أن تقول لا ، وأنا أشربُ عندما أرغبُ، وأتوقف عندما أريد ، وعليه عند حوالي الساعة الثالثة من تلك الليلة قلتُ لنفسي لقد شربتُ بما فيه الكفاية ، وركبتُ درّاجتي الرايللي ثمّ اتجهت إلى بيتي في هدوء لأنام .
في تلك الفترة كان رئيسنا قد سُجن لسرقته عدّة بالاتٍ من القماش وكُلّفتُ بالقيام بعمله ، ولهذا السبب كنتُ أسكنُ بيتا صغيراً للشركة يطلّ على نهر النيجر ، لدي غرفتان إلى جانب منه ولدى مسؤول المخازن غرفتان أخريان على الجانب الآخر، ومن أجل أن يلعب الحظ لعبته ، كان ذلك الرجل في إجازة ، أي أنّ بيته كان خاليا .
فتحت الباب الخارجي ودلفت إلى الداخل ، ثم أغلقته . تركتُ دراجتي في الغرفة الأولى ودخلتُ إلى غرفة النوم . كنت من التّعب لأبحث عن المصباح ، فنزعت ملابسي ووضعتها على مسند الكرسي ، وارتميت كما جذع شجرة على السرير الحديدي، وأقسم بالله الذي
خلقني أنّ امرأة كانت هناك في سريري . قال لي عقلي فورا أنها مارجريت ولذلك أخذتُ في الضحك وصرت ألمسها هنا وهناك . كانت عارية تماماً . واصلتُ الضحك وسألتها عن الوقت الذي حضرت فيه فلم تقل شيئا، وقد شككتُ في كونها غاضبة مني لأنها طلبت مني اصطحابها إلى النادي اليوم فرفضت قائلا : إن أتيت بنفسك سنلتقي ، أما أنا فلا أصحب أحداً هناك ، ربما هذا ما يجعلها غاضبة مني .
طلبتُ منها ألا تغضب لكنها لم تجبني ، وسألتها إن كانت نائمة، فلم ترد أيضا . رُغم أنني أخبرتكم أني لا أحبّ أن تأتي النساء إلى بيتي ، لكن لكل قاعدة استثناء ، وعليه لو قلت إنني غاضب جدا لعثوري على مارجريت في تلك الليلة فسيعني ذلك إنني قلت لكم كذبة بيضاء . كنت مستمرا في الضحك عندما تبينت أنّ نهديها واقفان وكأنهما لفتاة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة على الأكثر ، فقلت لنفسي ربما كان ذلك بسبب الطريقة التي تضطجع بها على ظهرها ، ولكن عندما لمستُ شعرها وجدته ناعما مثل شعر المرأة الأوروبية فانحبست ضحكتي على الفور . لمست شعر رأسها وكان بنفس الملمس .. فقفزت من السرير صارخا "من أنت؟" كنت أرتعش ، وشعرت بأنّ رأسي منتفخ كما برميل . انتصبت المرأة جالسة ومدّت ذراعيها أمامها تدعوني إليها ، ولامست

أصابعها جسمي خلال ذلك مما جعلني أقفز إلى الخلف صارخا في وجهها مرة أخرى لكي تعلن عن اسمها . قلت لنفسي : كيف يمكن أن تخاف امرأة بيضاء كانت أم سوداء ، فهما لا يختلفان عن بعضهما . عليه قلت لها " حسنٌ ، فسرعان ما أجعلك تفتحين فمك " وفي نفس الوقت بدأت أبحث عن علبة الكبريت فوق الطاولة. شكّت المرأة في ماأنا بصدده وقالت " بيكو أكباكوانا أوكو ."
قلتُ : " إذن فلست امرأة بيضاء ، من تكونين ؟ سأشعل الثقاب الآن إن لم تخبريني ." وهززت بعلبة الكبريت لأبين لها إني جاد في تهديدي . عادت إليّ جرأتي من جديد ورحت أحاول تذكر هذا الصوت لأنه بدا لي مألوفا .
" عد إلى السرير وسأخبرك من أكون ." كان هذا ما سمعته منها . إنّ من أوحى لي بأن هذا الصوت مألوف لدي كان يكذبُ ، ولذا أشعلتُ عود الثقاب .
" أستعطفك ألا تفعل ، " وهذا آخر ما سمعته منها .
إن أخبرتكم عما قمتُ به بعد ذلك ، أو كيف تمكنت من الخروج من تلك الغرفة ، فلن يكون ذلك إلا تخمينا مني ، الذي أتذكره هو أنني كنت أعدو كالمجنون صوب منزل ماثيو ، ثمّ وأنا أطرق بابه بكلتا يدي .
" من هناك ؟ " أتاني صوته من الداخل .
صرختُ به " افتح الباب ، بحقّ الإله في الأعالي ، أفتح ؟ "
نطقتُ باسمي ، لكن صوتي لم يكن هو نفسه . وفُتح الباب بما يكفي لأشاهد قريبي يمسك ببلطة في يده اليمنى .
سقطتُ على الأرض ، فقال " إنّ الربّ لن يرضى عن ذلك . "
كان القدر نفسه الذي قادني إلى منزل ماثيو أوبي في تلك الليلة ، فلم يكن بإمكاني رؤية طريقي، ولم أعرفُ ما إذا كنت لا أزال في هذه الدنيا ، أم ميتاً . بعد أن دلق علي ماثيو ماءً باردا استطعتُ بعد طول وقت إخباره بما حدث ، وأظنّ أنني أخبرته القصة بالعكس وإلاّ ما كان يستمر في سؤالي طوال الوقت ، كيف كان شكلها ، كيف كان شكلها ؟
قلت له " لقد أخبرتك من قبل ، فلم أتمكن من رؤيتها . "
" أعرف ، ولكن ألم تسمع صوتها ؟ "
" نعم لقد سمعت صوتها ، ولمستها ، ولمستني . "
" لست أدري إن كان إخافتك لها هو الصواب أم لا . "
لا أدرى كيف أفسّر ذلك ولكن تلك الكلمات من ماثيو قد فتحت عينيّ ، فقد عرفتُ على الفور أنه قد جرت زيارتي من قبل مامى ووتا . سيدة نهر النيجر .
قال ماثيو ثانية : " كل شيء يعتمد على ما تريده من هذه الحياة . إن كان ما تريده هو الغنى، فأنت إذن قد اقترفت خطأً كبيرا اليوم . ولكن إن كنت ابنا حقيقيا لأبيك ، فخذ بيدي إذن."
تصافحنا ، ثمّ قال " لم يقل لنا أجدادنا أبداً ، أن المرء يجب أن يفضّل الثروة على الزوجات والأبناء . "
هذه الأيام ، وفي كل مرة تغضبني فيها زوجاتي ، أقول لهنّ " لا ألومكنّ ، فلو كان عندي شيء من الحكمة لفضّلت مامي ووتا . . . فيأخذن في الضحك ويسألنني لماذا لم آخذها، وتقول لي صغراهنّ : " لا تقلق يا أبي ، ستعود حالا ، ستعود غداً ." ويأخذن في الضحك .
لكنّ جميعنا يعرف أنها مجرد مزحة ، وإلاّ فأين هو الرجل الذي يفضل الثروة على الأولاد؟ باستثناء رجل أبيض مجنون مثل الدكتور جى . أم . ستيوارت ـ ينق . أووه ، لم أخبركم عنه ، ففي

نفس الليلة التي رفضتُ فيها مامى ووتا ، ذهبت إلى الدكتور جي . أم . ستيوارت ـ ينق وهو تاجر أبيضٌ، وصارت عشيقته . هل سمعتم عنه ؟ . . . نعم لقد صار أغنى رجل في كلّ البلاد ، لكنها لم تسمح لـه بالزواج . وماذا حدث عند موته ؟ ذهبت كلّ ثروته للغرباء . فهل هذه ثروة مباركة ؟ أنا أسألكم . كلا ، لا سمح الله ؟

السلام المـدني

بقلم : تشنوا أشيبي

اعتبر جوناثان ايويقبو نفسه محظوظا بشكل غير عادي ، فقد كانت عبارة " حمدا على السلامة " أكثر من مجرد تحية معتادة بين الأصدقاء في الأيام الأولى التي أعقبت إحلال السلم ، لكن هذه العبارة كانت تخترق فؤاده . فقد خرج من هذه الحرب بخمسة نعمٍ لا تقدر بثمنٍ هي : رأسه ، ورأس زوجته ماريا ، ورؤوس ثلاثة من أولاده الأربعة .. وكنعمةٍ إضافية فقد خرج منها أيضا بدراجته العتيقة ـ معجزة أيضا ـ لكنها بالطبع لا تقارن بسلامة خمسة رؤوس بشرية .

لهذه الدراجة تاريخ حافل خاص بها ، ففي أحد الأيام عندما كانت الحرب في ذروتها ، وقع الاستيلاء عليها لصالح المجهود الحربي " للقيام بمهمّة حربية عاجلة " ورغم أنّ فقدها يعزّ عليه لكنه كان سيتنازل عنها بطيب خاطر ، لو لم يشكّ في شخصية الضابط الذي حضر لاستلامها .. لم تكن ملابسه الرثّة ، ولا أصابع قدميه التي تبرز من حذاء المشمّع الذي يرتديه بلون أزرق في إحدى قدميه ، وبنيّ في الأخرى ، ولا النجمتان المرسومتان فوق كتفيه بغير ما دقّة . لم تشغل كلّ هذه الأمور بال جوناثان لأنّ كثيرا من الجنود الأبطال يبدون على هذه الهيأة أو أسوأ من ذلك ، لكنّ ما أدخل الريبة إلى نفسه هو افتقار أسلوبه إلى الجدية والثقة بالنفس . بعد أن شكّ جوناثان أنه قد تمّ التلاعب به ، بحث في محفظة سعف النخيل الخاصة به، وأخرج جنيهان كان ينوى أن يشتري بهما حطب وقود لزوجته ماريا ، التي تقايضه بدورها لمسؤولي المعسكر للحصول على الذرة ومعلبات الأسماك ، وهكذا تمكن من استعادة دراجته . في تلك الليلة قام بدفن الدراجة في مساحة خالية من الأرض حيث دُفن موتى المعسكر بما فيهم ابنه الأصغر . وعندما استخرجها ثانية بعد الاستسلام (استسلام بيافرا بعد محاولة الانفصال) فإنّ كلّ ما احتاجته هو قليل من زيت النخيل لتشحيمها ، وعندها قال في نفسه متعجّبا " لا شيء يحيّر الرّبّ . "

استغلّها في العمل مباشرة كوسيلة أجرة ، وهكذا جمّع القليل من عملة بيافرا جرّاء نقل مسئولي المعسكر وعائلاتهم عبر مسافة الأميال الأربعة إلى أقرب طريق إليهم . كان سعره الثابت هو ستّة جنيهات ، وبالنسبة لأولئك الذين يملكون النقود فقد كانوا سعداء للتخلص منها بهذه الطريقة. في نهاية الأمر جمّع ثروة صغيرة تصل إلى مائة وخمسة عشر جنيها .

بعد ذلك قام بالرحلة إلى إينوقو ، ووجد أعجوبة أخرى تنتظره هناك، فلم يصدق نفسه. فرك عينيه ونظر ثانية فوجد أنّه لا يزال قائما هناك منتصبا قبالته . لكن لا حاجة للقول أنّه حتى هذه النّعمة الهائلة يجب أن يُنظر إليها أقلّ بكثير من سلامة خمسة رؤوس في العائلة . أحدثُ تلك المعجزات هي سلامة بيته الصغير في ضاحية أوقوي ، حقّا فلا شيء يحيّر الرّب ؟ فعلى مسافة بيتين منه فقط يوجد كوم من الركام كدليل واضح على ما حدث في المنطقة لمنزل كبير بناه أحد المقاولين قبل الحرب بقليل . وهاهو بيت جوناثان الصغير الذي بناه ـ بدون أسف ـ من الطوب والصفيح .. لم يُمسّ ؟ طبعا اختفت الأبواب والشبابيك وخمسة من ألواح السقف ، لكن ماذا يعني ذلك ؟ وهو قد عاد إلى اينوقو مبكرا لالتقاط بعض ألواح الصفيح القديمة والأخشاب وأوراق الكرتون التي فقدت صلابتها ، و تتواجد مبعثرة في أنحاء المنطقة، قبل أن يخرج الآلاف من حفرهم في الغابة يبحثون عن الشيء نفسه . أتى بنجّار عاطل معه مطرقة قديمة ومسحاجاً غير حاد ، تحتوي حقيبة أدواته على عدّة مسامير ملتوية صدئة لكي يصنع من هذا الخليط من الخشب والمعدن والصفيح خمسُ

نوافذ ، لقاء خمس شلنات نيجيرية ، أو خمسون جنيها من عملة بيافرا . دفع الجنيهات وانتقل إلى البيت مع عائلته السعيدة للغاية يحملون خمسة رؤوس فوق أكتافهم .
جمع أبناؤه ثمار المانجو بالقرب من المقبرة العسكرية وباعوها لزوجات الجنود لقاء بنسات قليلة ــ بنسات حقيقية هذه المرّة ــ ولكي تبدأ حياتها من جديد بسرعة، أخذت زوجته تعدّ كرات الأكارا للجيران الذين يتناولونها في الإفطار . كان ينتقل بدرّاجته للقرية ويشتري بالمال الذي تكسبه عائلته بعضا من خمر اللاقبى الطازج، ثمّ يخلطه في البيت بكثير من الماء من صنبور المياه الواقع في نهاية الطريق الذي أعيد مدّه إلي القرية أخيراً ، وبذلك افتتح حانة للجنود وكلّ المحظوظين الذين يملكون نقوداً .
في البداية أخذ في الذهاب يوميا إلى مكاتب شركة الفحم التي كان يعمل في أحد مناجمها ، ثمّ يوماً بعد يوم ، وفي النهاية صار يذهب أسبوعيا ليعرف ما الذي يجري هناك . الشيء الوحيد الذي عرفه هناك أنّ منزله الصغير كان نعمة أكثر ممّا تصوّر، لأن بعضاً من رفاقه العمال القدامى الذين لا يملكون مكاناً يعودون إليه في نهاية يوم من الانتظار ينامون خارج أبواب المكاتب ، ويطبخون الوجبات التي يستطيعون استجدائها مجتمعين في بعض العلب المعدنية . مع مرور الأسابيع لم يعرف أحدٌ لماذا امتنع جوناثان عن القيام بزياراته لمقر الشركة بالمرّة وانشغل بالكامل بحانته المخصصة لبيع اللاقبى .
لكن لا شيء يحيّر الربّ ، فقد أتي اليوم الذي هبط عليه الحظ بصورة مفاجئة بعد خمسة أيام من الطوابير ، والطوابير المعاكسة ، والتدافع الذي لا ينتهي تحت حرارة الشمس خارج صندوق التعويضات . حصل على عشرين جنيها تمّ عدّها لـه في يديه ، كتعويض عن عملة الانفصاليين التي سلمها لهم . ولأنّ الكثيرين لم يتمكنوا من نطق اسمها ، فقد أطلقوا عليها شرّاحة البيض .
بمجرّد أن وُضعت النقود في راحته ، أقفل عليها جوناثان بكل قوّة ووضع النقود وقبضته في جيب سرواله . أضطر أن يأخذ كامل احتياطاته لأنه رأى منذ يومين رجلا ينهار بسرعة في حالة تشبه الجنون في حضور ذلك الحشد الكبير، لأن لصاً قام بسرقتها بمجرّد أن استلمها ، ورغم إنه ليس من اللائق توجيه اللوم إلى رجل في حالة كرب مفرط إلا أنّ الكثيرين من الواقفين في الطوابير ذلك اليوم علّقوا بصوت منخفض على إهمال الضحية ، خاصة بعد أن قلب جيبه إلى الخارج وبان فيه ثقبٌ هو من الاتساع ليمرّ رأس اللص من خلاله ، لكنه أصرّ على أنّ المبلغ كان في الجيب الآخر الذي بيّن ثقبا مماثلا عندما جذبه للخارج . لهذا على الإنسان أن يكون حذراً .
سرعان ما بدّل جوناثان النقود إلى يده اليسرى وجيبه الأيسر ، ليترك يده اليمنى حرة للمصافحة إذا استدعت الضرورة . . . رغم أنّ تثبيته لنظره على مستوىً معيّن كان كافيا لتجنّب النّظر في الوجوه التي يقابلها ، وقد ضمن بذلك أنّ الضرورة لن تستدعي أية مصافحة قبل وصوله إلى البيت .
كان ثقيل النوم في العادة ، لكنه في تلك الليلة سمع كلّ الأصوات تخبو في الجوار واحداً تلو الآخر. حتى الخفير الليلي الذي يدقّ كل ساعة على لوح معدني من مكان بعيد ما، توقّف بعد أن دقّ الساعة الواحدة صباحا ، قد يكون ذلك آخر شيء مرّ بخاطره قبل أن يستغرق في النوم . لم يمض وقت طويل قبل أن يتم إيقاصه مرّة أخرى بصورة عنيفة .
همست زوجته المستلقية إلى جانبه على الأرض " من الطارق ؟ "
" لا أعرف " أجابها هامساً لا يكاد يتنفّس .

في المرة الثانية التي وقع فيها الطرق ، كان من العلوّ والعنف بحيث أنّ الباب العتيق الواهي كاد أن يتخلع .
سأل عندها بصوت مرتعش أجشّ " من الطارق ؟ "جاءه الجواب هادئاً متماسكاً " زعيم اللصوص وجماعته ، افتح لنا الباب ." وتلى ذلك أعنفُ طرقٍ حتى الآن .
كانت ماريا أول من رفعت عقيرتها بالصياح ، ثمّ لحق بها هو وكلُّ أولادهما .
" ياشرطة ؟ جاءنا اللصوص ؟ ياجيران ؟ ياشرطة ؟ لقد ضعنا ؟ سنموت ؟ ياجيران ، هل أنتم نيام ؟ انهضوا ؟ ياشرطة ؟ "
استمرّ هذا الصراخ لمدّة طويلة ثمّ توقف فجأة . ربّما قد أخافوا اللصوص واضطروهم للابتعاد ، لأنّ الصمت عمّ المكان ولكن لبعض الوقت فقط .
" هل انتهيتم ؟ " سأل الصوت من الخارج " هل تريدون أن نساعدكم قليلا ، هيّا ،الجميع سوية ؟"
" يا شرطة ؟ زعيم اللصوص ؟ ياجيراننا ؟ لقد ضعنا ؟ ياشرطة ؟ . . "
كان هناك خمسة أصوات على الأقل تصيح بجانب الزعيم .
عند هذه اللحظة تجمّد جوناثان وعائلته من الرعب ، وأخذت ماريا والأولاد ينوحون بصوتٍ عالٍ وكأنهم أرواحٌ تائهة ، أما جوناثان فكان يئنّ بلا انقطاع .
صار الصمت الذي أعقب صراخ اللصوص يدوّي برهبة في أنحاء المكان ، وكاد جوناثان أن يستجدي زعيمهم ليتحدث ثانية ويقول ماذا يريد منهم .
أخيرا قال " يا صديقي ، لقد حاولنا جهدنا لمناداتهم ، ولكني أعتقد إنهم نائمون جميعا ، إذن ماذا سنفعل الآن ؟ ربّما تريد أن تنادي الجنود ؟ أم هل تريدنا أن نناديهم لك ؟ الجنود أفضل من الشرطة . أليس كذلك ؟ "
" ليس صحيحا ؟" أجاب رجاله . ظنّ جوناثان أنه سمع أصواتا أكثر مما قدّر قبل ذلك فتنهّد بعمقٍ وشعر بساقيه يخونانه ، وبجفاف شديد في حلقه .
" يا صديق ، لماذا لم تعد تتكلم ، أم هل تريدنا أن ننادي الجنود ؟ "
" كلاّ . "
" عظيم . الآن نستطيع الحديث في العمل . لسنا بلصوص سيئين ولا نحبّ إثارة المتاعب. لقد انتهت المتاعب وانتهت الحرب . لا حرب أهلية بعد الآن فهناك سلام مدني ، أليس كذلك ؟"
" ليس كذلك ؟ " أجاب رجاله في نشازٍ مزعج .
" ماذا تريدون مني ، فأنا رجلٌ فقير . لقد فقدتُ كلّ ما أملك في هذه الحرب . لماذا أتيتم إليّ ؟ أنتم تعرفون من يملكون المال أما نحن . . "
" نحن لا نقول أنّ لديك الكثير من النقود ، ولكن ليس لدينا أي شيء ، عليه لماذا لا تفتحُ هذه النافذة وتعطينا مائة جنيه ، وعندها سنغادر هذا المكان ، وإلاّ سنقتحم المكان ونريك اللعب بالجيتار هكذا . . . "
سُمعتْ صلية تنطلق من بنادق أوتوماتيكية ترنّ في الفضاء ، وأخذت ماريا والأولاد ينتحبون بصوت عال من جديد .
" والآن يا سيدتي لا تبك ثانية فلا ضرورة لذلك . لا تقولي نحن لصوصٌ سيئون ، فنحن سنأخذ نقودنا القليلة ونذهب دونما أذية لأحد . إبيي ، هل من عادتنا إيذاء أحد ؟ "
" إطلاقــاً ؟ " ردّ عليه أفرادُ الجوقة .
بدأ جوناثان الحديث بصوت أجشٌ " سمعتُ ما قلتم وأشكركم ، ولكن لو أنّ لدي مائة جنيه . . "

" انظر ياصديقي . كفّ عن اللعب ، فنحن لم نأت هنا لنلعب وإن أخطأنا ودخلنا إلى بيتك فلن يعجبك ذلك ، وعليه . . . "
" اقسمُ بالربّ الذي خلقني ، لو دخلتم وعثرتم على مئة جنيه ، خذوها واقتلوني مع زوجتي وأولادي ، أُقسم بالله إنّ كل النقود التي أملكها في حياتي هي هذه العشرون جنيها ، التي أعطونيها اليوم . . . "
" عظيم، حان الوقت لرحيلنا إذن . افتح النافذة وسلّمنا العشرين جنيها ، فسنكتفي بها ."
سمعت أصواتُ همهمة تبين عدم الرضى من أفراد الجوقة : " الرجل يكذب ، إنّه يكذب ؛ لديه الكثير من المال . . . دعنا ندخل ونفتش المكان بدقّة . . . هل تكفي عشرون جنيها ؟ "
"اغلقوا أفواهكم ؟ " دوّى صوت زعيم العصابة وكأنه رصاصة اخترقت الفضاء واسكتت الهمهمات في الحال . " هل ما زلت هنا ، احضر النقود حالا ؟"
" أنا قادم " قال جوناثان ، وهو يحاول في الظلام أن يفتح الصندوق الخشبي الصغير الذي يحتفظ به إلى جانب فراشه .
مع بزوغ أوّل ضوء ، ومع تجمّع الجيران وآخرين لمواساته ، كان قد ربط دامجانته الزجاجية إلى سلة درّاجته ، أما زوجته فتصبّبُ عرقاً بالقرب من النار المشتعلة حيثُ ترمى بكرات الأكارا في طبق كبير من الطفلة مملوءٌ بزيت يغلي ، فيما أخذ ابنه الأكبر يصفي ترسبات لاقبي البارحة من زجاجات بيرة قديمة .
" أنا لا أعدُّ ما حدث شيئا هاما . " قال وعينه على الحبل الذي يقوم بربطه " ما قيمة شراحة ـ البيض ؟ هل اعتمدتُ عليها في الأسبوع الماضي ؟ أم أنها أفضل من أشياء كثيرة فُقدت في الحرب ؟ أقول فلتحترق شراحة ــ البيض في الجحيم ؟ ولتذهب إلى حيثُ ذهب كل شيء . فلا شيء يحيّر الربّ . "

فتيات في حرب

قلم : تشنوا أشيبي

لم يحدث شيء عندما تقاطع مساراهما للمرة الأولى . كان ذلك في الأيام الأولى عندما بدأت الاستعدادات للحرب تجرى على قدم وساق حيثُ يتم صدّ آلاف الفتية (وأحيانا الفتيات أيضا) وعدم قبولهم في مراكز التطوع ، فهم يأتون بأعداد هائلة في استعداد محموم لحمل السلاح للدفاع عن دولتهم الفتية المثيرة .

تقابلا للمرة الثانية عند حاجز تفتيشٍ في أوكا عندما تأججت الحرب وانتشرت من أقصى القطاع الشمالي إلى الجنوب . كان في عجلة من أمره ، يركب سيارته من اونيتشا إلى إينوقو، ورغم أنه من وجهة النظر الحضارية لم يكن يمانع في التعرض للتفتيشات الدقيقة عند حواجز التفتيش ، إلا أنه ضل يشعر بالإهانة كلما أجبر على الخضوع لها . ربما لن يعترف بذلك، لكن الشعور السائد لدي الناس أنك إذا تعرّضت للتفتيش فيعني ذلك أنك لست من المهمّين . عادة ما يتفادى تلك التفتيشات عندما يعلن للحاجز بصوت جهوري آمر " ريجنالد نوانكوو من وزارة العدل " وفي الغالب يكلل أسلوبه بالنجاح . لكن أحيانا بسبب الجهل أو العناد، لا يستجيب طاقم حاجز تفتيش ما لإعلان تقمصه للشخصية المهمة ، مثلما يحدث الآن في أوكا حيث يقوم عريفان يحملان بنادق مارك 4 الثقيلة بمراقبته من مسافة بعيدة على الطريق ، تاركين مهمة التفتيش للمتطوعين المحليين .

قال للفتاة التي اقتربت من سيارته " أنا في عجلة من أمري ، اسمي ريجنالد نوانكوو من وزارة العدل . "

" أهلا يا سيدي ، أودّ رؤية صندوق الأمتعة . "

" أووه . بحقّ المسيح ماذا تظنين في هذا الصندوق ؟ "

" لا أعرف ، يا سيدي . "

غادر السيّارة يكتم غيضه ، مشى للخلف وفتح الصندوق ممسكا الغطاء بيده اليسرى ، مشيراً باليمنى وكأنه يقول .. تفضّلي أنت الأولى ؟

سألها ، " هل ارتحت الآن ؟ "

" نعم يا سيدي ، هل يمكن رؤية حُجيرة الأوراق داخل السيارة ؟ "

" بحقّ المسيح الأعظم ؟ "

" آسفة لتأخيرك ، ولكن أنتم الشعب الذي كلّفنا بهذا العمل . "

" لا عليك فأنت محقّة تماما ، كلما في الأمر أنني في عجلة من أمري ، ولكن لا عليك ، هذه هي الحجيرة الأمامية وكما ترين لا يوجد بها شيء . "

" حسنا يا سيدي ، اغلقها . " ثمّ فتحت الباب الخلفي لتفتش تحت الكراسي . في هذه اللحظة بالضبط رآها بصورة جيدة ، مبتدءاً من الخلف حيث تبدو فتاة جميلة ترتدي كنزة زرقاء كبيرة ، وسروالا من الكاكي ، وحذاءً من القماش المشمع ، شعرها مسرّح حسب الموضة السائدة مما أضفى على وجهها نظرة تحدّ ، وكانوا يطلقون على تلك التسريحة ــ لأسباب خاصة بهم ــ اسم القاعدة الجوّية ؛ أمّا وجه الفتاة فقد بدا له مألوفا .

" ليــس هناك شيء آخــر " قالت قاصدة أنّ مهمتها انتهت ، ثـم أضافت " ألا تتذكرني؟"

" كلا ، وهل يجب أن أفعل ؟ "

" أوصلتني مرّة إلى إينوقو ، في ذلك الوقت عندما تركت الدراسة لألتحق بالميليشيا . "
" آه ، نعم هو أنت ، ألم أقل لك أن تعودي إلى المدرسة لأنّ الفتيات غير مرغوبٍ بهنّ في الميليشيا ، ماذا حدث ؟ "
" خيروني بين العودة إلى مدرستي أو الالتحاق بالصليب الأحمر . "
" كما ترين فقد كنتُ على حقّ ، وماذا تفعلين الآن ؟ "
" أساعد في الدفاع المدني . "
" حظّا حسنا ، وصدقيني أنت فتاة رائعة . "
أخيرا وفي هذا اليوم اقتنع بوجود سبب للحديث عن الثورة النسائية . لقد شاهد من قبل العديد من الفتيات والنساء يخرجن في مسيرات ومظاهرات ولم يشكّ أنهن جادات في هذه المسألة . لقد كنّ يتعاملن مع الأمور بجدية ، ولكن كذلك يفعل أولئك الأطفال الذين يجوبون الشوارع يحملون عصيّا عوضا عن البنادق ، ويغطّون رؤوسهم بقدور حساء أمهاتهم لتكون بمثابة خوذ . في ذلك الوقت كانت المزحة الرئيسة في أوساط أصدقائه تقول أنّ مجموعة فتيات من المدرسة الثانوية في المنطقة شوهدن أثناء مسيرة وهو يرفعن لافتة تعلن (نحن غير قابلات للحمل ؟) .
لكن بعد ذلك اللقاء عند حاجز تفتيش أوكـا ـ لم يعد يجرؤ على التجهّم في وجوه الفتيات ، ولا إبداء الامتعاض من الحديث عن الثورة النسائية لأنه رآها رؤيا العين في هذه الفتاة التي كان إخلاصها واستقامتها غير المتكلّفة سبباً في إظهار طيشه وخفّته . ماذا كانت كلماتها لـه ؟ أنتم الذين كلفتمونا للقيام بهذا العمل . ليس هناك مجالٌ لأي استثناءٍ حتى لشخص قدّم لها معروفا ذات مرة ، لقد كان متأكدا أنها ستفتش حتى أباها بنفس الطريقة .
عندما التقيا للمرة الثالثة بعد ثمانية عشر شهراً على الأقل ، كانت الأمور سيئة للغاية ، حيث طرد الجوع والموت منذ مدة طويلة عنف وتهوّر الأيام الخوالي، وترك في بعض الأماكن بصماته على شكل استسلام تام للأمر الواقع ، وفي أماكن أخرى عناد صعبٌ يكاد يكون انتحاريا . لكن المفاجئ في الأمر وجود الكثيرين في هذا الوقت ممّن لا رغبة أخرى لديهم سوى حيازة كل الأشياء الجيدة المتوفرة في تلك اللحظة، وإمتاع أنفسهم حتى النهاية .
لمثل هؤلاء فإنّ حالة غريبة من الاستقرار قد عادت إلى هذا العالم ، حيث اختفت كل حواجز التفتيش المزعجة تلك وعادت البناتُ بناتا ، والأولادُ أولاداً ؟ كان عالما ضيّقا محاصرا ويائساً ولكنه عالمٌ على أية حال ـ فيه بعضٌ من المحاسن ، وبعضاً من المساوئ أيضا ، والكثير من البطولات التي حدثت في الغالب بعيدا بعيدا عن مدى نظر الأشخاص في هذه القصة ـ في معسكرات اللاجئين البعيدة، من قبل مرتدى الأسمال البالية ، وفي الشجاعة التي يتحلى بها شاغلو خطّ المواجهة الأول الجوعى ، قليلو العتاد .
كان ريجنالد نوانكوو يعيش حينها في أويري، ولكنه ذهب في ذلك اليوم إلى نكويري بحثا عن الإمدادات . تحصّل من (كاريتاس) مؤسسة الإغاثة في أويري على بعض الأسماك المخزّنة ، واللحم المعلّب ، ونوع من الطعام الأميركي المقزز يُدعى الخلطة رقم 1 التي اقتنع تماما أنها نوعٌ من الطعام المخصص للحيوانات ، لكن طالما تولّد لديه شكّ مبهم بأن كون الشخص لا يدين بالمذهب الكاثوليكي فإنّ ذلك لا يؤهله للحصول على كل شيء من كاريتاس ، ولهذا السبب يسافر الآن لرؤية صديق قديم له يدير مخزن إغاثة متضرري الحرب في نكويري للحصول على مواد أخرى مثل الأرز والفاصوليا وتلك الحبوب الممتازة التي يطلقون عليها جاري الغابون .

غادر أويري في السادسة صباحا ليلحق بصديقه المعروف عنه عدم بقائه في عمله بعد الثامنة والنصف خوفا من الغارات الجوية . كان نوانكوو محظوظا للغاية في ذلك اليوم ، فقد تسلّمت المخازن إمدادات كثيرة جديدة بعد أن حطّت العديد من الطائرات في الليالي السابقة على غير العادة . بينما كان سائقه يضع المعلبات ، والزكائب ، والصناديق في سيارته ، أخذت جموع الجوعى المتواجدة حول مراكز الإغاثة على الدوام تطلق عبارات قاسية ، وغير مهذبة مثل هذا ليس (مركزا للإغاثة) بل الأصح هو (بإمكان الحرب أن تستمر) وهي الجمل التي تتوافق في أحرفها الأولى ثم صاح أحدهم " أريفولو ؟ " فردّ صديقه " تشيم ؟ " " أريفولو ؟ " "تشيم ؟ " ، "إيسوفيلى ؟ " ، " تشيم ؟ " "إيسوفيلي ؟ " ، " امبا ؟ "
كان نوانكوو في غاية الخجل ، ليس بسبب الصيحات والشتائم التي يطلقها هذا الجمع البائس من الهياكل العظمية الهائمة على وجوهها ، ولكن بسبب الاتهام الذي تطلقه أجسادهم الهزيلة وعيونهم الغائرة . بالطبع سيكون إحساسه بالتعاسة أكثر لو أنهم لم يقولوا شيئا ووقفوا قبالته يحملقون فيه صامتين بينما يقوم بتعبئة سيــارته بالحليب والبيض والثمار المجففة واللحوم والأسماك المعلبة .. بالطبيعة فإنّ تمتعه بحظ جيد ولو لمرة واحدة في وسط هذا الدمار الكامل كفيل بأن يجعله يحس بالخجل . ولكن ماذا بوسع الرجل أن يفعل ؟ إنّ لـه زوجة وأطفالا يعيشون في قرية نائية ويعتمدون كلية على ما يعثر لهم من طعام ويرسله إليهم فهو لا يستطيع التخلي عنهم . أحسنُ ما يمكنه القيام به ــ في الحقيقة قام به ــ هو أن يعطي كمّية مناسبة من كل ما يحصل عليه لسائقه ، جونسون ، صاحب الزوجة وستة الأبناء ، أم هم سبعة ؟ أن يكون لك أطفالٌ وراتبك عشرة جنيهات ، في الوقت الذي يُرفعُ فيه سعر الجاري إلى جنيه واحدٍ للكوب الواحد ، في مثل هذه الأحوال ليس بإمكانك فعل أيّ شيء لهذه الجموع ، في أحسن الأحوال يمكن للمرء أن يسدي خدمة واحدة للجار الأقرب فقط . هذا كل ما في الأمر .
في طريقه إلى أويري ، أشارت لـه فتاة جميلة على قارعة الطريق، طالبة توصيلها فأمر السائق بالوقوف . فجأة تزاحم على السيارة عديد الراجلين ، مغبرين ومُتعبين ، منهم المدنيون ومنهم العسكريون ، وأحاطوا بالسيارة من جميع الجهات .
قال نوانكوو بحزم " لا ، لا ، لا ، لقد توقّفت من أجل هذه الفتاة فقط ، أحدُ الإطارات في حالة سيئة ، ولا أستطيع إلا نقل شخص واحد فقط . "
صاحت إحدى العجائز بيأس وهي تمسك بمقبض الباب " أرجوك ، يا بني ."
" أيتها العجوز ، هل تريدين قتل نفسك ؟ " صرخ السائق في وجهها وانطلق بعيدا مما أجبرها عل افتكاك يدها من المقبض . كان نوانكوو قد فتح كتابا ودفن فيه عينيه . انطلقت السيارة لمسافة ميل على الأقل ولم يلق أية نظرة على الفتاة إلى أن وجدت هي أن الصمت أثقل مما يحتمل فقالت :
" لقد أنقذتني اليوم ، أشكرك . "
" العفو ، إلى أين تتجهين ؟ "
" إلى أويري ، ألا تذكرني ؟ "
" أووه ، نعم بالطبع ، يالي من أحمق . . . أنت . . . "
" جلاديــس . "
" هذا صحيح ، فتاة الميليشيا . لقد تغيّرت ياجلاديس ، طبعا كنت جميلة دوما ولكنك الآن كما ملكة جمال . ماذا تفعلين في هذه الأيام ؟ "
" أعمل في إدارة المحروقات . "

" رائـع ؟ "
قال في نفسه إنه شيء رائع بالفعل ، وأكثر من ذلك فهو مأسويّ . كانت ترتدى شعرا مستعاراً مركّز الصبغة ، وتنورة باهضة الثمن ، مع قميص بقصّة صدرٍ مفتوحة ، يبدو حذاؤها مستوردا من الغابون ولابدّ أنّ اقتنائه قد كلفها ثروة . باختصار خمّن نوانكوو أنّ شخصا ما في مركزٍ مرموق يتولى الصرف عليها . . . أحد هؤلاء الذين يكدسون الأموال مستفيدين من حالة الحرب .
" لقد كسرتُ اليوم القاعدة التي أتبعها بإعطائك هذه التوصيلة ، فأنا في العادة لا أقوم بإركاب أحد . "
" لمــاذا ؟ "
" كم عدد الممكن نقلهم معك ؟ من الأفضل ألا تحاول مطلقاً . هل رأيت تلك العجوز ؟ "
" اعتقدتُ أنّك ستوصلها . "
لم يردّ بشيء وأعقب ذلك فترة صمت . ظنّت جلاديس أنها ربّما قد أغضبته ، فأردفت "شكراً لأنك خالفت القاعدة المتبعة من أجلي ." كانت تمعن النظر في وجهه الذي يديره إلى الجهة الأخرى . ابتسم واستدار نحوها ثمّ ربت عل حجرها .
" ماذا ستفعلين في أويري ؟ "
" سأزور صديقتي . "
" صديقتك ؟ هل أنت متأكدة ؟ "
" ولم لا ؟ إذا ما صحبتني لمنزلها فسيمكنك رؤيتها ، إني أصلي للربّ ألا تكون قد سافرت لتمضية عطلة نهاية الأسبوع وإلاّ سيكون الوضع حرجاً . "
" لمــاذا ؟ "
" سأنام اليوم في الشارع إن لم تتواجد في بيتها . "
" أصلي للرّب ألا تكون في بيتها . "
" لمــاذا ؟ "
" إن لم تكن في بيتها فسأعرض عليك سريرا وإفطاراً . ماالأمــر ؟ " قال للسائق الذي أوقف السيارة فجأة . لم يكن هناك داعٍ لانتظار الجواب فقد كانت هناك مجموعة من الناس ينظرون إلى السماء . خرج ثلاثتهم من السيّارة بكل سرعة واتجهوا إلى الغابة ، والتوت الأعناق في عملية بحثٍ في السماء لكنّ الإنذار كان كاذباً لأنّ السماء كانت صافية وصامتة فيما عدا وجود اثنين من النسور . أطلق أحدهم دعابة مفادها إنّ الطائرين هما طائرة مقاتلة ، والأخرى قاذفة فضحك الجميع باطمئنان ، وصعد الثلاثة إلى سيارتهم ثانية مستمرين في رحلتهم .
" مايزال الوقت مبكّراً على الغارات فنادراً ما تبدأ قبل العاشرة . " قال لجلاديس التي كانت تضع كلتا راحتيها على صدرها كأنها تحاول الحدّ من خفقانه .
لكنّ لسانها ضلّ معقوداً بسبب الخوف الذي اعتراها ، وهنا لمح نوانكوو فرصة أراد اغتنامها على الفور .
" أين تعيشُ صديقتك ؟ "
" طريق دوجلاس ، رقم 250 . "
" آه ، إنها في وسط المدينة تماماً وهو مكانٌ سيئ للغاية حيث لا توجد أيّ ملاجئ هناك . لا أنصحك بالذهاب هناك قبل السادسة مساءً لأنّ المكان ليس بآمنٍ ، وإن لا تمانعين فسآخذك إلى

بيتي حيث لدينا ملجأ جديد ضدّ الغارات، وحالما يصبح الوضع آمنا عند حوالي الساعة السادسة سآخذك إلى صديقتك . ما رأيك ؟ "
ردّت بنبرة تخلو من الحماس " لابأس ، فأنا مرتعبة من هذا الشيء ولهذا السبب لم أقبل العمل في أويري ، لست أعرف حتى ما الذي حثّني على المجيء هذا اليوم . "
" ستكونين بخير فنحن متعودون على ذلك . "
" لكن عائلتك ليست معك هنا ؟ "
" كلاّ ، لا أحدٌ يبقي عائلته معه هنا . نفضل القول أنّ ذلك بسبب الغارات ، ولكن أؤكد لك أنّ هناك سبباً حقيقيّا لذلك ، وهو أنّ أويري هي مدينة المتعة ونحن نمارس فيها حياة العزّاب المرحين . "
" هذا ما سمعته عنها . "
" لن تسمعي عن ذلك فقط بل سترين بأمّ عينك اليوم . سترافقيني إلى حفل صاخبٍ حقيقي ، إنّ صديقاً لي برتبة مقدّم سيقيم حفلةً بمناسبة عيد مولده وقد استأجر فرقة (ساوند سماشرز) الموسيقية . أنا على ثقة أنّك ستتمتعين بذلك . "
أحسّ بالخجل ينتابه فوراً ، وبشكل كبير . كان يكره الحفلات والعبث الذي يمارسه أصدقاؤه وكأنّ ذلك سينقذهم من الغرق ، وأن يتحدث عنهم هكذا موافقا على تصرفاتهم لمجرد رغبته في اصطحاب الفتاة معه إلى البيت ؟ هذه الفتاة بالذات الذي كانت تحمل في الماضي معتقدا جميلا حول النضال ، ووقعت خيانتها (لاشكّ في ذلك) من قبل رجل ما يبحثُ عن متعته . لم يملك إلا أن يهز رأسه بأسىً .
سألته جلاديس " ما الأمر ؟ "
" لا شيء ، مجرد خواطر . "
واصلا بقية الرحلة إلى أويري في صمت شبه تام . لم يمض وقت طويل إلا وأخذت تتصرف وكأنها في بيتها ، أو كأنها صديقة دائمة لـه . . . غيرت ملابسها وارتدت ثوبا منزليا ، ونزعت شعرها المستعار .
" تسرحين شعرك بطريقة جميلة ، فلماذا ترتدين شعرا مستعاراً ؟ "
" أشكرك " قالت لـه وتركت سؤاله معلقا لفترة دون إجابة ، ثم أضافت " حقّا إنّ الرجال مضحكون . "
" لماذا تقولين ذلك ؟ "
" ولكنك الآن ملكة جمال ؟ " قالت مقلدة جملته السابقة .
" أووه ؟ ذلك الإطراء . لقد عنيت كلّ كلمة منه " ثمّ جذبها إليه وقبّلها . لم تقاوم قبلته ولم تستجيب لها وقد أعجبته هذه البداية لأن كثيرا من الفتيات في غاية السهولة هذه الأيام ، مما دفع البعض أن يسمي هذه الحالة مرض الحرب
غادر بعد فترة للإطلاع على شؤون المكتب ، ودخلت هي إلى المطبخ لمساعدة الخادم في إعداد الطعام . لم يمكث طويلا وعاد بعد نصف ساعة يفرك يديه ويقول إنّه لم يطق الابتعاد عن ملكته الجميلة .
بعد جلوسهما للغداء قالت " ليس لديك شيء في البراد . "
سألها وكأنه أهين " مثل ماذا ؟ "
" مثل اللحـوم . " ردّت غير هيّابة .
سألها متحديا " ماتزالين تأكلين اللحم ؟ "

" ومن أكون أنا ؟ لكن الرجال ذوي النفوذ أمثالك يأكلونه . "
" لست أدري ما الذي يدور في خلدك عن النفوذ ولكنهم لا يشبهونني ، فأنا لا أكسب أية أموال من المتاجرة مع الأعداء أو من بيع إمدادات الإغاثة ، أو . . . "
" لا يفعل صديق أوغوستا ذلك، ويحصل على عملة صعبة . "
" وكيف يحصل عليها ؟ كائناً من يكون فهو يسرق الحكومة وذلك ما يبرر حصوله على العملة الصعبة . لكن من هي أوغوستا ؟ "
" صديقتي . "
" فهمـت . "
" لقد أعطتني ثلاثة دولارات ، غيرتُها مقابل خمسة وأربعون جنيها ، أمّا هي فتحصلت من صديقها على خمسين دولارا ."
" عظيم يا فتاتي العزيزة ، فأنا لا أتعامل مع النقود الأجنبية ، ولا توجد لحوم في برادي . نحن نخوض حربا وأعرف بعض الفتية في الجبهة يتناولون الجاري مع الماء كلّ ثلاثة أيام فقط."
" هي الحقيقة ، القرد يعمل والشمبانزي يستفيد . " قالت ببساطة
" ليس ذلك فقط ولكن بصورة أسوأ " ثمّ بدا صوته يرتعش " الناس يموتون يوميا وثمة شخص يحتضر في هذه اللحظة بينما نحن نتحدث . "
" إنــها الحقيـقة . "
" طــائرة ؟ " صاح الخادم من المطبخ .
صرخت جلاديس " يا أمي ." . وبينما هم يهرولون هاربين مغطين رؤوسهم بأيديهم وقد أحنوا بظهورهم في طريقهم إلى دشمة من جذوع النخيل والتراب الأحمر ، كانت السماء تمتلئ بالانفجارات والأصوات المدوية للصواريخ المضادة للطائرات المصنعة محلّيا. أثناء تواجدهم في الدشمة ضلّت ملتصقة به حتى بعد أن غادرت الطائرات وسكتت أصوات المدافع التي غالبا ما تبدأ المعركة متأخرة ، وتضل تدوّي بعد نهايتها .
" كانت تمرّ بالمنطقة فقط . " قال لها بصوت مرتعش قليلا " لم تسقط شيئا ، وحسب وجهتها أقول إنها ذاهبة للجبهة مما قد يعنى أنّ قواتنا تضغط عليهم . لهذا عندما يضغط فتياننا عليهم يستغيثون بالروس أو بالمصريين ليساعدونهم بالطيران ." ثمّ تنفس بعمق .
استمرت ملتصقة به ولم تقل شيئا . بإمكانهما سماع صوت خادمه يقول لخادم الجيران ، أنّه كانت هناك طائرتان وانقضّت إحداهما هكذا ، والأخرى هكذا .
" رأيتهما بكل وضوح . " قال الثاني وصوته يمتلئ بالإثارة مثل صاحبه .
" تخيـل ؟ " قالت بعد أن عثرت على صوتها أخيراً . إنّ لها أسلوبها في إيصال أفكارها المختلفة باستعمال كلمات محدودة أو حتى كلمة واحدة . لقد فوجئت الآن تماما ، كما تولد لديها يقين مختلط بالإعجاب بهؤلاء الناس الذين يتعاملون بطيبة قلب مع هذه الآلات الجالبة للدمار .
قال " لا تخافي كثيرا . " اقتربت منه أكثر ، وشرع يقبلها ويتحسس نهديها ، استسلمت له أكثر فأكثر ثمّ بالكامل . كانت الدشمة مظلمة وغير نظيفة وربما كانت تعجّ بالحشرات الزاحفة . فكّر أن يجلب فراشا من البيت ولكنه عاد وقرر أنّ ذلك غير ضروري . قد تمرّ طائرة أخرى فتجبر جارا أو أحد المارة على اللجوء إلى الدشمة والارتماء عليهما ، ورغم ذلك سيكون هذا أفضل قليلا من أحدهم عندما شوهد خلال إحدى الغارات النهارية يهرول من بيته إلى دشمته عاريا تماما ، تتبعه امرأة في نفس الحالة .

كما تخوفت جلاديس ، فلم تجد صديقتها في المدينة . يبدو أنّ صاحبها ذو النفوذ قد دبّر لها رحلة جوية إلى مدينة ليبرفيل للتسوق أو هذا على الأقل ما ظنه جيرانها .
" عظيم ؟ " قال نوانكوو وهما يبتعدان بالسيارة " ستعود في طائرة نقل أسلحة محمّلة بالأحذية ، والباروكات ، والسراويل ، وحمالات الصدور ، أدوات الزينة وأشياء أخرى . . . حيثُ ستبيعها وتجني من وراء ذلك آلاف الجنيهات . أنتنّ الفتيات في حرب فعلا .
لم تقل شيئا، لكنه رأى أنه قد نجح أخيرا في اختراق حُجبها ، وفجأة قالت لـه " هذا ما تريدون منا أن نفعله . "
" أنا مثلا لا أريدكنّ أن تفعلن ذلك . هل تذكرين تلك الفتاة التي ترتدي بدلة الكاكي ، والتي فتشتني دونما رحمة عند الحاجز ؟ "
أخذت جلاديس تضحـك .
" أريد أن تصبحي تلك الفتاة ثانية . هل تذكرينها ؟ دون شعر مستعار ولا أظن أنها كانت ترتدي حتى أقراطاً ."
" آه ، لن أكذب عليك فقد كنتُ أرتدي أقراطاً . "
" لا علينا ، لكنك تعرفين قصدي . لقد انتهى ذلك الوقت والكل الآن يحاول أن يعيش ."
تحول الاحتفال بعيد مولد المقدّم إلى شيء لم يكن متوقعا ، ولكن قبل تلك المرحلة سار كلّ شيء على ما يرام . قُدّم لهم لحم الماعز ، وبعض الدجاج والأرز ، وكثيرٌ من المشروبات الكحولية المصنعة محليّا . كان أحدها ذا طبيعة نارية يسمونه " الشهاب " وهو بالفعل يرسل لهيبا من النيران داخل الجوف ، والمضحك أنّ لـه منظرا مسالما للغاية مثل عصير البرتقال ، لكن المادة التي أثارت الكثير من اللغط هي الخبز . قرص رغيف صغير لكل شخص ؟ في حجم كرة الجولف وبنفس الكثافة أيضا ؟ ولكنه في النهاية خبز حقيقي . الفرقة الموسيقية رائعة أيضاً ، تواجدت العديد من الفتيات ، ومما زاد في تحسين الوضع حضور اثنين من البيض التابعين للصليب الأحمر يحملان زجاجة براندي من الصنف الراقي من نوع كورفوازيير ، وزجاجة ويسكي ؟ استقبلهم الحاضرون بالتحية وقوفا ، ثمّ انكبوا عليهما للحصول على بضع قطرات منه . سرعان ما تبين من تصرفات أحدهما أنه تناول الكثير من الخمر قبل حضوره إلى مكان الحفل، ويبدو أنّ السبب في ذلك هو مقتل طيار صديق لـه في حادث تحطم طائرة ليلة البارحة عندما كان ينقل الإمدادات في ظروف جوية سيئة .
لم يكن الكثير من الحضور قد سمعوا عن الحادث بعد ، و أثّر إعلان الخبر على جو الاحتفال فعاد بعض الراقصين إلى الجلوس وتوقفت الفرقة عن العزف ، ثم لسبب غير معروف انفجر رجل الصليب الأحمر فجأة :
" لماذا يكتب على هذا الرجل الشريف أن يفقد حياته بدون مقابل ؟ لم يكن على تشارلي أن يموت لأجل هذا المكان القذر ، نعم إنّ كلّ شيء هنا قذرٌ للغاية ، بما فيه هؤلاء الفتيات اللاتى يأتين هنا متبرجات باسمات ، ما قيمتهن ؟ ألستُ أعرف ذلك ؟ سمكة واحدة ، أو دولارا أميركيا، وهنّ على استعداد للقفز معك في الفراش . "
في جوّ الصمت الرهيب الذي أعقب هذا الانفجار ، تقدّم إليه ضابطٌ شاب وأعطاه ثلاثُ صفعات مدوّية ـ يمين ؟ شمال ؟ يمين ؟ ـ ثمّ اقتلعه من كرسيّه (كان هناك مايشبه الدموع في عينيه) ودفعه إلى خارج المكان ، أما صديقه الذي حاول إسكاته فقد تبعه للخارج ، وبعد ذلك سمع الحاضرون صوت سيارة تبتعد ، وعاد الضابط الذي قام بالضرب ينفض الغبار عن يديه . قال

للحاضرين ببرودة أعصاب ملحوظة " يا له من متوحّش لعين ؟ " وظهر في عيون الفتيات إكبارهن له كرجل ، وكبطل .
سألت جلاديس ، نوانكوو " هل تعرفه ؟ "
لم يجبها مباشرة ، ووجّه عوضا عن ذلك الحديث إلى الحاضرين " يبدو أنه كان ثملا . "
قال الضابط " لا يهمني في شيء فعندما يسكر الرجل يُظهر ما يعتمل في داخله "
قال المضيفُ " إذن فقد ضربته لما جال في خاطره . لقد أحسنت ياجوو . " فردّ الأخير مؤديا التحية العسكرية " شكرا سيّدي . "
" اسمه جوو " قالت كل من جلاديس والفتاة الواقفة إلى شمالها في نفس الوقت الذي التفتت كلا منهما نحو الأخرى .
أثناء ذلك كان نوانكوو وصديق له يؤكدان بصوت منخفض للغاية، بأنه رغم أنّ الرجل كان غير مهذّبٍ وعدوانيّ ، إلا أنّ ما قاله عن الفتيات هو للأسف حقيقة مرّة ، وكلّ ما في الأمر أنه ليس بالشخص المناسب للتصريح بذلك .
عندما أستأنف الرقص توجّه النقيب جوو إلى جلاديس وطلبها للرقص ، فقفزت على قدميها قبل حتى أن يُتمّ طلبه ، وتذكّرت مباشرة فالتفتت طالبة الإذن من نوانكوو ، وفي نفس الوقت استدار الضابط ليطلب الإذن منه قائلا " بعد إذنك ." فردّ نوانكوو متنقلاً بنظره بين الاثنين "لا مانع لدي . "
استغرقت الرقصة وقتا طويلا وتتبعها بعينيه دون أن يُبيّن ذلك . بين كلّ فينة وأخرى كانت تمرّ فوقهم إحدى طائرات الإغاثة فيقوم أحدهم على الفور بإطفاء الأنوار قائلا : ربّما كانوا من الأعداء ، لكنّ ذلك لم يكن سوى عذرٍ للرقص في الظلام وإضحاك الفتيات لأنّ صوت طيران العدوّ كان معروفاً لديهم .
عادت جلاديس بعد الرقصة يساورها خجل شديد وطلبت من نوانكوو أن يرقص معها ، لكنه لم يوافق قائلا " لا تشغلي بالك بي ، فأنا أتمتع بالجلوس هنا ومراقبة الراقصين . "
" إن لم تكن راغباً في الرقص فدعنا نذهب . "
" أنا لا أرقص مطلقا ، صدّقيني ، ولذلك أرجو أن تتمتعي بوقتك . "
رقصت بعد ذلك مع المقدّم ، ثمّ مع النقيب جوو ، ثمّ وافق نوانكوو على اصطحابها للبيت .
قال لها في السيارة ، في طريق عودتهما " أعتذر عن عدم الرقص، لكنني أقسمت ألاّ أرقص أبدا طالما استمرّت هذه الحرب . "ولم تردّ بشيء .
" عندما أفكّر بشخص ما ، مثل ذلك الطيار الذي قتل ليلة البارحة .. وهو الذي لا علاقة له علاقة بهذا الصراع ، وجُلّ همه أن يجلب لنا الطعام . . ."
قالت " أرجو ألاّ يكون صديقه على شاكلته . "
" لقد كان الرجل متأثراً لموت صديقه ، ولكني أقول أن هناك أناساً مثل هؤلاء يقتلون ، كما يعاني أبناؤنا ويموتون على جبهات القتال ، ولهذا لا أرى أيّ مبرّر لإقامة الاحتفالات أو المشاركة في الرقص . "
قالت بحدّة " أنت الذي اصطحبتني إلى هناك ، وهم أصدقاؤك أنت لأنني لا أعرفهم من قبل."
" لستُ ألومك يا عزيزتي ، إنما أحاول فقط أن أشرح لك سبب عدم اشتراكي في الرقص ، وعلى كلّ دعينا نغيّر الموضوع . . . ألا تزالين ترغبين في العـودة غداً؟ بإمكان سائقي أن يقلّك في وقت مبكر يوم الاثنين بحيثُ يمكنك الالتحاق بعملك . . . كلاّ ؟ كما ترغبين إذن ، فأنت الرئيسة هنا . "

صدمته بجاهزيتها للحاق به للفراش ، وباللّغة التي استعملتها .
" تريد أن تقصف ؟ " سألته ، وبدون انتظار إجابة منه قالت " يمكنك ذلك ، ولكن لا تصبّ أية قوّات ؟ "
لم يزعجه الطلب ، لأنّه لم يكن يرغب في صبّ أية قوّات، لكنها أصرّت على رؤية الإثباتات المادية فما كان منه إلاّ الاستجابة لها .
من ضمن الاقتصاديات العبقرية التي علّمتها لهم الحرب ، هو إمكانية استعمال الواقي مرّات ومرّات . ما عليك إلاّ أن تغسله ، وتجفّفه ، ثمّ تنثرُ فيه كمية كبيرة من بودرة التلك حتى لا يلتصق ، ويصبح عندها كأنه الجديد . لكن يشترط أن يكون صناعة بريطانية أصلية وليس من النوع الرخيص الذي يأتون به من لشبونة، فهو من الصلابة والجفاف بحيث يشبه ورقة شجيرات البطاطس في موسم رياح الهارمتّان الموسمية شديدة الجفاف .
استمتع هو ولم يهتمّ لها ، وقال في نفسه إنّ الأمر قد تمّ كما لو إنه ضاجع عاهرة . إنّ حقيقة كونها عشيقة لأحد ضباط الجيش تظهر له الآن واضحة مثل سطوع الشمس . يا له من تحول مشين خلال هذا الزمن القصير الذي لم يتعدّ العامين ؟ أليست أعجوبة أنها ماتزال تحتفظ بذكريات حياتها السابقة ، وأنها ماتزال تذكر اسمها ؟ وفكّر أيضا لو أنّ حادثة رجل الصليب الأحمر الثمل تقع من جديد ، فسيقف في صفه ويقول للمحتفلين إنّ هذا الرجل يقول الحقيقة . يا له من قدرٍ قاسٍ يصيبُ جيلا بأكمله ؟ أمهات الغد ؟
مع حلول الصباح صارت أحكامه أكثرُ عقلانية ، ورأى أنّ جلاديس لم تكن إلاّ مرآة تعكس حالة مجتمع امتلأ بالديدان وأصابه التعفن من الداخل بالكامل . . . أمّا المرآة نفسها فلا تزال سليمة ، عليها الكثير من الأوساخ فقط وكلّ ما تحتاجه هو خرقة تنظيفٍ جيدةٍ ، وقال في نفسه " إنّ لدي واجبات تجاهها . هذه الفتاة التي بيّنت لي ذات مرّة الواقع الذي نعيشه ، هي نفسها في خطر ، وتقع تحت تأثيرات سيئة . "
أراد أن يعرف مصدر هذا التأثير السيئ بصورة محددة ، كان واضحا أنه لا يقتصر على صديقتها في العبث أوغوستا ، أو مهما كان اسمها . لابدّ أنّ هناك رجلا ما في هذه القضية . ربّما يكون أحد هؤلاء التجار المغامرين ذوي القلوب القاسية ممن يتاجرون في العملة الأجنبية ويكسبون مئات الألوف جرّاء إرسال الشباب وتعريض حياتهم للخطر، بمقايضة أشياء مسروقة بالسجائر خلف خطوط العدوّ ، أو قد يكونُ أحدُ هؤلاء المقاولين الذين يقبضون أموالا طائلة يوميا مقابل التعهّد بتموين الجيش ، في الوقت الذي لا تصل فيه هذه الإمدادات أبداً . أو يكون أحدُ هؤلاء الضبّاط المبتذلين الجبناء المتشدّقين بكثير القول وقصص البطولات الزائفة التي يرددها من داخل أسوار المعسكر ، وهكذا أتخذ قرارا بأن يعرف من يكون هذا الشخص . قرّر ليلة البارحة أن يرسل سائقه لتوصيلها إلى بيتها ولكن ، كلاّ . لابدّ أن يذهب هو ليرى بنفسه أين تقيم . لابدّ أنّ شيئا ما سيظهر له هناك بحيثُ يستند إليه لوضع خطته لإنقاذها . بينما هو يجهز للرحلة بدأ شعوره نحوها يلينُ مع مرور كل دقيقة . جهّز لها نصف الطعام الذي حصل عليه في اليوم السابق من مركز الإغاثة وفكّر أنّ الأمور سيئة كما تبدو ، لكن بإمكان فتاة لديها ما تأكل أن تتجنّب الإغراءات . ليس كلها ولكن أغلبها ، وسيتفق مع صديقه في مركز إمدادات الغوث أن تحصل على شيء ما كلّ أسبوعين .
تدفّقت الدموع من عيني جلاديس عند رؤيتها للبضائع ، ولم يكن لدي نوانكوو الكثير من المال، لكنه عثر لها على مبلغ عشرين جنيها وسلّمه لها .

" ليس لدي أية نقود أجنبية وأعرفُ أنّ هذا المبلغ غيرُ كافٍ ، ولكن . . ."
لم تتمالك نفسها وارتمت عليه باكية ، فقبّل شفتيها وعينيها وهمهم بكلمات حول ضحايا الأوضاع لم تسمع منها شيئاً . كانت قد وضعت شعرها المستعار في حقيبتها ، وبغبطة قدّر أنّ ذلك بمثابة احترامٌ له .
قال لها " أريدك أن تعديني بشيء . "
" ومـا هــو ؟ "
" ألاّ تستعملي هذا التعبير حول القصف مرّة أخرى . "
طفرت الدموعُ إلى عينيها ، وابتسمت قائلة " لا تحبه ؟ هذا ماتصفه به كل الفتيات . "
" أنت مختلفة عن كل الفتيات . هل تعدينني ؟ "
" نعــم . "
تأخر موعد مغادرتهم بالطبع ، وعند ركوبهم السيارة أبى المحرك أن يدور . بعد أن قام السائق بالكشف عليها أعلن أنّ شحنة النضيدة قد فرغت، ففوجئ نوانكوو لأنه دفع هذا الأسبوع فقط أربعة وثلاثون جنيها لتغيير خليتين من النضيدة ، ووعده الفنّي الذي أنجز العمل بضمان خدمة مدّته ستة أشهر . لكن نضيدة جديدة يصل سعرها الآن إلى مائة وخمسون ديناراً تبدو من المستحيلات ، وقدّر أنّ السائق لابدّ وأن أهمل في أمر ما .
قال السائق " لابدّ وأن ذلك بسبب ما حصل البارحة . "
" وما الذي حدث البارحة ؟ " كان سؤاله حادّا وقد توقع نوعاً من الغطرسة ولكنّ ذلك لم يحدث .
" لأنّنا استعملنا الأضواء الأمامية . "
" ألا يفترض أن أستعمل أضوائي الأمامية إذن ؟ اذهب لإحضار بعض الأشخاص لدفع السيارة ."
غادر السيارة مع جلاديس ريثما يأتي السائق بمن يساعده من خدم الجيران .
بعد ما لا يقل عن نصف ساعة من دفعها في الشارع جيئة وذهابا ، وبعد كثير من ضجيج الدافعين ونصائحهم عادت الحياة أخيرا للسيّارة ، دافعةً سُحبا كثيفة من الدخان الأسود من فوّهة العادم .
كانت ساعته تشير إلى الثامنة والنصف عندما بدأوا رحلتهم . بعد مسيرة عدّة أميال لوّح لهم جندي معاقٌ طالباً توصيله .
" قف ؟ " صاح نوانكوو ، فضغط السائق على المكابح والتفت برأسه مندهشا صوب سيّده .
" ألم تر ذلك الجندي الذي يلوّح بيديه ؟ عد إلى الخلف والتقطه ؟ "
قال السائق " آسفٌ يا سيدي . لم أكن أعرفُ أنّ سيّدي يريد إركابه . "
" إن لم تعرف فكان عليك أن تسأل . عد إلى الخلف . "
لم يكن الجنديُّ غير صبيّ يرتدي بدلة كاكي وسخة ، مليئة بالعرق ، وقد فقد ساقه اليمنى من تحت الركبة . لم يُظهر امتنانه فقط لأنّ السيّارة توقّفت من أجله ولكنه تفاجأ أيضاً . سلّم في البداية عكّازيه الخشبيين غير المصقولين إلى السائق الذي وضعهما بين الكرسيين الأماميين ، ورفّع نفسه بألم وجلس على الكرسي .
" أشكرك ، يا سيدي . " لوى بعنقه ناظرا خلفه ، يكاد لا يتنفس .
" إنني في غاية الامتنان ، يا سيدتي . أشكركما . "
قال نوانكوو " يسرّنا مساعدتك . أين جُرحت ؟ "
" في منطقة أزومينى ، يا سيدي ، في العاشر من يناير ."

" لا عليك فسيكون كلّ شيء على ما يرام . نحن فخورون بكم أيّها الفتية ، وسنعمل على حصولكم على ماتستحقّونه من مكافأة عند نهاية الحرب ."
" أصلي من أجل ذلك ، يا سيدي . "
سافروا في صمتٍ لمدّة نصف ساعة تقريبا ، وبينما كانت السيارة تهبط مسرعة منحدراً يؤدي إلى الجسر ، صاح أحدهم .. ربّما كان السائق أو الجندي " لقد جاءوا ؟ " . اختلط صوت المكابح الحادّ بالصوت الهادر المدوي فوق رؤوسهم ، وانفتحت أبواب السيارة حتى قبل أن تتوقف تماما ليهرب ركّابها بطرقة عشوائية صوب الأشجار . كانت جلاديس متقدّمة على نوانكوو قليلا عندما سمعا خلال لحظة خفت فيها الهديرُ قليلا ، صوت الجندي يصرخُ "أرجوكم . تعالوا افتحوا لي الباب " بغموض شاهد جلاديس تتوقف . اجتازها صارخا في نفس الوقت أن تستمرّ في الركض ثم اخترق صفيرٌ حادّ حالة الهرج تلك كما يفعل رمحٌ وانفجر محدثا طرقعة وخلخلة قوية أدّت إلى تحطيم كلّ شيء . أطارت به شجرة كان يحتضنها وألقت به بعيدا بين الأشجار ، ثمّ صفيرٌ رهيبٌ آخر يبدأ عاليا في السماء لينتهي بأضخم اصطدام في الكون ، ثمّ آخر ، ولم يسمع نوانكوو شيئاً بعد ذلك .
أفاق على أصواتٍ آدمية وعويل ورائحة ودخان ينبعثان من هذا العالم المحطّم . وقف بصعوبة وسار مترنّحا صوب مصدر تلك الأصوات .
من بعيدٍ رأى سائقه يركض نحوه باكيا ، وملطّخا بالدماء ، ثم شاهد حطام سيارته ينبعث منه الدخان وما تبقّى من جسدي فتاة وجندي . أطلق صرخة مدوّية وسقط ثانية على الأرض .

عاشـق السكّر

بقلم : تشنوا أشيبيي

اقتنصتُ التعبير الانفعالي على وجهه في اللحظة التي حدث فيها ذلك التصرّف الغريب ، وعندها عرفتُ كلّ شيء ، ولا أعني بذلك دلالة الفعل كما ظهرت لي، فقد كانت بيّنة تعلنُ عن نفسها . كــلاّ . فما عرفته هو جدّيته المفرطة . استمرّ ذلك التعبير على وجهه لثانيةٍ أو اثنتين وهي المدّة التي استغرقتها حركة إدخال يده في وعاء السكّر ، وغرف قبضة منه ثمّ رميها خارج النافذة . اتّخذ فكّه ذو الشكل المربّع هيأة قاسيةً، ثمّ غادرته القسوة وتركت مكانها لشبح ابتسامة بالغة اللطف .

" آه ــ آه ؛ لماذا ؟ " سأل أحد الحاضريْن أو ربما كلاهما ، حيثُ فوجئا كليّة بذلك التصرّف الغريب .

" لأبيّن للسكّر إنني اليوم أعظم منه شأنا ، لقد أتى اليوم الذي أستطيع فيه شراء السكّر و باستطاعتي رميه إن شئتُ ذلك "

شرعوا في الضحك ، وشاركـهم كليتـوس ولكـن بتعقّـل ، أمّا أنـا فشـاركتهم قليلا جدّا .

قال أوميرا بينما جسده يهتزّ من الضحك وعيناه تلمعان " أنت شخص مضحك يا كليتوس."

سرعان ما كنا نحتسي شاي كليتوس ونلتهم شرائح من الخبز المغطى بطبقة كثيفة من الزبد الصناعي .

قال صديق أوميرا الذي لا أذكر اسمه : " نعم ، فلْتصبْ رصاصة ما رأس السكر وتهشمه ."

" آميــن "

" قريبا ، وفي يوم ما سيأتي دور الزبد " قال أوميرا ثم أردف " وأرجو المعذرة لعادتي السيئة " ثمّ غمس بقطعة خبز في كوب الشاي ورفعها وهي لا تزال تقطر إلى فمه الضخم ، مميلاً برأسه للخلف . " هكذا تعلمتُ أكل الخبز" وأخرج كلماته من داخل فم مملوء رطب . اقتطع شريحة أخرى ــ أصغر هذه المرة ــ وقذف بها من النافذة " اذهبي لملاقاة السكر ، ولتهشمّ رصاصة ما كلا رأسيكما ؟"

" آميــن "

خاطبني كليتوس قائلا " أخبرهم عن قصتي مع السكر ، يا مايك ."

قلت لهم أنه ليس لدي الكثير لأخبرهم به سوى أنّ صديقي كليتوس ، يسميه أصدقاؤنا الإنجليز (محبُّ الحلوى) لكن الإنجليز وهم بالطبع قومٌ معتدلون، لم يجدوا توصيفا لمثل حالة كليتوس، بأسنانه الاثنتان والثلاثون التي نخرها السوس بالكامل .

كانت تلك مزحة قديمة لي ، ولأنّ أوميرا وصديقه لم يعرفا شيئا عن الموضوع فقد أخذا يقهقهان بصوت عال ، وهو ما ناسبني ذلك لأنني لم أرغب في رؤية أي من القصص الحقيقية التي كان كليتوس يريدني أن أرويها . لحسن الحظّ أنّ أوميرا وصديقه كانا متشوقين لأن أروي لهما المزيد والمزيد من الحكايات عن الصعوبات التي واجهتُها ، لأننا أصبحنا في تلك الأيام مثل مجموعة من العجائز الموسوسات اللاتي يتنافسن على رواية أدقّ التفاصيل المثيرة عن أمورهن الخاصة . أمّا أنا فقد وجدتُ ذلك مؤلماً ومقلقاً ولا يطاق ، فلم أتحل يوما بمقدرة بعض الناس (كليتوس مثلا) على رؤية الأمور بمنظار حسن ، فالألم يستمر معي لمدة أطول مما يستمر معه . حتى ألمه الخاص ــ وهو الغريب في الأمر ــ فلم يكن ليخطر لي حتى بعد ألف عام أن أرى قصة انتصاره على السكر تلك . لقد شعرتُ بالانزعاج لمجرد أنني عايشتها ، وبدت لي القصة شبيهة بحكاية

رجلٍ سخيف يهديك كأسا من الشراب لأنّه قرأ في جرائد الصباح أنّ رجلا ما كان قد أغوى زوجته في السابق توفي لتوّه . سيقف ذلك الشراب في حلقي ، لأنّ شفقتي واحتجاجي سيطولان المحتفي ، وسأكنّ إعجابا لذلك الرجل الفارس الذي ديّثه مرّة في نزال مكشوف .

أمّا بالنسبة لكليتوس ، فالسكر ببساطة ليس مجرد سكّر فقط ، إنّه الشيء الذي يجعل الحياة قابلة لأن تطاق . عشنا وعملنا سوية طوال الثمانية عشر شهرا الأخيرة من الحرب ، ولذلك كنت قريبا من معاناته ومن هزائمه المهينة . لم أتمكن من التعاطف الكامل مع حالة الإدمان لديه، فطالما أحصل على وجبة الجارى في العشية ، لم أكن أطلب إفطارا أو عشاءً . عانيتُ في البداية من عدم وجود اللحم أو السمك ، والأسوأ من ذلك خلوّ حسـائي من الملح ، لكن ما أن حلّت السنة الثانية من الحرب إلاّ وقلت حاجتي لها شيئا فشيئا . صار كليتوس متعلقا بصورة طاغية بسكّره وشايه في كل يوم من أيام الفاقة تلك ، وتلك في رأيي حالة خطرة لشهية تعتاد شيئا لا تحتاجه بالضرورة كغذاء . لكن كيف تعلّم هذا الذوق الغريب من البداية ، فذلك أمرٌ لم أجهد نفسي لمعرفة أسبابه . من المحتمل أن يكون ذلك الشيء قد بدأ كخلية سرطانية وحيدة في أيام وليالي الشتاء الموحشة في الحزام الأسود من حقول إيدبروك .

أيقن الآخرون من الذين يتعاطون القهوة والشاي ــ إذا ماعثروا عليهما ــ أن يشربوهما من دون سكر أو حليب ، إلى أن قام عبقريّ مجهول بالترويح عنهم قليلا واكتشف أنّ بالإمكان التخفيف قليلا من مرارة القهوة بإضافة قطعة من جوز الهند إليها ، وهكذا خرجت للوجود وجبة إفطار جديدة تسدّ الرمق ، لكنّ كليتوس صار كمن أصيب بلعنة فإمّا أن يحصل على الشيء المناسب ، أو لا شيء ؟ . هل قلتُ إنني فقدت صبري بسببه ؟ حسنٌ ، فقد حصل ذلك في بعض الأحيان . في بعض لحظات تدبري ، وعندما أكون في أحسن حالاتي كنت أحسُّ بالأسف من أجله أكثر من إحساسي بالغضب منه ، فهل يستطيع أحدٌ القول بكل أمانة أنّ الإدمان على السكر هو الأكثر شذوذا من كل أنواع الإدمان الأخرى المعروفة في ذلك الوقت ؟ كلاّ . بالإضافة إلى أنه لا يشكل أي تهديد لأي شخص آخر ، وهو ما لا تستطيع قوله عن أنواع الإدمان الأخرى .

حضر يوما إلى بيته في غاية الفرح ، فقد باعه أحد الأشخاص الذين عادوا حديثا من الخارج دزينتين من أقراص التحلية الصناعية بمبلغ ثلاثة جنيهات . اتجه مباشرة ليغلي الماء ثمّ أخرج من أحد الزوايا السرّية في حقيبته علبته القديمة للقهوة السريعة ــ لم يعد لديه شاي ــ والتي بدأت تتحجر . " ماتزال في حالة جيدة " كان يقنعني المرة تلو الأخرى، رغم إنني لم أعلق بكلمة "إنّها الرطوبة التي أدت إلى تحجرها ، ولكن الرائحة ماتزال على حالها ." قام بشمها، وبواسطة سكينٍ كسر منها قطعتين صغيرتين من الحجر ، وجهّز كوبين من القهوة ، ثم جلس وعلى وجهه ترتسم أغنية .

لم أستسغ طعم المُحلي الصناعي كثيرا، الأمر الذي غلّف كل رشفة من القهوة بإحساس بالتخمة لم أستطع التخلص منه أدى إلى سحب آبار من اللعاب ودفعها إلى فمي . شربنا في صمت وفجأة قفز كليتوس واقفا ، ثم اندفع خارجا لإفساح المجال لنوبة من القيء ، فتوقفت عند هذا الحدّ عن رشف ما تبقى من قهوة في كوبي .

أبديتُ له أسفي عند عودته ، ولم يتفوه بكلمة، لكنه توجه إلى غرفته لإحضار كوب ماء ، ثم خرج ثانية ليمضمض فمه . بعد عدّة غرغرات سكب ما تبقى من ماء في راحته وغسل وجهه . وعبّرت له عن أسفي مجددا فهزّ رأسه.

عاد فيما بعد إلى حيثُ أجلس وقال : "هل تريد هذه ؟ " وكان يمسك بتلك الأقراص الصغيرة بقرف ، فعجبتُ كيف تغيّرُ نوبة غثيان واحدة من الرجل بهذا الكيفية ، وقلت لـه " كلاّ. لا أريدها ، ولكن احتفظ بها . أنا على ثقة من أننا لن نذهب بعيدا لنجد أصدقاء يحتاجونها ."
إمّا أنه لم يسمعني ، أو أنه لم يعد يطيق صحبة تلك الأشياء لدقيقة أكثر ، لأنه قام برحلته الثالثة وألقى بها في نفس موقع الأعشاب الذي تلقى منه القيء قبل قليل .
يبدو أنه قد عمل على تهيئة نفسه لمستوىً عالٍ من التوقّع لمدى تأثير بدائل السكر اللعينة هذه ، لأن ما حصل لـه يشبه الانهيار العصبي ، فلم يغادر فراشه طوال اليومين التاليين ، ولم يذهب إلى المديرية حيثُ نعمل سوية أو يذهب كعادته كلّ مساءٍ لرؤية صديقته ميرسى .
في اليوم الثالث فقدتُ صبري معه بالفعل ، وقلتُ له بضع كلمات قاسية حول حرب البقاء التي نخوضها ، واستعنتُ بعدّة شعارات اشتهر بها برنامجه الإذاعي . صاح في وجهي " اللعنة على الحرب ؟ اللعنة على البقاء؟" في جميع الأحوال فقد تحسّنت صحته بعد ذلك مباشرة ، ثم رقّ قلبي لحاله قليلاً، وشرعت نيابة عنه في القيام بتحرياتي الخاصة للعثور على السكّر .
أخبرني صديقٌ في المديرية عن شخص يدعى الأب دوهرتى، الذي يعيش على بعد عشرة أميال ، ويعتبر مسؤولا عن مخازن الإغاثة التابعة (لكريتاس) وهو معروف جدّا في المنطقة ، وعارفٌ جدّا بالأمور بصفته قسّا لطائفة الروم الكاثوليك ، وأخبرني صديقي كذلك أنه رغم أنّ الأب دوهرتى رجل جيد في العموم ، إلاّ أنه ينحو أحيانا للتصرف بطريقة عصبية خاصة في المدة الأخيرة بعد إصابته بشظية في رأسه في المطار .
قمت يرافقني كليتوس بالرحلة في يوم السبت التالي ، ووجدنا مزاج الأب دوهرتي في حال لا بأس بها بالنسبة لرجل أمضى ستة ليالٍ في المطار يفرّغ حمولة طائرات الإغاثة تحت قصف جوّي شبه مستمر ، ثمّ يعود إلى البيت في السابعة صباحاً لينام لساعتين فقط . أشاح بيديه جانبا عندما أشدنا بعمله وقال إنه يقوم بذلك بعد كلّ أسبوعٍ وأضاف " بعد هذه الليلة يمكنني التمتع بنومي الجميل لمدة سبعة أيام كاملة ."
كانت غرفة جلوسه تعجّ بروائح السمك ، والحليب ، وصفار البيض المجفف، والروائح المنبعثة من بعض إمدادات الإغاثة الأخرى التي تكاد تجعل التنفس مستحيلا . فرك الأب دوهرتى عينيه وسألنا ماذا بإمكانه أن يفعل من أجلنا ، ولكن قبل أن يقول أحدنا شيئا نهض بتثاقل النائم ، وأمسك بحافظة سوائل كبيرة موضوعة فوق خزانة كتب لا يوجد بها إلاّ صليب صغير واحد ، وسألنا إن كنّا نحبُّ القهوة ، فأجبنا بنعم وفي قناعتنا أنّ هذا هو المكان الحقيقي لكل كنوز (كريتاس) حيثُ الهواءُ نفسه مشبّعٌ بقوّة بروائح الإمدادات ، ولا يمكن أن تكون القهوة إلاّ بالسكر والحليب . اعتقدتُ كذلك أنّ أمورنا تسير على مايرام مع الأب دوهرتى ، وعزوتُ ذلك إلى ما أبديناه من سياسة في الإعجاب به وبشجاعته وإخلاصه في خدمة مواطنينا ، ورغم إنّه لم يلق بالاً لهذا الإطراء إلاّ أنّ الإعجاب (إن لم يكن المديح) هو من الأسلحة التي لا يستطيع حتى القديسون مقاومتها . اختفي داخل غرفة وأتى بثلاثة أكواب بلاستيكية ذاتُ مظهر وضيع ، ثمّ صبّ بها القهوة التي مرر القليل منها فوق إصبعه الصغير لاختبار مدى سخونتها ، واعتذر عن تردى كفاءة حافظته العتيقة .
بكلّ تأدب بدأت أشربُ قهوتي مراقبا كليتوس في نفس الوقت بطرف عيني . أخذ رشفة صغيرة مثلما تفعل الطيور واحتفظ بها في فمه . سألنا الأبُ ثانية وهو يحاول تغطية ثلاثة أرباع عملية تثاؤب بظاهر يده، عما يمكنه القيام به لأجلنا . تحدّثتُ أولا وقلتُ أنّ لديّ مشكلة حمّى القشّ ، وأودّ

الحصول على بعض مضادات الهستامين إن كان لديه شيء منها . قال " طبعا بكل تأكيد لدي ما تنشده بالضبط، لأنّ الأب جوزف يشكو من نفس العلّة ، ولهذا أحتفظ دائما ببعضٍ منها ." اختفى مرة أخرى ، وبإمكاني سماعه وهو يردّد " حمّى القش ، حمّى القش ، حمّى القش ." وكأنه يبحث عن عنوان كتاب في خزانة مليئة بالكتب ، ثمّ . . . " لقد وجدتها ؟ " وظهر علينا على الفور وبيده زجاجة صغيرة، قال وهو يمعن النظر فيها مغمضا إحدى عينيه "هذا مكتوبٌ بالألمانية . هل تجيد الألمانية ؟ "

" كــلاّ "

" ولا أنا . حاول تناول ثلاث منها في اليوم وانظر كيف تسير الأمور معك ."

" شكراً ، يا أبت ."

" الذي يليه ؟ " قال بمرح .

كانت فترة غيابه القصيرة لإحضار الأقراص قد مكّنت كليتوس من نقل كل القهوة من كوبه إلى فمه ثمّ السير بخفة إلى النافذة المنخفضة الواقعة خلفه وأخرج عنقه ثم بصق محتوياته إلى الخارج بسرعة .

" قل لي ما هي رغبتك وتذكّر ، طلبٌ واااااحدٌ فقط ؟ " قال الأب بمرح حقيقي .

قال كليتوس بصوت يكاد يكون كئيبا " أبت ، أريد القليل من السكّر ."

كنت قلقا منذ وصلنا هنا عن الكيفية التي سيقدم بها طلبه ، وما شكل الكلمات التي سيستعملها ، والآن خرجت منه الجملة نقية وبسيطة مثل الحقيقة العارية المنطلقة من أعماق الروح . وقد أعجبت به لهذا الأداء الذي لم أكن لأقوم به . ربّما ساعد الأب دون أن يدري في ذلك ، بكونه مرحا ببساطة أسطورية حقيقية . إن يكن ذلك قد تمّ فعلاً، إلاّ إنه الآن قضى عليها كلّية بالسرعة والقوة التي قد يقوم بها طفل تتملكهُ النزوة بهدم قلعة الرمال السحرية التي بناها لتوه . أمسك بكليتوس من قفا عنقه وهو يصيح" لعين ؟ لعين ؟" ورمى به خارجاً ، ثمّ التفت إليّ ولكنني كنت قد وجدت مخرجا آخر للغرفة . شرع يهذي ويدكّ الأرض بقدميه مثل مجنونٍ ، وصلّى للربّ من أجل أن يتذكر في يوم الحساب هذه الفعلة الشنعاء التي ارتكبت بحق روحه القدس ؟ سكّر ؟ سكّر ؟؟ سكّر؟؟؟ أخذ يصيحُ بصوت أجشّ يتعاظم مع كلّ كلمة . . . سكر .. في الوقت الذي يموت الآلاف من عبيد الربّ الأبرياء يوميا لعدم تمكنهم من الحصول على كوب من الحليب ؟ والآن هيج نفسه إلى الدرجة التي خرج فيها مسرعاً في أثرنا، ولم نملك إلاّ الركض أمامه، بينما لعناته المقدّسة ترنّ في آذاننا .

أمضينا قرابة الساعة عند الطريق الرئيس في انتظار وسيلة ركوب إلى آمافو وكنا تعيسين ومعقودي اللسان . في النهاية سرنا عائدين مسافة الأميال العشرة، لكن الفارق أننا الآن نسير في درجة حرارة لا تطاق ، وفي حالة خوف من الغارات الجوية .

تلك كانت إحدى القصص التي ربما أراد ني كليتوس أن أرويها احتفالاً بإقامة أول حفلة شاي لنا . وكيف لي أن أفعل ؟ لم أستطع رؤية جانب الانتصار في استعادتها بل كنتُ أرى الهزيمة . هناك قصص عديدة أخرى وأكثرها قبحا لم يأت بعد .

لم يمض وقت طويل على مواجهتنا مع الأب دوهرتي إلاّ واخترتُ من قبل الشئون الخارجية (للسفر في مهمة) ، ورغم أنها تصنف كمهمة للناس الفقراء وتستمر لمدة أسبوع واحد فقط ، وأنني لن أذهب أبعد من جزيرة ساو آموس البرتغالية ، لكن السعادة غمرتني على كل حال حيثُ أنّ الخارج هو الخارج ، ولم أغادر حدود بيافرا منذ بدأت الحرب ــ وتلك حقيقة قد حُسبت لتنفي

بالكامل ما قد يخطرُ على عقول الرفاق، بوصفي كرجل لا يتمتع بمكانة رفيعة ، لكن الأهمّ من ذلك فهي تعني أنّ المرء لن يحصل مطلقا على الفرصة للتمتع بنشوة العودة إلى الوطن ، وقد جلب معه العديد من أسباب الراحة والمتعة التي أصبحت علامة على العيش الرّغد، مثل صابون الحمّام ، والمناشف ، وأمواس الحلاقة ، وماشابهها . . . .
قبل يوم واحد من بدأ الرحلة ، زارني أصدقاء مقربون وغير مقربين ، معارفٌ فقط وحتى غرباء بالكامل ، وآخرون شبه أعداء . وذلك ليقدموا مطالبهم . لقد أصبح ذلك الأمر من ضمن الطقوس وأشبه الاحتفال الذي لا يعرف لـه سبب في الماضي ويسكن الآن بعمق في ذاكرة الناس . يسافر محظوظٌ ما في مهمة إلى عالم يكاد يكون خرافياً . يقع بعيداً عن متناول الإنسان حيث تتوفر البضائع ، والحياة مؤمنة ، ويأتي الجميع ليقولوا ما يرغبون أن يحضره لهم معه ، وعلى كل طلب يردُّ المحظوظ " سأحاول ، ولكنك تعرف المشكلة "
" نعم أعرف ، ولكن حاول.. " لا أمل حقيقي ولا تعهد أو التزام بشيء . أحياناً يتم تأكيد طلب معين عندما يأتي أحد أولئك المحظوظين، وعندها تكون الكلمات غير ضرورية ، فلا يتعدى الأمر تزويده بقصاصة ورق ومعها عملة أجنبية . البعض يرغبون في الحصول على الملح ، وهو الأمر غير الممكن بسبب الوزن ، وآخرون يرغبون في الحصول على ملابس داخلية لهم ولفتياتهم ، وملعون آخر طلب أغراضاً وموانع للحمل ، وعندها قلت له أظن هذه من أجل تنظيم المكتب (وليس لتنظيم العائلة) وقد دهش الجمع الذي يزورني ، وهم يرونني داخلاً خارجاً من غرفتي تغمرني السعادة وأنا أحمل في يدي قصاصة لتدوين الملاحظات قائلا "مسموحٌ بطلب واحد فقط ؟ " . في هذه الحالات يأتيك أيضاً الذين يكادون يعادونك ، مثل ذلك الرجل الضخم في الجهة المقابلة من الشارع . قالوا أنه كان يعمل رجل دين في الماضي، أما الآن فقد جُرّد من ثوب الكهنوت ، ولا يعدو أن يكون حماراً مغروراً لجأ في بداية الحرب إلى الأساليب الملتوية والفاسدة لاحتكار وتوزيع المواد النادرة المستوردة من قبل الحكومة، خاصة الملابس النسائية . أتاني كما القدر بينما كنت أستعد للنوم، لم أكن أظن أنه يعرف بوجود أشخاص مثلي ، لكنه أتى يتبختر في مشيته وكأنه أمير على ظهر جواده تتبعه رائحة تبغه، وسألني وهو يمسك في يده بورقة من فئة الخمسة دولارات، إن كنت أستطيع أن أشتري لـه علبتين من المرهم الخاص الذي يستعمل لصبغ الشعر الأشيب ،. إنه نفس الوغد الذي طلب من صديقتي ــ عندما ذهبت إليه لتسجل في قائمة الراغبات في شراء حمالة صدر ــ قضاء عطلة نهاية الأسبوع معه في قرية نائية .
بامتناعي عن تناول الغداء يومياً في ساوتومي ، استطعت مع نهاية الأسبوع أن أقتصد من نقود المهمة الضئيلة ما يكفي من عملة أجنبية لشراء عدة أشياء تخصني ، بما فيها أقراص مضادات ــ الهستامين (لأنني كنت قد تركت الزجاجة التي أعطانيها الأب دوهرتي ، أثناء انسحابنا السريع) أما لكليتوس ــ وقد منحني ذلك شعور طاغ بالسعادة ــ فقد اشتريت شاي ليبتون وكيسين من السكر بوزن نصف رطل لكل كيس ، وتخيل مدى الغضب المرعب الذي أطلقته عندما سُرق مني أحد الكيسين في المطار (عندما غابت عيناي لوهلة عن أمتعتي) . لو أن ذلك الكيس لم يسرق مني فربما لم يكن كليتوس ليتعرض لأقسى هزيمة مهينة يسببها لـه السكر .
جاءت ميرسي لزيارته (وزيارتي) في اليوم الذي قدمت من ساوتومي وجلبت لها قطعة صابون لوكس وأنبوبة صغيرة من مرهم لليدين ، فكانت في حالة نشوة عظيمة .
سأل كليتوس " هل تريدين بعض الشاي ؟ "

ردت بصوت ناعم ، يشبه مواء الهرّة " طبعاً ؟ هل لديك شاي ؟ عظيم ؟ عظيم ؟ لا بد أن أشرب قليلاً ."
كنت أشاهد ما يحدث، لكنني أظن أنها أدخلت يدها في كيس السكر وأخذت قبضة منه ، وكانت على وشك أن تضعها في حقيبة يدها عندما ألقى كليتوس بسخان المياه الذي كان قادماً به ونطّ عليها . شاهدتُ ما حدث بوضوح، وللحظة ظنّت هي أنّ ذلك جزء من مزحة سخيفة ، أما أنا فكنت أعرف أن تصرفه لم يكن مزحة وكنت على وشك أن أكرهه لذلك . أمسك بيدها المحتوية على السكر وبدأ يفتحها عنوة ، وهو يصرُّ على أسنانه .
" توقف عن ذلك يا كليتوس ؟ " قلت له
" توقف ؟ اللعنة " قال " لقد تعبت وسئمت من هؤلاء الفتيات اللواتي، وهنّ يلهفن كل ما يصادفهن ."
" اتركني لحالي " صاحت به ، وطفرت من عينها فجأة دموع الإهانة والغضب ، وبشكل ما تمكنت من جذب يدها منه، ثم تراجعت ورمت بالسكر في وجهه ، وأمسكت بحقيبتها راكضة بعيداً وهي تبكي . سارع هو إلى التقاط مكعبات السكر البالغ عددها حوالي الستة .
" سام ؟ " صاح كليتوس لخادمه " ضع بعض الماء على النار" ثم استدار نحوي " لابد أن تخبرهم ياما يك عن المعارك التي خضتها من أجل السكر "
قلت وأنا أماطل " كانوا يسمونه في المدرسة عاشق السكر "
" يا مايك ، أنت لا تجيد رواية القصص على الإطلاق ، ولا أدري من الذي عينك مديراً للدعاية "
ضحك الآخران ، وأخذت بعض حبات العرق تتجمع على جبينه ، كان يائساً ويتسولني طالبا مني أن أستعمل سوطي ضده .
تحولتُ إلى القسوة وقلت : " لقد فقد صديقته ، نعم ، فرّط في فتاة لطيفة محترمة لأنه لم يشأ التخلي عن ستة مكعبات من السكر ."
" تعرف أن ذلك ليس عدلاً ." واستدار نحوي بحدة " فتاة لطيفة للغاية ؟ لم تكن ميرسى إلا سارقة وضيعة كغيرها من الفتيات . "
" مثلنا جميعاً ، إنّ ما يحيرني فعلاً يا كليتوس ، أنك لم تكتشف ذلك طوال تلك الشهور التي رافقتها فيها وعاشرتها ، بل بعد أن أحضرتُ لك كيس السكر ، عندها فقط تفتحت عيناك على حقيقتها . "
" نعرف أنك أحضرته ياما يك ، لقد أخبرتنا بذلك من قبل ولكن ليست هذه هي النقطة الأهم.. "
" وما هي هذه النقطة ؟ " ثم اكتشفت كم كنت أحمق ، وكم هو سهل أن نسقط ثانيةً في فخ القسوة اللامنطقية السائدة هذه الأيام ، حيث تشعل كلمة تقال بصورة مفاجئة حرباً شعواء بين صديقين محبين للسلام مثلما حدث في ممر إيسون ، ولذلك حولت مسار النقاش إلى دعابة ، كانت بمثابة نبذ للعداوة، لم أتخطاه إلا بمقدار حدّ الشفرةً .
قلت " عندما يكون كليتوس جاهزاً للزواج فلابد أن يختلقوا له قسماً خاصاً للزواج [ها أنذا أتزوجك وأمنحك ما أملك من مقتنيات دنيوية ـ ما عدا السكر ـ وبناء عليه فأنا أعلنك زوجة لي]، وسيتفهم الأب دوهرتي الموضوع إذا ما سمح له بالعودة هنا مجدداً .
ضحك يومورا وصديقه من جديدً .

الــدائنة الناقمة

بقلم : تشنوا أشيبي

" من هنا ، يا سيدتي " صاحت البائعة التي ترتدي شعراً مستعاراً منفوشاً وتجلس إلى إحدى آلات البيع في السوق الكبير فحوّلت السيدة إيمينيكى وجهة عربتها المحمّلة بالبضائع صوب الفتاة .
" سيدتي . لقد كنت في طريقك إلي ." اشتكت الفتاة الجالسة عند الآلة المجاورة التي شعرت بأنها تعرّضت لعملية خداع .
" آه ، آسفة يا عزيزتي ، في المرّة القادمة . "
" مرحبا يا سيدتي ." صاحت الفتاة بصوت رقيق ، وبدأت بالفعل في إفراغ مشتريات السيّدة على منضدتها .
" هل سيكون الدفع نقداً ، أم عن طريق صكّ يا سيّدتي ؟ "
" نقـداً "
ضربت الأسعار على آلتها بسرعة البرق ، وأعلنت الحُكم . تسعة جنيهات وخمسة عشر شلنا وستة بنساتٍ . فتحت السيدة إيمينيكى حقيبة يدها وأخرجت منها محفظة فتحت سحّابها ، ثمّ أخرجت ورقتين نظيفتين وجديدتين من فئة الخمسة جنيهات . ضربت الفتاة من جديد على آلتها فأطلقت الآلة درج النقود . وضعت فيها الفتاة نقود السيدة وأعادت لها الباقي مع قائمة مشتريات بطول قدم . حملقت السيدة إيمينيكى في ذيل قصاصة الورق الطويلة حيثُ سجّلت الآلة المهذّبة إجمالي مشترياتها مع الكلمات نشكركم عودوا ثانية ، وهزّت برأسها .
عند هذه النقطة بدأت أولى المشاكل . لم يكن يبدو أن هناك أحدا ليعبّئ ما اشترته السيدة في الصندوق ويحملها إلى السيارة في الخارج .
قالت البائعة وكأنها في أزمة " أين هؤلاء الأولاد ؟ آسفة يا سيّدتي ، فقد هجرنا العديد من حمّالينا بسبب هذا التعليم المجّاني . . . يا جون ؟ " صرخت بعد رؤيتها لأحد القلائل الباقين "تعال وعبّئ أغراض السيّدة ؟ "
كان جون فتىً أعرج في الأربعين من عمره ، يسيل منه العرق بغزارة حتى داخل مبنى السوق المكيّف . أخذ يبدى تذمّره بصوتٍ عالٍ أثناء وضعه للأغراض في الصندوق الفارغ .
" لابدّ أن أقول للمدير أن يعثر على المزيد من الناس للمساعدة في أداء هذا العمل المزعج."
سألته الفتاة ذات الشعر المستعار بمرح " ألم تسمع بأنّ الجميع قد غادروا ليلتحقوا بالمدارس المجّانية ؟ "
" ربما ، ولكن لن أجهد نفسي حتّى الموت من أجل التعليم المجّاني ."
في موقع السيارات قام بوضع الأغراض في صندوق أمتعة سيارة السيدة إيمينيكى المرسيدس الخضراء ، ثمّ اعتدل في وقفته منتظرا بينما هي تفتح حقيبة يدها، ثمّ محفظتها لتقوم بعدها بتفتيش عديد القطع المعدنية بإصبعٍ واحدٍ إلى أن عثرت على إحداها بقيمة ثلاثة بنساتٍ ، فأخرجتها بإصبعين وألقت بها في راحةً الحمّال . تردّد لوهلة ثمّ ذهب يعرجُ بعيدا دون أن يقول شيـئا .
لم تعجب السيدة إيمينيكى يوماً بهؤلاء الكبار الّذين يؤدون مهام الأولاد ، لأنهم لا يرضون مهما أعطيتهم . انظر إلى هذا الأعرج المتذمّر ، كم كان يتوقّع أن يأخذ لقاء حمل هذا الصندوق الصغير لبضع ياردات ؟ هذا ما جلبه التعليم المجّـاني . لقد كان تأثيره أسوأ على البيـوت حيثُ فقدت

السيدة إيمينيكى منذ بدأ العام الدراسي ثلاثةً من خدمها ، بما فيهم مربية طفلتها . طبعا كانت مشكلة ففقدُ المربية هو الأسوأ . كيف ستتصرّفُ سيّدة عاملة مثلها حيال طفلة عمرها سبعة أشهر ؟
على كلّ لم تستمرّ هذه المشكلة طويلاً . فبعد مرور فصل واحدٍ من التعليم المجّاني ، سحبت الحكومة مشروعها خوفا من الإفلاس . يبدو أنّ وزارة التربية بناءً على نصائح مستشاريها قد خطّطت مبدئيّا لاستيعاب ثمانمائة ألف طفل، لكنّها فوجئت بالتحاق مليون ونصف في أوّل يومٍ من العام الدراسي. من أين أتى الباقون؟ هل ضلّل الخبراء الحكومة ؟ قال رئيس دائرة الإحصاء في مقابلة إذاعية ، فمن الحماقة الحديث عن أخطاءٍ ارتكبتها دائرته . المشكلة تكمن ببساطة أنّ أطفالاً من الدول المجاورة قد دخلوا البلاد بالآلاف وسُجّلت أسماؤهم بطريقة غير مشروعة من قبل أشخاص عديمي الضمير، وهي قضيّة تخريب واضحة .
مهما كان السبب فقد ألغت الحكومة المشروع وكتبت صحيفة العصر الجديد افتتاحية تثنى فيها على رئيس الوزراء لشجاعته وحسن إدارته للأمور ، لكنّها بيّنت في نفس الوقت أنّه كان بالإمكان تلافي هذا الموضوع المزعج لو أنّ الحكومة أنصتت من البداية للتحذيرات التي أطلقها العديد من المواطنين المسؤولين العارفين ببواطن الأمور . كان ذلك حقيقة ، لأنّ هؤلاء المواطنين قد كتبوا على صفحات العصر الجديد وعبّروا عن شكّهم وتحفظاتهم حيال التعليم المجّانيّ . وقد بيّنت الصحيفة عندما أفسحت المجال لإبداء الآراء حول هذه القضية أنها تقوم بذلك من أجل المصلحة الوطنية ، واستكمالا لركوب الموجة تحدت منتقديها الّذين لا يرون أية فائدة تعود على الوطن من صحيفة مملوكة لرأس مال أجنبي ، تحدّتهم أن يتقدموا ويُظهروا وطنية وإخلاصاً للوطن مساويا لما أبدته أو أعلى . لم يتقدّم أيّ من منتقديها للردّ على هذا التحدي، لكنّ هذه المساحة التي قدّمتها الصحيفة قد اُستغلّت بكلّ حماس طوال عشرة أيّام ، وبمعدّل مقالتين وحتى ثلاثُ مقالاتٍ في اليوم بواسطة عدد كبير من المواطنين المسؤولين ـــ محامون ، أطبّاء ، تجّارٌ ، مهندسون ، بائعون ، مسوّقو التأمينات ومحاضرون في الجامعة . إلخ . ـــ حيثُ كتبوا ينتقدون المشروع . قالوا بأنه لا يوجد من يعارض تعليم الأولاد ، لكنّ الوقت مازال مبكرا على التعليم المجّاني . قال أحدهم ، حتى الولايات المتحدة بكلّ قوّتها وثروتها لم تتبن مثل هذا المشروع بعد، فما بالك بـ . . .
قرأ السيد إيمينيكى هذه المقالات بفرح طفولي ، وقال لزوجته ثلاثُ مرّاتٍ على الأقلّ خلال عشرة الأيام هذه " كنت أتمنى لو أنّ موظفي الحكومة يتمتعون بالحرية ليكتبوا للصحف ." وأضاف " ما قيل ليس سيّئاً ، لكن كان على المحرّر أن يوضّح أنّ هذه البلاد قد سارت خطوات عملاقة في مجال التعليم منذ الاستقلال لأنّ الآباء يعرفون قيمة العلم ، ويضحّون بأي شيء ليحصلوا على رسوم الدراسة لأبنائهم . لسنا دولة مكونة من الكثيرين من أمثال (أوليفر تويست) "
لم تكن زوجته مهتمّة في هذه المرحلة بمناقشة الموضوع لأنها لم تتفطّن لأهميته، لكن كان لديها بعض الشكوك الخاصة المبهمة حول التعليم المجّاني . هذا كلُّ مافي الأمر .
قال الزوج في مناسبة أخرى " هل قرأت الصحيفة ؟ لقد كتب مايك مجدّدا حول الموضوع."
" من هو مايك ؟ "
" مايك أوغودو . "
" أووه ، وماذا قـال ؟ "
" لم أقرأ مقالته بعد . . . لكن ثقي أنّ مايك سيسمى الأعور باسمه . انظري كيف يبدأ : [إنّ التعليم المجّاني هو معادلٌ للشيوعية الواضحة] طبعا هذا ليس صحيحا تماماً لكن هذه هو أسلوب مايك . فهو يعتقد أن أحدهم سيؤمم مجموعة السفن التي يملكها . إنّ الشيوعية ترعبه . "

" ولكن من يرغب في تطبيق الشيوعية هنا ؟ "
" لا أحد . وهذا ما قلته له الليلة الماضية في النادي، لكنّه مرتعبٌ جدّا . هل تعرفين شيئاً ؟ من أسوأ الأمور أن يكون لديك مالٌ كثيرٌ . "
استمرت المناقشات في عائلة إيمينيكى في هذا المستوى الثقافي إلى أن جاءهم يوما (خادمهم الصغير) وهو صبي ذكي في الثانية عشرة من عمره ، يساعد كلّ من الطبّاخ والنّادل، وأعلن لهم ضرورة ذهابه لرؤية أباه المريض .
" وكيف عرفت أنّ أباك مريضٌ ؟ " سألت السيّدة
" جاءني أخي وأخبرني بذلك . "
" متى جاء أخوك ؟ "
" بالأمس عند المساء . "
" ولماذا لم تُحضره لرؤيتي ؟ "
" لم أكن أعرف أنّ السيدة ترغب في رؤيته . "
" ولماذا لم تخبرنا بالأمس ؟ " سأل السيّد إيمينيكى ، رافعا عينيه عن الصحيفة التي يقرؤها.
" فكّرتُ في البداية أنني لن أذهب ، لكنّ عقلي قال لي اليوم أن أذهب لأراه ، ربما كان مرضه شديدا ، وعليه . . . "
" حسناً . يمكنك الذهاب ، ولكن تأكد من عودتك عشيّة الغد ، وإلاّ . . . "
" سأعمل على العودة في الصباح ، يا سيدي . "
لم يعـد ، وقد غضبت السيّدة إيمينيكى بسبب الأكاذيب . لم تكن تحبُّ أن يستعمل معها الخدمُ الحيلة والدهاء . انظر إلى هذا الفار الصغير الذي يتخيل نفسه ذكيّا . كان عليها أن تشكّ في الأمر بسبب الطريقة التي كان يتصرّفُ بها أخيراً ، لقد غادرهم الآن بعد أن قبض مرتّب شهرٍ كامل لم يكن يستحقّه . وما ذلك إلاّ دليلٌ واضحٌ على أنّ الإحسان لهؤلاء الناس لن يؤدي إلى أية نتيجة .
بعد أسبوع تقدّم البستاني بطلب إعفائه من العمل . لم يحاول أن يخفي شيئا فقد بعث له أخوه برسالة يطلب إلي العودة إلى القرية وتسجيل نفسه في التعليم المجّاني، وقد حاول السيد إيمينيكى بسخرية أن يبيّن له الجانب المضحك من جهل أهل قريته.
" التعليم المجّاني للأطفال فقط . لن يقوم أحدٌ بقبول رجل بالغ مثلك . كم عمـرك ؟ "
" خمس عشرة سنة ، يا سيدي . "
" أنت في الثالـثة فقط " صاحت السيدة ساخرة " تعال ، لأرضعك من ثديي؟"
قال له السيدُ " لست في الخامسة عشر ، فعمرك عشرون عاما على الأقلّ ، ولن يقوم أيّ ناظرٍ بقبولك في أية مدرسة ابتدائية ، وإن كنت ترغب في الذهاب والمحاولة ، فافعل ولكن لا تعد إلينا في حال فشلك . "
" لن أفشل ، يا سيدي ، التقى أبي بأحد الكهول من قريتنا، وقال لـه إنّ تسجيلي سيتمّ وينتهي كل شيء ، وما عليه إلاّ أن يذهب إلى المحكمة ويدفع لهم خمسة شلناتٍ ، وسيقسمون إني صغير السنّ، ليس بإمكاني حتى قتل فأر ، يا سيـدي ؟ "
" الأمر متروك لك ، لقد كانت فترة عملك معنا جيّدة ، ولكن . . . "
" مارك . لماذا هذا الحديث المطوّل ؟ اتركه يذهب ما دامت تلك رغبته."
" سيدتي ، لا تقولي إني أرغب في مغـادرتكم بهذه الطريقة ، ولكن أخي الأكبر . . . "
" لقد سمعنا القصة ، وبإمكانك الذهاب . "

" ولكني لا أرغب في الذهاب اليوم ، سأعطيكم مهلة أسبوع وسأقوم بالبحث عن بستاني آخر لسيدتي ."
" لا تشغل نفسك بالمهلة أو بالبستاني . اذهب فقط . "
" هل أحصل على مرتبي الآن ، أم أذهب لأعود إليكم بعد الظهر ؟ "
" أيّ مرتّب ؟ "
" مرتبي عن عشرة الأيام التي عملت فيها هذا الشهر . "
" لا تزعجني أكثر من ذلك . أذهب من هنا . "
لكنّ السيدة إيمينيكى لم تر الإزعاج الحقيقي بعد ، فقد أتتها أبيجيل مربية الطفل بعد يومين عندما كانت تجهّز نفسها للذهاب إلى العمل ، ووضعت الطفل في حجرها ثمّ هربت . أبيجيل ، من دون كلّ الناس ؟ بعد كل الذي فعلته من أجلها ، أبيجيل التي كانت مليئة بالقمل عندما جاءتها وكانت تستخدم الخرق القديمة عوضاً عن الفوط الصحّية ، وهي من الجهل بحيث أعطت الطفل زجاجة مملوءة من المياه لإسكاته عن البكاء وسكبت بعضها في أنفه . لكنّ أبيجيل الآن سيدة محترمة باستطاعتها الحياكة ، وصنع الخبز وترتدي حمّالة صدرٍ ، وملابس داخلية نظيفة، تضع العطور والبودرة ، وتعمل على إزالة التجاعيد من شعرها ، وهي جاهزة للرحيل .
منذ ذلك اليوم كرهت السيدة إيمينيكى جملة (التعليم المجّاني) الّتي أصبحت وبصورة مفاجئة جزءاً من اللغة اليومية خاصة في القرى حيث يحرّفون اسمها . كانت تغضب عندما يقوم البعض بالتندر حول الموضوع ، ويطلقون الدعابات ، وعندها تتملكها رغبة قويّة في ضربهم على رؤوسهم بسبب انعدام المشاعر لديهم وقلّة ذوقهم . وكرهت الأميركيين والسفارات (ولكن الأميركيين خاصة) الّذين أنفقوا أموالهم في المنطقة وأغووا ما تبقى من خدمٍ لدى الأفارقة . بدأ ذلك عندما علمت أنّ بستانيّها لم يتوجّه إلى المدرسة على الإطلاق ولكن إلى رجل يعمل في مؤسسة فورد ، الذي عرض عليه راتبا قدره سبعة جنيهاتٍ ، وشراء درّاجة هوائية له، وآلة حياكة من نوع سنجر لزوجته .
" لماذا يفعلون ذلك ؟ " سألت دون حاجة أو رغبة في تلقي إجابة ، لكن زوجها قدّم لها إجابة في كل الأحوال .
" لأنهم لا مقدرة لهم في أمريكا على الاحتفاظ بالخدم ، ولهذا يركبهم الجنون عندما يأتون هنا ويجدونهم زهيدي الأجر . هذا هو السبب "
بعد ثلاثة أشهرٍ انتهى مشروع التعليم المجّاني ، وأعيد العمل بالرسوم المدرسية حيثُ تمّ إقناع الحكومة أنّ مشروع (اشتراكيتها الرعناء) كما أسمتها صحيفة العصر الجديد غير قابل للتطبيق في الظروف الأفريقية ، تمّ الاستهزاء بوزير التعليم الذي عرف بميوله اليسارية ، وكان في حالة حرب تقريباً مع وزير الخزانة المرعب .قال وزير الخزانة في اجتماع مجلس الوزراء " لا يمكننا الاستمرار في هذا المشروع ، مالم نفرض ضرائب جديدة ."
" حسناً ، فلنفرض ضرائب جديدة " قال وزير التعليم ، مما أدى إلى صدور ضحكا ت ساخرة من كافة زملائه ، وحتى من وكلاء الوزراء الحاضرين أمثال السيد إيمينيكى الذي يقضي التقليد الصارم عدم اشتراكهم في النقاش ، أو في الضحك .
قال وزير الخزانة بتساهل والضحكة لا تزال في فمه " لا نستطيع . أعرفُ أنّ صديقي الوزير الموقّر لا يهتمّ إن كانت هذه الحكومة ستُكملُ فترتها في الحكم أم لا، لكنّ البعضُ منا يهمه ذلك .

على الأقل بالنسبة لي أرغبُ في البقاء هنا مدة كافية لكي أستردّ ماصرفته من ديون أثناء الانتخابات ."
استقبل هذا التصريح بضحك عالٍ ، وصيحات مثل " السّمع ؟ السّمع ؟ " فمن المعروف أثناء النقاش أنّ التعليم لا يصمد أمام الخزانة . في الحقيقة لايوجد مثيل للخزانة بين كلّ الوزارات ولا حتى منصب رئيس الوزراء ذاته ؟
" دعنا لا نقترف أية أخطاء هنا " واستمر في كلامه بنبرة ووجه جادّين " لو أنّ أحدا ما من الغباء ، بحيث يفرض ضرائب جديدة على جماهيرنا التي عانت طويلا . . . "
" ظننتُ أنه لا توجد لدينا جماهيرٌ في أفريقيا " قاطعه وزير التعليم ، بادئا ضحكة بسيطة تمّ استيعابها بروح رياضية من قبل واحد أو اثنين من الحضور." آسف للتدخل في دائرة اختصاص صديقي الوزير الموقّر، فالشعارات الشيوعية معدية للغاية ولكن كما كنت أقول ، لا يجب الاستهانة بمسألة فرض ضرائب جديدة إلاّ إذا كنّا مستعدين لاستخدام الجيش في قمع المظاهرات المناهضة لفرض الضرائب . إنّ إحدى حقائق الحياة البسيطة التي تعلمناها بألم ومرارة ــ ولستُ متأكدا تماما حتى هذه اللحظة أنّ جميعنا قد تعلّمها ــ تقول : إنّ الناس يمكن أن يتظاهروا ضدّ الضرائب ، ولكن ليس ضدّ رسوم الدراسة ، والسبب بسيطٌ جدّا ، فحتّى منادي موقف السيارات يعرف الغرض من رسوم الدراسة، وبإمكانه رؤية طفله يذهب للمدرسة في الصباح ويعود منها بعد الظهر . ولكن إذا أخبرته عن الضرائب العامة فسيعتقد فورا أنّ الحكومة تسرق منه نقوده . هناك شيء آخر فإذا لم يرغب الشخص في دفع الرسوم المدرسية فله ألاّ يفعل ، فنحن بعد كل حساب في مجتمع ديموقراطي . أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أنّ ابنه سيبقى في البيت ولن يذهب إلى المدرسة وفي الغالب لن يمانع في ذلك ، لكن الضرائب شيءٌ مختلفٌ ؛ الجميع ملزمون بدفعها سواءٌ أرادوا أم لا . الفرق واضح جدّاً ولهذا يتظاهر سواد النّاس ." قال بعضهم " السمع ؟ السمع ؟ " فيما اكتفى آخرون بإطلاق تنهدات تدلّ على الارتياح ، أو الموافقة . كان السيد إيمينيكى الذي يحمل إعجابا طاغيا لوزير الخزانة يهزّ رأسه كما سحلية طوال فترة حديث الوزير ثم ألقى بصيحات " السمع ؟ السمع ؟ " بصوت مدوّي ممّا تسبّب في تلقيه نظرة توبيخ من رئيس الوزراء . تبع ذلك بعض الكلمات المتقطّعة ، ثمّ اتخذت الحكومة قرارها بعدم إلغاء التعليم المجاني، ولكن بتأجيله إلى أن تتمكّن من دراسة كل العوامل ذات الصلة بالموضوع باستفاضة .
كان قلبُ الفتاة الصغيرة المسماة فيرونيكا ذات العشر ة أعوام قد تحطّم لأنها بدأت تحبُّ المدرسة، وهي التي أصبحت بمثابة مخرج من أداء أعمال البيت الشاقة والقذرة . أمّا أمها التي تكاد تكون معوزة وتقضي أغلب ساعات يومها في الحقل وفي السوق خلال الأيام التي يقام فيها، فقد تركت لفيرونيكا مهمة العناية بأطفالها الصغار . في الحقيقة كانت أصغرهم ذات العام الواحد هي من تحتاج الرعاية الأكثر . أمّا الآخران وأعمارهما سبعٌ ، وأربعٌ ، فهما كبيران بما يكفى لرعاية نفسيهما ، يجمعان نوى النخيل ويصطادان الجنادب ليأكلانها ، وبالتالي لم يسببا أية مشكلة لفيرو . لكنّ مارى مختلفة وكانت تبكي كثيراً حتى بعد إطعامها وجبة الضحى من الفو ـ فو ، وما يحتفظُ به لها من حساء الإفطار (بعد إضافة قليل من الماء إليه) ، وهو نفسه متبقٍ من عشاء البارحة . لم يكن باستطاعة مارى تناول التمر بنفسها ، ولهذا كانت فيرو تمضغه قليلا قبل أن تعطيه لها ، لكن حتى بعد تناول الطعام ، والبلح ، والجنادب ، وشرب الماء فنادرا ماتشبع مارى حتى وبطنها مشدودة كالطبل،لامعة كالمرآة .

أمهم الأرملة مارتا امرأةً تعمل بكدٍّ ، كانت بدايتها منذ أمد بعيد تبشّر بالنجاح كطالبة رائدة في مدرسة سانتا مونيكا التي تأسست حديثا من قبل النساء البيض اللواتي يعملن في مجال التبشير، بهدف إعداد زوجات المستقبل لرجال الدين المحليين . تزوج معظم رفيقاتها في الدراسة من معلمين شباب وهن الآن زوجات لقسّيسين ، بل إنّ واحدة منهنّ أو اثنتين هنّ الآن زوجاتٌ لمطارنة . لكن مارثا وبناءً على تشجيع من مدرّستها الآنسة روبنسون تزوجت من نجّار شاب تمّ تدريبه علي يد الإرسالية التبشيرية في مقر الإرسالية الصناعية في أونيتشا ، وهي مدرسة لتعليم الحرف المختلفة أنشئت على المبدأ القائل أنه إذا أريد الخلاص للرجل الأسود ، فيجب أن يتعلّم الكتاب المقدّس إلى جانب إتقانه لحرفة ما . (كانت الآنسة روبنسون مهتمة جدّا بأمر الإرسالية الصناعية وقد تزوجت من مديرها في وقت لاحق) ، لكن بالرغم من الآمال الكبيرة السائدة في تلك الأيام، فإنّ مهنة النجارة لم تكن تدرّ عائدا مثل المهن الأخرى كالوظائف الإدارية والتدريس . عليه وعندما توفي زوج مارتا (أو كما يقول أولئك الحرفيون التبشيريون الذين درّبوه منذ وقت طويل ـ عندما استُدعي لتقديم خدماته في قصور الجنّة لدي الرفيق الأعلى، الذي كان نفسه نجّاراً على الأرض) تركها في حالة سيئة جدّا ، وقد كان زواجا سيّئا من الأساس . كبداية اضطُرّت أن تنتظر قدوم طفلها الأوّل لمدّة عشرين سنة ، ولهذا فهي الآن عجوز تقريبا ولديها أطفال صغار يحتاجون لرعايتها ، ولم يعد لديها القوّة الكافية للقيام بهذه المهمّة . لا يعني أنها ممتعضة بسبب ذلك ، فهي بكلّ بساطة ممتنّة للرب الذي خلصها من لعنة العقم ولهذا لا حاجة بها للتذمّر . إنّ ما كانت أن تتذمر حياله هو الداء الذي أصاب زوجها وجعل ذراعه اليمنى مشلولة طوال خمس سنوات قبل موته . لقد كان ذلك اختبارا قويّا وغير عادلٍ .
بمجرّد أن تركت ابنتها فيرو الدراسة ، قام بزيارتها السيّد مارك إيمينيكى المنحدر من قريتهم والموظف البارز في الحكومة الذي يعيش الآن في العاصمة . توقفت سيارته المرسيدس 220 أس إلى جانب الطريق الرئيسة، ثمّ سار حوالي 500 ياردة في ممر ترابي لا يصلح لمسير السيارات متجها إلى كوخ الأرملة . صُعقت مارتا لزيارتها من قبل شخص مهيبٍ مثله وانطلقت بسرعة تفتش عن ثمرة كولا لتقدمها لـه ، وتتساءل في نفسها عن سبب هذه الزيارة . مباشرة ونظرا لإيقاع الحياة المتعجّل لأناس هذه الأيام ، قام الرجل المهيب نفسه بحل اللغز لها .
" كنّا نبحثُ عن فتاة لتهتمّ بطفلنا الجديد ، واليوم قال لي أحدهم أن أسأل عن ابنتك . . . "
ترددت مارتا في البداية ، لكن عندما عرض الرجل المهيب مبلغ خمسة جنيهاتٍ عن خدماتها في السنة الأولى ـ بالإضافة إلى الطعام والملابس ، وأشياء أخرى ـ بدأت تلين .
قالت " النقود لا تهمني بالطبع ، لكنّ ما أهتمّ له هو رعاية ابنتي . "
" لا تقلقي بخصوص ذلك ، يا أمي ، وسنعاملها كما لو كانت أحد أطفالنا، فزوجتي موظفة في مجال الرعاية الاجتماعية وتعرف كيفية العناية بالأولاد . وأستطيع الجزم بأنّ ابنتك ستكون سعيدة في بيتنا . كلما هو مطلوب منها أن تحمل الطفل الصغير وتقدم لـه حليبه عندما تكون زوجتي في العمل ، وأطفالي الكبار في المدرسة ."
" كانت كل من فيرو وأختها جو في المدرسة خلال الفصل الماضي ." ولم تدر مارثا لماذا قالت ذلك .
" نعم . أعرف ذلك وهذا الأمر الذي أقرّته الحكومة سيئ ، بل سيئ للغاية ، لكنني أومن أن الطفل الذي سيكون مهمّا في المستقبل ، لابدّ أن يصبح هذا الشخص المهمّ ، سواء تعلّم في المدرسة أم لا فكلّ شيء مكتوبٌ هنا في راحة اليد ."

ثبتت مارتا نظرها على الأرض وقالت دون أن ترفع عينيها : " عندما تزوجتُ قلتُ لنفسي : إنّ بناتي سيكنّ أفضل مني . لقد درستُ حتى الصف الثالث في تلك الأيام ، وقلت إنهن سيلتحقن جميعا بالجامعة ، لكن الآن لن يحصلن حتى على ما حصلتُ عليه أنا منذ ثلاثين سنة . يكاد قلبي ينفطر عندما أفكر في هذا الموضوع ."
" يا أمي . لا تقلقي كثيرا بهذا الخصوص، وكما قلت في السابق فإنّ كل ما سيحصل لنا مكتوبٌ هنا ، مهما كانت الصعاب ."
" نعم . أصلي للربّ أن يكون ما قدّر لهؤلاء الأطفال أفضل مما قدّره لي ولزوجي ."
" آمين ؟ . . . وبالنسبة لهذه الفتاة ، لو كانت مطيعة وحسنة التعامل في بيتي فما الذي سيمنعنا أنا وزوجتي من إرسالها إلى المدرسة عندما يكبر أبننا بما فيه الكفاية ليعتمد على نفسه؟ لا شيء ، وهي لاتزال فتاة صغيرة . كم عمرها ؟ "
" عشرة أعوام ."
" كما ترين فهي لا تزال طفلة ولديها متسع من الوقت لتلتحق بالمدرسة ."
كان يعرف أنّ الحديث عن إرسالها للمدرسة هو نوع من المجاملة ، وكانت مارثا تعرف ذلك أيضا . لكنّ فيرو التي كانت تسمع كل شيء من زاوية مظلمة في الغرفة المجاورة لم تعرف ذلك . في الحقيقة كانت قد حسبت في ذهنها الوقت اللازم لنموّ الطفل وأتت بنتيجة لن يطول انتظارها كثيرا . لذلك ذهبت سعيدة لتعيش في العاصمة، ولتعمل مع عائلة الرجل المهيب، والعناية بالطفل الذي سيكبر سريعا ليعتمد على نفسه ، ومن ثم تحصل على فرصتها في الالتحاق بالمدرسة .
كانت فيرو فتاةً بارعة ، وذكية ، وكان كل من السيد إيمينيكى وزوجته مسروران منها . لديها حسٌّ فتاة في ضعف عمرها ، وتتعلم بسرعة .
عادت السيدة إيمينيكى التي كادت أن تتحول إلى امرأة نكدة المزاج بسبب الصعوبات التي واجهتها أخيرا في عدم العثور على خدم جيّدين إلى طبيعتها السابقة من جديد . تستطيع الآن أن تضحك من إخفاق سياسة التعليم المجاني . أخبرت صديقاتها أنها تستطيع الآن أن تذهب إلى أي مكان دون أن تقلق على فتاها الصغير ، وكانت سعيدة للغاية بأداء فيرو ، وتصرفاتها حتى أنها أطلقت عليها لقب " السيدة الصغيرة " ، وانتهت أخيرا الكوابيس الّتي تلت رحيل أبيجيل . كانت قد بحثت في كل مكان عن مربية للطفل ولم تُوفّق . تقدمت لها إحدى السيدات وطلبت سبعة جنيهات في الشهر كأجر لها . لكن الأمر لم يتعلق بالنقود فقط ــ بل كان الجوّ المحيط بها هو الذي لم تحبه فيها ـــ فتاة من سوق العمل تعرف كافة الحقوق في قانون العمل ، والتي يمكن أن تشمل الحقّ في إجراء عمليات الإجهاض في مكان إقامة الخدم ، وحتى محاولة إغواء الزوج. لا يعني ذلك أنّ مارك من هذا النوع ، لكنّ تلك الفتاة لم تكن مناسبة . بعدها لم يأت أحدٌ حتى الآن .
في كلّ صباح عندما يذهب أولاد إيمينيكى الكبار ــ ثلاثُ بناتٍ وصبي ــ إلى المدرسة في سيارة أبيهم المرسيدس أو سيارة أمهم الفيات المزعجة ، كانت فيرو تأتي بالطفل إلى الدرّج خارج البيت ليقول لهم وداعا . أحبّت فيرو ملابسهم وأحذيتهم الجميلة ــ لم ترتد حذاء في حياتها ــ لكنّ أكثر ما حسدتهم عليه هو ذهابهم بعيدا كلّ صباح . الذهاب بعيدا عن البيت وعن الأشياء والمهام المعتادة .
في الأشهر الأولى كانت حالة الحسد هذه بسيطة جدّا لا تكاد تظهر، لأنها تسكن تحت حالة السعادة الناتجة عن مغادرتها القرية ، وكوخ أمها الكئيب ، وعن التوقف عن تناول نوى التمر الذي يجعل الأمعاء تنقبض في منتصف النهار ، وعن تناول حساء الأعشاب ــ المرّة دون سمك . لقد كان هذا الرحيل شيئا عظيما، لكن مع مرور الوقت نما جوعها لهذه الطلعات اليومية ، وإلى تلك الملابس

والأحذية الراقية ، والبسكويت وتلك الشطائر الملفوفة في ورق فاخر وموضوعة في حقائب مدرسية جميلة . ذات صباح عندما انطلقت سيارة الفيات بعيدا وشرع جودى الصغير في البكاء على ظهر فيرو ، قفزت إلى ذهنها أغنية لتسكته بها :

أيتها السيارة الصغيرة المزعجة
إن كنت حقا ذاهبة للمدرسة
أرجو أن تأخذيني معك
بيي ـــ بيي ـــ بيي ؟ ـ بوب ـــ بوب ـــ بوب ؟

طوال الصباح كانت تردد أغنيتها تلك مسرورة بها ، وعندما أوصل السيد إيمينيكى أولاده الآخرين في الساعة الواحدة وذهب إلى العمل مرة أخرى ، قامت فيرو بتعليمهم أغنيتها الجديدة. أعجب الجميع بها وحلّت بدلا من أغان يتعلمونها في المدرسة كانت مشهورة في ذلك الوقت مثل " با با النعجة السوداء " و " سيمون الوديع "

" هذه الفتاة عبقرية " قال السيد إيمينيكى بعد أن وصلته الأغنية أخيرا ، أمّا زوجته التي سمعتها قبله فكادت تموت من الضحك . نادت على فيرو وقالت لها " إذن فأنت تتندّرين على سيارتي ، أيتها الفتاة الشقية " وكانت فيرو سعيدة لأنها لم تر نظرة غضب ولكنها رأت ضحكا في عيون السيدة .

قال الزوج " إنها عبقرية رغم أنها لم تلتحق بالمدرسة ."

" بالإضافة إلى ذلك، فهي تعرف أنّ عليك أن تشتري لي سيارة جديدة . "

" لا عليكِ ، يا عـزيزتـي ، سنة أخرى وستحـصلين على تلك السيـارة الرياضية ."

" لا أظـنُّ ذلك "

" إذن أنت لا تصدقينني . انتظري وسترين ."

مرت أسابيع وأشهر ، وبدأ الصغير يتعلم نطق بعض الكلمات ، ولم يتحدث أحدٌ عن ذهابها للمدرسة بعد ، فرأت أن ذلك ذنْبُ جودي لأنه لم يكبر بسرعة كافية وأصبح مغرما كثيرا بامتطاء ظهرها، رغم أن باستطاعته السير على الأرض بثبات . في الحقيقة فإنّ أفضل كلمة عنده هي " احمليني " وقد ألّفت فيرو أغنية حول هذا الموضوع أيضا ، تعبّر عن صبرها الذي بدأ ينفذ :

أحملك ؟ أحملك ؟
دائـــما أحملـــــــك ؟
إن لم تستمر في النموّ
سأتركك وأذهب إلى المدرسة
لأنّ فـيرو متعبة جـدّا
متعبة، متعبة ، ومتعبة للغاية ؟

كانت تغنيها طوال الصباح حتى عودة الأطفال الآخرين من المدرسة وعندها تتوقف . كانت ترددها فقط عندما تكون وحيدة مع جودي . ذات عشية عادت السيدة إيمينيكى ولاحظت وجود احمرار على شفتي فيرو .

قالت لها وهي تظنُّ أنها استعملت أدوات زينتها " تعالي هنا ، ما هذا ؟ " وتبين لها أنه لم يكن أحمر شفاهٍ على الإطلاق ، بل كان الحبر الأحمر الخاص بزوجها ، ولم تملك إلاّ أن تبتسم.

" انظر إلى أظافرها ؟ وأقدامها أيضا ؟ إذن أيتها السيدة الصغيرة ، هذا ما تفعلينه عندما نخرج ونتركك لترعي الطفل ؟ ترمينه في مكان ما وتأخذين في تزويق نفسك. لا تدعينني أراك تقومين

بهذا الشيء مرّة أخرى ؛ هل تسمعينني ؟ " وقد خطر لها أن تشدد من تحذيرها ، على الأقل لتلغي تأثير الابتسامة التي أطلقتها مبكراً .
" هل تعرفين أنّ الحبر الأحمر سامّ ؟ تريدين قتل نفسك . حسن ، أيتها السيدة الصغيرة . ستضطرين للانتظار إلى أن تغادري بيتي والعودة إلى أمك . "
فكرت في قرارة نفسها بأنّ هذا سينهي كلّ شيء ، وقد انتابها شعورٌ مبهج بالارتياح حيث بإمكانها أن ترى أنّ الفتاة كانت خائفة بما فيه الكفاية ، فخلال ما تبقى من تلك العشية كانت تمشى كما شبح . عندما عاد السيد أخبرته القصة أثناء تناوله للغداء ، ونادى على فيرو ليرى بنفسه .
قالت السيدة " أيتها السيدة الصغيرة ؟ أريه أظافرك وأصابع قدميك ."
" بإمكاني أن أرى كل شيء " ثم أشار لفيرو بالابتعاد " إنها تتعلم بسرعة ، هل تعرفين المثل القائل ؛ عندما تمضغ البقرة الأم الأعشاب الطويلة ، تأخذ العجول الصغيرة في مراقبة فمها ؟ "
" من تعني بالبقرة ؟ أيها الخرتيت ؟ "
" لا يعدو أن يكون مثلاً يا عزيزتي ."
بعد حوالي أسبوع لاحظت السيدة إيمينيكى بعد عودتها إلى البيت أنّ الملابس التي وضعتها على الطفل في الصباح قد تغيرت ، ووُضعت بدلا منها ملابس دافئة جداً .
" ماذا حدث للملابس التي وضعتها عليه ؟ "
قالت فيرو " لقد سقط أرضا وأصبحت متسخة ، ولهذا اضطررت لتغييرها ." ولكن تصرفاتها بدت لها غريبة . كان أول ما خطر على بال السيدة أن طفلها قد سقط بقوة .
سألتها منزعجة " أين سقط ؟ أيُّ جزء من جسمه سقط عليه ؟ أحضريه إلي ؟ ما كلُّ هذا ؟ دم ؟ كلاّ ؟ ماذا يكون ؟ لقد قتلتُ والله؟ اذهبي وأحضري لي اللباس على الفور ؟ "
" لقد غسلته ." قالت فيرو ، وشرعت في البكاء وهو شيء لم تفعله من قبل على الإطلاق. أسرعت السيدة إلى حبل الغسيل وأنزلت اللباس الأزرق ، والقميص الأبيض ، وكانا ملطخين بشدّة باللون الأحمر ؟
أمسكت بفيرو وأخذت تضربها بقوة بكلتا يديها ، ثمّ أتت بسوطٍ وكسّرته عليها إلى أن انبثق الدم من وجهها ويديها . عند ذلك فقط اعترفت فيرو أنها قد أرغمت الطفل على شرب زجاجة من الحبر الأحمر ، فانهارت السيدة إيمينيكى على الكرسي وأخذت في العويل .
لم ينتظر السيد إيمينيكى حتى يتناول غدائه ، رموا بفيرو في المرسيدس وأخذوها مسافة الأربعين ميلا إلى أمها في القرية . كان يودّ الذهاب بمفرده ، لكن زوجته أصرت على اصطحابه ، وأن يأخذوا الطفل معهم أيضا . توقّف على الطريق العام كعادته ولكنه لم يصحب الفتاة . لم يقم بأكثر من فتح الباب وجرّها للخارج ، أما زوجته فقذفت بصرة ملابسها ورائها ، وابتعدوا بسيارتهم ثانية .
عادت مارثا من الحقل متعبة ومتجهمة فهرع أولادها إلى الخارج لإعلامها بأن فيرو قد عادت إلى البيت ، وهي موجودة في غرفتها تبكي . رمت بسلتها تقريبا وذهبت لرؤيتها، لكنها لم تفهم من قصتها شيئا .
" أعطيت الطفل حبرا أحمراً . لمــاذا ؟ لتتمكني من الذهاب إلى المدرسة؟ كيف؟ هيا بنا نذهب إلى بيتهم . ربما سيمكثون في القرية هذه الليلة أو سيخبرون أحدا ما بما حصل ، فأنا لا أفهم قصتك . ربّما سرقت شيئا ما . أليس كذلك ؟ "
" أرجوك يا أماه . لا تأخذيني هناك مجددا . سيقتلونني . "

" هيا بنا . ما دمت لن تقولي لي ماذا حدث ."
أمسكت بها وجرّتها إلى الخارج ، وعندها رأت الدماء المتجمعة فوق أثر مرور السوط فوق كامل رأسها ووجهها وذراعيها ، فبلعت ريقها بصعوبة .
" من فعل ذلك ؟"
" سيدتـــي "
" ماذا قلت لي أنك قد فعلت ؟ لابدّ أن تخبريني . "
" أعطيتُ الطفل حبراً أحمراً . "
" فلنذهب إذن ."
بدأت فيرو تبكي بصوت أعلى وأمسكت مارثا برسغها من جديد وشرعا في المسير . لم تقم بتغيير ملابسها الخاصة بالعمل ، أو حتى تغسل وجهها ويديها . كل النساء ــ وأحيانا الرجال أيضا ــ الذين مرّا بهم في طريقهما ، كانوا يصرخون عند رؤية آثار السوط على فيرو ويرغبون في معرفة الفاعل ، وتكون إجابة مارثا عليهم " لا أعرف بعد وهو ما سأكتشفه الآن."
كانت محظوظة لأنّ سيارة السيد إيمينيكى الكبيرة ماتزال موجودة . إذن لم يعودوا للعاصمة فطرقت بابهم الأمامي ودخلت . كانت السيدة إيمينيكى تجلس هناك في ردهة البيت تقدم لطفلها الطعام في زجاجة ، وتجاهلت الزوار بالكامل حيثُ لم تقل كلمة أو حتى تنظر في اتجاههم . كان الزوج الذي هبط من الدور العلوي هو من أخبرها بالقصة ، وبمجرد أن استوعبت مارثا القصة ــ أن الحبر الأحمر قد قدم للطفل ، بقصد القضاء عليه ــ وضعت إصبعين في أذنيها وأخذت في الصراخ ، بأنها لا تريد سماع المزيد، في نفس الوقت ركضت للخارج واقتلعت غصنا من شجرة ، وبالإمساك بإبهامها وسبابتها من أحد نهايتيه وتمرير أصابعها بقوة على طول الغصن ، نزعت عنه أوراقه بحركة سريعة . مسلّحة بالسوط ، هرعت عائدة إلى البيت وهي تصيح " لقد سمعتُ شيئا بغيضا ؟ " أمّا فيرو فأخذت تصرخ ، وتركض في أنحاء الغرفة.
" لا تلمسيها هنا في بيتي " قالت لها السيدة إيمينيكى ، بصوت بارد وقاسٍ ، وكأنها كاهن يقدم موعظة ، وبينت أنها قد لاحظت وجود زائريها للمرة الأولى " خذيها بعيدا من هنا في هذه اللحظة . تريدين أن تبيني لي أنك قد صدمت ، ليس لدي رغبة في المشاهدة، فاذهبي وبيني غضبك في بيتك . إنّ ابنتك لم تتعلم القتل في بيتي ."
كأنّ شيئا وخز مارثا في أعماق روحها وجعل حركتها تتجمد . وقفت ثابتة في عين المكان ويدها التي تمسك بالسوط بجانبها فاقدة للحياة . قالت أخيرا مخاطبة المرأة الأصغر " يا بنيتي . كما ترينني الآن ، فأنا امرأة فقيرة وبائسة ، ولكنني لست قاتلة ، وإن كتب على ابنتي أن تكون قاتلة فالله يعلم أنها لم تتعلم ذلك مني ."
قالت السيدة " ربّما تعلّمت ذلك مني ." وبينت أسنانها النظيفة المنتظمة في ابتسامة مزيفة مزعجة " أو ربما التقطته من الجوّ . نعم لقد التقطته من الجوّ . يا امرأة ، خذي ابنتك وارحلي عن بيتي ."
" دعينا نذهب يا فيرو . هيا دعينا نذهب ؟ "
" نعم . اذهبوا أرجوكم ؟ "
كان السيد إيمينيكى يبحث طوال الوقت عن طريقة للتدخل الذكوري وهو ما بدا واضحا أنه مطلوب الآن ، ثم قال ." ما حدث هو من عمل الشيطان ، لقد أيقنت دائما أنّ جنون الرغبة في التعلّم في هذه لبلاد سيدمرنا جميعا في يوم ما . الآن حتى الأطفال قد يرتكبون القتل من أجل الذهاب للمدرسة ."

أدّى هذا المجهود الأخرق لتهدئة الجوّ بين الجانبين، إلى إحساس مارثا بالألم أكثر من ذي قبل . كانت تقبض على سوطها غير المستعمل بيد ، وتجر فيرو إلى بيتها باليد الأخرى . في البداية أمطرتها بوابل من الشتائم واصفة إياها بالشيطان الذي دخل رحم أمها من باب البيت الخلفي .
" يا إلهي ، ماذا فعلتُ ؟ " وبدأت الدموع تسيل منها الآن " لو أنني أنجبتُ طفلا في الوقت الذي أنجبت فيه النساء الأخريات في نفس سني ، لكانت هذه الفتاة التي تسميني الآن قاتلة أصغر من ابنتي . والآن تبصق في وجهي . هذا ما جلبته لي ." كانت تنظر إلى أعلى رأس فيرو أثناء حديثها ، ثم جذبتها بعنف أكثر .
" سأقتلك اليوم . لنذهب إلى البيت أولا ؟"
بعد ذلك ، بدأت تعتمل في داخلها ثورة غريبة مبهمة وغير موجهة وبطيئة في البداية "وهذا الشيء الذي يطلق على نفسه لقب رجل ، ويحدثني عن جنون رغبة التعلم . الأمر محصور فقط عندما يرغب أطفال الأرامل مثلي في الاقتداء بالآخرين ، عندها يصبح ذلك جنونا . ما هذه الحياة ؟ بالله . ما هذه الحياة ؟ الآن تعتقد طفلتي أنها يجب أن تقتل الطفل الذي استُأجرت لرعايته لكي تحصل على فرصتها . من وضع هذا البغض في جوفها ؟ يا إلهي ، أنت تعرف أنني لم أفعل ذلك ."
رمت بالسوط بعيداً ، ومسحت دموعها بيدها التي حررتها من السوط .

أيام دراسة تشايك

بقلم : تشنوا أشييبي

آخر أولاد سارة كان طفلا ذكرا ، وقد تسبب مولده في حدوث حالة فرح عامة في بيت والده آموس ، وأعطي للطفل عند تعميده ثلاثة أسماء ــ جون ، تشايك ، وأبياجولو ، ويعني الاسم الأخير " وأخيرا استراح العقل " كل من يسمع هذا الاسم يعرف أنّ حامله إمّا أن يكون الابن الوحيد ، أو الصبيّ الوحيد بين عدّة بنات . بالنسبة لتشايك فقد كان الصبي الوحيد ، وكان لأبويه خمس بنات وُلدن قبله .

على شاكلة أخواته فقد رُبّي تشايك على طريقة الرجل الأبيض ويعني ذلك خلافا للعادات والتقاليد السائدة . فمنذ عدة سنوات اشترى آموس جرسا صغيرا ليستدعي بواسطته عائلته للصلاة وأداء التراتيل الدينية في الصباح ، وأخر الليل قبل النوم ، وتلك كانت إحدى عادات الرجل الأبيض .

أمرت سارة أولادها ألاّ يتناولوا الطعام لدي الجيران ، لأنهم ينذرون طعامهم للأوثان ، وبذلك وضعت نفسها في مواجهة مع التقاليد العريقة التي تعامل الأطفال على أساس أنهم مسؤولية عامة للجميع ، فمهما كان نوع العلاقة بين والديهم ، عادة يقوم الأطفال باللعب سوية ويتشاركون تناول الطعام .

ذات يوم قدمت إحدى الجارات قطعة بطاطس لتشايك الذي كان حينها في الرابعة من عمره. هزّ الصبيّ رأسه قائلا : " نحن لا نأكل من طعام الوثنيين " فامتلأت الجارة غضبا ، لكنها تمالكت نفسها ومرمرت بصوت منخفض . . حتى [الأوسو] يشعرون بالزهو بانفسهم هذه الأيام ، وكلّ ذلك بفضل الرجل الأبيض .

لقد كانت على حقّ ، ففي الماضي لم يكن أيّ فرد من الأوسو يجرؤ على رفع رأسه في حضور أيّ من الأحرار ، لأنه يعتبرُ عبدا لكثير من آلهة القبيلة . ولم يُخلق الأوسو ليُحترم، ولكن ليهان، ويكاد حتى يتعرض للبصق عليه . لا يمكنه الزواج من الأحرار ، أو الحصول على أيّ من ألقاب القبيلة ، وعند موته يدفن من قبل ذويه في الغابة الملعونة .

الآن تغيّر كل ذلك ، أو بدأ في التغير إلى درجة تجرؤ طفل من الأوسو على النظر في وجه أحد الأحرار والحديث عن طعام الوثنيين ؟ لقد حقّق الرجل الأبيض أشياء كثيرة بالفعل .

لم يكن والد تشايك من طائفة الأوسو في الأصل ، لكنه تزوّج من امرأة أوسية بتأثير من اعتناقه للديانة المسيحية . لم يُسمع من قبل عن رجل جعل من نفسه أوسيّا بهذه الطريقة ، وهو بكامل قواه العقلية ، لكن لم يكن آموس إلاّ مجنوناً ، لقد ملك الدين الجديد عليه عقله . . كان هذا الدين مثل خمر اللاقبي يشربه البعض ويُبقُون على عقولهم ، بينما يفقدُ آخرون كل ذرّة من العقل في جُــوفهم .

كان السيد براون الوحيد الذي أيّد زواج آموس ، وهو رجل أبيض يعمل في الإرسالية التبشيرية ويعيش في بيت مسقوف من القشّ له جدران مبنية من الآجر الأحمر . كان مبجّلاً بين الناس ، ولا يرجع ذلك للعضات التي يلقيها، لكن بسب العيادة الصحّية المجّانية التي يديرها في إحدى غرف بيته . خرج آموس من عيادة السيد براون متخذا قراره ومحصّنا للغاية . أخبر أمّه المؤلف قلبها والتي اعتنقت الديانة المسيحية حديثا متّخذة لها اسم إليزابيث . كادت الصدمة أن تقتلها، وعندما تمالكت نفسها من جديد جثت على ركبتيها ورجته ألاّ يقوم بذلك ، لكنه لم يستمع إلى توسّلاتها ؛ وكأنّ بأذنيه وقراً . أخيراً بعد أن أصابها اليأسُ ذهبت لاستشارة الكاهن .

اشتهر الكاهن بقوة سلطته وحكمته ، وبينما هو يجلس على أرض كوخه ينقر على ترس سلحفاة ، وقد خطّ بالطباشير الأبيض رسوما حول عينيه . لم يكن يعلم بالحاضر فقط ولكن بالماضي أيضا ، وبإمكانه التنبؤ بما سيحدثُ في المستقبل ، ولهذا يُطلقُ عليه الرجل ذو العيون الأربعة . ما أن بانت عليه إليزابيث حتى رمى بودعه المكوّن من عدّة قطع معدنية من الكراوريات مربوطة إلى بعضها بخيط . . . أخبرها عن سبب قدومها لرؤيته حيث قال "لقد اعتنق ابنك دين الرجل الأبيض، وكذلك فعلت أنت رغم تقدّمك في السن ، حيثُ كان يتوجب عليك أن تعرفي أفضل من ذلك ، فهل تستغربين إن أصاب الجنون ابنك ؟ فالذين يجمعون الحطب المسكون بالنمل عليهم أن يتوقعوا زيارات السحالي . ثمّ رمى بودعه عدّة مرّاتٍ ، وخطّ بإصبعه على وعاء مملوء بالرمل ، وطوال الوقت كانت نيوفولو يقطينة متكلّمة تهمسُ إلى نفسها، فصرخ فيها لتصمت ، وقد فعلت ؟ ردّد الكاهن عدّة مقولات وأطلق سيلا لا ينتهي من الأمثال التي كان يتبع أحدها بالآخر مثل قطع النقود المربوطة إلى خيطه العجيب .

أخيراً أعلن العلاج عندما قال إنّ الأسلاف غاضبون ، ويتعين إرضاؤهم بتقديم عنزٍ كقربان. قامت اليزابيث بالطقوس كاملة، لكنّ ابنها ضلّ على جنونه، وتزوج من فتاة الأوسو التي تسمّى سارة ممّا أدّى بأمّه إلى نبذ دينها الجديد ، والعودة إلى دين قومها .

لقد ابتعدنا عن موضوعنا الرئيس، ولكن كان من المهم أن نعرف كيف أصبح تشايك من الأوسو ، لكن حتى يومنا هذا حيثُ الأمور مقلوبة رأسا على عقب، فنادرا ما تصادف قصّــة مـثل هذه ، ولنــعد الآن إلى تشايــك الـذي رفض تنـــاول طعام الوثنيين في سنّ الأربع أو الخمس سنواتٍ الغضّة .

بعد عامين التحق بمدرسة القرية . بإمكانه الآن أن يمدّ يده اليمنى خلف رأسه ليمسك بأذنه اليسرى ، حيثُ يدلّل ذلك على أنه كبر بما فيه الكفاية للتعامل مع ألغاز علوم الرجل الأبيض . كان سعيدا جدّا بقلمه ولوح الكتابة ، وسعيداً أكثر بزيه المدرسيّ المكوّن من قميص أبيض ، وسروال قصير من الكاكي البنيّ ، وبينما أخذ اليوم الدراسيّ الأول يقترب ، انشغل عقله الصغير في التفكير في عديد القصص التي سمعها عن المدرّسين وعصيّهم ، ثمّ تذكّر الأغنية التي كانت أخواته الأكبر سنّاً يردّدنها .

أونيني انكوزي ايولو ايتالي بياقبوزى أوماكا

يعد أسلوب المبالغة إحدى الطرق التي يتمُّ بها التأكيد على الشيء في لغة الإيبو ، وعليه يمكن ألا يكون المعلّمُ قد ضرب الأولاد حتى الموت كما تقول الأغنية ، لكنه ضربهم دون شكّ، ولطالما أمعن تشايك التفكير في هذه المسألة . لأنّ تشايك كان صغيرا جدّاً فقد أرسل إلى ما يُسمّى " بالفصل الدينيّ " حيث كانوا يغنّون وأحيانا يرقصون أثناء تعلّمهم للنصوص الدينية الذي يجري بطريقة الأسئلة والأجوبة . لقد أحبّ مسمع تلك الكلمات ، كما أحبّ الإيقاع . أثناء تلك الحصّة يصطفُّ الفصل على شكل دائرة ليرقص وهو يجيبُ على سؤال للمعلّم قد يكون: "من كان القيصر ؟ " وعندها تنطلق الإجابة مدوّية ، مع خبطُ الأرجل على الأرض في نفس الوقت .

سيزا بو إيزى روما أونيي ناتشي إينو أووا دون

لم يكن يهمُّ أولئك الأطفال وهم يرقصون أنه لم يعد يوجد في هذا القرن العشرين حاكمٌ واحدٌ للعالم كلّه انطلق من روما .

كانوا أحياناً يغنّون بالإنجليزية ، وقد أحبّ تشايك كثيراً أغنية " عشرُ زجاجات خضراء " تمّ تلقينهم كلماتها ، لكنهم حفظوا منها الأسطر الأولى والأخيرة فقط ، أمّا وسط الأغنية فكانوا

يتمتمون به بصوت غير واضح :
عشر زجاجات معلقة على الحائط
عشر زجاجات معلقة على الحائط
هم هم هم هم هم
هم ، هم هم هم هم هم
وعشر زجاجات على الحائط معلقة.
هكذا مرّت سنة تشايك الأولى ثم انتقل إلى مدرسة الأطفال حيث تأخذ الدراسة طابعا أكثر جدية .
لا حاجة لنا لمتابعته خلال تواجده في مدرسة الأطفال تلك ، فهي قصة مكتملة بحدّ ذاتها ، لكنها لم تكن مختلفة عن قصص الأطفال الآخرين ، ففي المدرسة الابتدائية بدأت شخصية تشايك تظهر للوجود . كان لديه كره شديد للحساب ، لكنه أحبّ القصص والأغاني وأحبّ على وجه الخصوص سماع الكلمات الإنجليزية ، حتى وهو لا يفهم منها شيئاً . كان بعض تلك الكلمات يملؤه بالبهجة .
إحدى هذه الكلمات هي periwinkle وقد نسي معناها وكيف حفظها . كان لديه فهم خاصٌ وغامض لها له علاقة بالخيال ، أمّا الكلمة الأخرى فهي constellation .
معلّم تشايك الذي يقال عنه أنه رجل ذو علم ، كان مغرما بالكلمات الطويلة ، وأفضل طريقة لديه لتمضية الوقت هي نسخُ كلمات في غاية الصعوبة من قاموسه . في ذلك اليوم حصل على إعجاب تلامذة الفصل عندما عاب على العذر الذي أتى به أحد الأولاد لتبرير تأخّره عن الحضور، حيث قال لـه جملة تدلّ على سعة الاطّلاع التي لا يمكن الردّ عليها ، قال " التسويف هو حجّة الكسول في الاعتذار " وقد بين المعلم سعة إطّلاعه في جميع المواد التي كان يُدرّسها. لم ينس تشايك دروس الأحياء الني كان يعطيها ، وسيظلّ يذكر ذلك الدرس عن انتشار حبوب اللقاح ، ووفقا لكلام المعلم هناك خمسة طرقٍ هي : بواسطة الإنسان ، بواسطة الحيوانات ، بواسطة الرياح ، وبواسطة الماء ، وعن طريق الآلية التفجيرية . حتى أولئك التلاميذ الذين نسوا كلّ الطرق الأخرى تذكّروا الآليّة التفجيرية .
بالطبع فقد كان تشايك مبهوراً بالكلمات ذات الطبيعة المثيرة التي يأتي بها المعلم ، لكنّ الكلمات المتعلقة بالخيال التي لها معنىً عنده فهي من نوع مختلف . كانت الجمل الأولى من كتاب قراءته بسيطة للغاية ، وفي نفس الوقت فقد ملأته بجذل غامض ، وتقول (كان أحد السحرة يعيش في أفريقيا ، وسافر إلى الصين لجلب خروف) قرأ تشايك هذه الكلمات في بيته مرّات ومرّات وألّف منها أغنية . كانت أغنية دون معنى ، وأدخل فيها كلمات صعبة مثل Damascus و periwinkles لكن ذلك بالنسبة له كان مثل نافذة يطُلّ منها على عالم سحري جديد ، وقد منحه ذلك سعادة بالغة .

أنا وبابا والثعبان

بقلم : بي ال هونوانا (4)

ما أن ترك بابا طاولة الأكل وتوجه إلى غرفة الجلوس لقراءة الصحيفة حتى نهضتُ بدوري ، فقد كنت أعرف أن ماما والآخرين سيظلون جالسين لفترة أطول، ولم ترق لي فكرة البقاء معهم مطلقا ، وعندما نهضتُ نظرتْ ماما إلي قائلة : تعال هنا ، ودعني أنظر في عينيك .
تقدمت نحوها ببطء ، فعندما تنادي ماما على أحدنا لا نعرف تماما إن كانت غاضبة أم لا . وبعد أن رفعتْ جفوني بسبابة يدها اليسرى للقيام بفحص دقيق حانت منها نظرة تحت إلى طبقها، ووقفتُ منتظراً أن تصرفني أو تقول لي شيئا . أتمّت مضغ ما في فمها وابتلعته ثم التقطت العظم بين أصابعها ونظرت من خلال فجوته مغلقة إحدى عينيها ، والتفتتْ إلي فجأة وقد ارتسمت على وجهها نظرة حيرى .
عيناك حمراوان ، وأنت ضعيف البنية لأنك فقدت شهيتك .
أجبرتني الطريقة التي قالت بها ذلك على الردّ بأن لا شيء من ذلك يعتبر خطأ مني، وأنني لم أقم بذلك عن قصد ، ونظر إليّ البقية بفضول ليروا ما الذي سيحدث .
بحلقت ماما في تجويف العظم مرة أخرى ، وشرعت تمصه مغلقة عينيها ولم تتوقف إلا برهة وجيزة لتقول غدا ستستعمل مسهلا للمعدة .
ما أن سمع الآخرون قولها حتى بدأوا يأكلون مجددا بسرعة كبيرة محدثين أصواتا أثناء المضغ ، ولما لم يعد هناك ما تقوله لي ماما فقد خرجتُ إلى فناء البيت .
كان الجو حارا في كل مكان وليس بإمكاني رؤية مخلوق في الطريق، فيما أخذت ثلاثة ثيران تحملق في من وراء السور الخلفي للبيت . لابد وأنها عادت من الساقية عند الإدارة وهي تستريح الآن في الظل ، أما بعيدا في الخلفية وراء قرون الثيران فبالإمكان رؤية أجمة أشجار الزعرور تتمايل كألسنة اللهب . هناك على البعد كان كل شيء يتمايل ويمكن رؤية موجات الحر تنبعث من صخور الطريق . في ظل البيت تجلس سارتينا على فراش من القش تأكل طعامها وتمضغ ببطء، تنظر حولها من حين لآخر ، وبحركة لا مبالية تهش بين الفينة والأخرى على الدجاجات التي تقترب منها آملة في الحصول على بقايا الطعام . ومع ذلك كان أحد الشجعان من تلك الطيور يقفز مقتربا من حافة الطبق ويهرب بلقمة طعام في منقاره ومن ثم يجدّ الآخرون في إثره . أثناء صراعهم تتفتت تلك اللقمة إلى درجة أن أصغر الطيور تحصل على شيء منها في منقارها .
عندما رأتني سارتينا مقتربا منها جذبت تنورتها فوق ساقيها وتركت يدها مبسوطة أمام ركبتيها وهي على قناعة بأنني أريد اختلاس النظر إلى شيء ما . حتى عندما نظرتُ بعيدا لم ترفع يدها من مكانها .
جاء توتو يمشي ببطء ، لسانه يتدلى إلى الخارج ، وتوجه إلى المكان الذي تجلس فيه سارتينا. تشمّم الطبق من بعيد واستدار متجها إلى ظل الحائط حيث سيجد لـه مكانا أكثر نعومة ليستلقي فيه، وعندما عثر عليه تكوّر حول نفسه وأنفه يكاد يلامس ذيله، ولم يتوقف عن الحركة إلا بعد أن لامست بطنه الأرض، ثم أطلق تثاؤبا طويلا وألقى برأسه بين مخالبه وتمعّج قليلا ليتأكد من اتخاذه للوضعية الأكثر راحة، وفي آخر الأمر غطى أذنيه بمخالبه.
عندما انتهت من تناول طعامها نظرت سارتينا إلي بتركيز قبل أن ترفع يدها التي كانت تغطي المنطقة بين ركبتيها، ولم تقفز على قدميها لتنهض إلا بعد أن تأكدت أنني لا أنظر إليها . كان

الطبق من النظافة إلى درجة أنه صار يلمع ، لكن بعد أن طوّحت تجاهي نظرة مريبة توجهت بالطبق إلى حوض المياه، ولأن رجليها من الخلف كانتا مكشوفتان في هذه الوضعية فقد توجهت إلى الجانب المقابل .
ظهرت ماما عند باب المطبخ وهي لا تزال تمسك بالعظم في يدها وقبل أن تنادي على سارتينا لتنظيف المائدة، نظرت خلفها لتؤكد على أن كل الأمور على ما يرام قائلة لروجنا لا تنس أن تقدم لتوتو طعامه . دلفتْ سارتينا إلى البيت وهي تجفف يديها في تنورتها ثم خرجت تحمل كومة كبيرة من الصحون ، وفي المرة الثانية أخرجت مفرش الطاولة لتنفضه على الدرج. وبينما الدجاجات تتصارع على فتات الطعام وتنقر وتصيح في وجوه بعضها، ثنت المفرش إلى اثنين ثم إلى أربع ثم ثمان ثنيات وحملته إلى الداخل . عند خروجها مرة أخرى أحضرت طبق الألومنيوم الخاص بطعام توتو ووضعته على أرضية الاسمنت بالقرب من عداد المياه، ولم يحتج توتو لأن ينادي عليه أحد لكي يتناول طعامه ، فقبل أن يلامس الصحن الأرض كان قد ارتمى عليه وغاص في كومة الأرز بأنفه باحثا عن قطع اللحم التي أخذ يلتهمها بشراهة كلما عثر عليها، وعندما لم يعد هناك المزيد من قطع اللحم أخذ يزيح العظام جانبا ويتناول بعض الأرز . عادة ما تكون الدجاجات محيطة به لكنها لا تجرؤ على الاقتراب منه، لأنها تعرف ما يكون علية مزاج توتو أثناء تناوله لطعامه .
بعد انتهائه من ابتلاع الأرز يتظاهر بعدم رغبته في تناول المزيد ويذهب للجلوس في ظل أعواد قصب السكر منتظرا ما ستفعله الدجاجات . تقترب الأخيرة بعصبية من طعام توتو مجازفة بالتقاط ملئ فم أو اثنين وهي ترتقب شرا ، لكنه يراقب ذلك دون أن يأتي بحركة واحدة، أما الدجاجات التي شجعها هدوء الكلب على التمادي فتجمّعت على الأرز بحماس شديد محدثة الكثير من الفوضى . في تلك اللحظة بالذات يرمي توتو بنفسه فوق التجمع ملوحا بمخالبه في كافة الاتجاهات ومطلقا عواءً مثل أسد غاضب، وعندما تتفرّق الدجاجات في كافة أرجاء الفناء يعود إلى النوم في ظل أعواد قصب السكر منتظرا تجمعها من جديد .
قبل أن يتوجه بابا إلى عمله ذهب مع ماما لتفقد حظيرة الدواجن . ظهرا عند باب المطبخ حيث ترتدي ماما مريلتها أما بابا فيضع عود تنظيف الأسنان في فمه ويتأبط صحيفته ، وأثناء مرورها بجواري كان أبي يقول مستحيل ، هذا مستحيل ، فلا يمكن أن تستمر الأمور هكذا .
اقتفيت أثرهما وعندما دخلا إلى الحظيرة التفتت أمي إلي وكأنها تود أن تقول لي شيئا لكنها غيرت رأيها واتجهت إلى السياج الحديدي . في الجزء الخلفي من الحظيرة هناك كل ما يخطر على البال ، الأنابيب المتبقية من بناء دولاب الهواء ، كتل حجرية أحضرها بابا عندما كان يفكر في تشييد مبان ، وصناديق ، وقطع من الخشب ، ومن يعلم ماذا يوجد أيضا . كانت الدجاجات تتسلل أحيانا بين هذه الأشياء وتضع بيضها حيث لا تستطيع ماما أن تصل إليه . في أحد أركان الحظيرة تواجدت دجاجة ميتة، أشارت لها ماما قائلة هناك واحدة ولست أعلم كم دجاجة أخرى تموت من يوم لآخر ، فالدجاجات تختفي بكل بساطة وكذلك البيض . لقد تركت لك هذه لترى بأم عينك ، كما أنني تعبت من كثرة الحديث لك عن هذا الأمر ولا أراك متخذا لموقف .
طيّب ، طيّب ، ولكن ما الذي تريدين مني أن أفعل ؟
اسمعني . الدجاجات تموت فجأة أو تختفي وليس من أحد يدخل الحظيرة أثناء الليل، كما أننا لم نسمع أي صوت غريب مطلقا . لابد أن تعرف ما الذي يجعل الدجاج يموت .
وما السبب حسب رأيك ؟

بما أن الديوك تتعرض للعض والدجاجات تؤكل فلا يمكن التفكير إلا في شيء واحد ـ هذا إذا كان هناك أي عقل في رأسك .
طيّب ، سأعمل إذن على قتل الثعبان ، فغدا يوم الأحد وسيكون من السهل طلب المساعدة من بعض الأشخاص للقيام بهذا العمل ، غدا إذن .
كان بابا قد خرج لتوه من الحظيرة عندما قالت له ماما بالبرتغالية : ولكن غدا بدون إبطاء فلا أريد أن يعض الثعبان أحد أطفالي .
بمجرد اختفائه وراء زاوية البيت التفتت إليّ ماما قائلة : ألم يعلموك من قبل قط بألا تبقى وتتنصت على أبويك عندما ينشغلان في حديث ما؟ ليس من عادة أبنائي ألاُ يكونوا مؤدبين فمن أين ورثت ذلك ؟
ثم التفتت إلى سارتينا التي تتكئ على سور الحظيرة وتنصت لما يدور من حديث ماذا تريدين ؟ هل طلبك أحد ؟ أنا أتحدث إلى ابني ولا يخصك ذلك في شيء .
لم تكن سارتينا لتندهش لمثل هذا التقريع لأنها لا تفهم البرتغالية جيدا ، لكنها تراجعت عن الحاجز مرتبكة واتجهت إلى حوض المياه ثانية، فيما استمرت ماما في حديثها لي : إن اعتقدت أنك ستخدعني وتأخذ البندقية لتصطاد فأنت ترتكب خطئا كبيرا . ولتعينك السماء إن اعتقدت أنك قادر على القيام بمثل هذا الفعل ؟ فسأجعل مؤخرتك تسْودّ ؟ وإن ظننت أنك ستبقى هنا في الحظيرة فأنت مخطئ أيضا ، فليس لي مزاج لتقبل أي من سفاسفك ، هل تسمعني ؟
لابد وأنّ ماما غاضبة جدا حيث لم أسمعها تضحك طوال اليوم كما هي عادتها . غادرت الحظيرة بعد حديثها لي وذهبتُ وراءها ، وعند مرورها بسارتينا تحدّثتْ إليها بلغة الروجنا : هل تحسين بالسخونة تحت تنورتك ؟ من قال لك أن تأتي إلى هنا لتكشفي عن ساقيك كل يوم ؟
لم تحر سارتينا جوابا، فسارت حول حوض المياه واستمرت في غسل الصحون منحنية إلى الجانب الآخر .
بعد ذلك غادرت ماما المكان وتوجهتُ أنا للجلوس في مكاني السابق ، وعندما رأتني سارتينا التفتت إلي بامتعاض ورمتني بنظرة غاضبة ثم ذهبت للجانب المقابل من الحوض مرددة أغنية تغلب عليها الرتابة ، وهي إحدى أغنياتها التي تقضي أغلب العشية في ترديدها مرة بعد الأخرى عندما تكون غاضبة .
تسرّب الضجر إلى توتو من اللعب مع الدجاج وكان قد انتهى من التهام أرزه وخلد إلى النوم من جديد واضعا مخالبه فوق أذنيه ، وبين الفينة والأخرى يتمرغ في التراب ويضطجع على قفاه وأرجله متشابكة في الهواء. كانت الحرارة خانقة ولم أقرر إذا ما كنت أريد الذهاب للصيد كما هي عادتي كل سبت أم أذهب إلى الحظيرة لأرى الثعبان .
ثم جاء مادونانا إلى الفناء يحمل على ظهره كومة من حطب الوقود، وتوجه ليضعه في الزاوية حيث تغسل سارتينا الصحون، وعندما وقعت عيناها عليه توقفت عن الغناء وتمكنت من رسم ابتسامة بلهاء على وجهها . بعد أن جال بنظره في أنحاء المكان قام بقرص مؤخرة سارتينا التي أطلقت قهقهة مرتبكة وأجابته بلطمة رنانة على ذراعه، ثم ضحك الاثنان في سعادة دون أن يلتفتا إلى بعضهما .
في هذه الأثناء ركض كل من نانديتو وجاوزينهو ونيليتا وجيتا خلف كرة اللعب وأخذوا يركلونها بسعادة ، وظهرت ماما عند باب المطبخ ترتدي ثياب الخروج ، وما أن بانت عليهما حتى انحنى مادونانا بسرعة إلى الأرض متظاهرا بالنظر إلى شيء ما، وانحنت سارتينا فوق الحوض .

سارتينا . اسرعي في العمل وحاولى ألا تكسري أية صحون قبل الانتهاء من مهمتك ، وأنت يا مادونانا ، اترك سارتينا لحالها واهتم بعملك . لا أود رؤية أية خزعبلات هنا وإن استمررت في ذلك سأبلغ رئيسك .
وأنت يا جنهو (الآن تحولت إلى البرتغالية) تولّ الإشراف على البيت وتذكر أنك لم تعد طفلا . لا تضرب أحدا ولا تسمح للأولاد بمغادرة الفناء ، تينا ولولوتا في الداخل تقومان بترتيب البيت فلا تزعجهما .
وأنت يا سارتينا ، بلغة الروجنا عندما تنتهين من هذا، ضعي سخان المياه على النار لإعداد الشاي للأولاد واطلبي من مادونانا أن يذهب لشراء الخبز ، ولا تدعيهم يجهزون على علبة الزبد بأكملها .
جينو ، الآن بالبرتغالية أنت المسؤول عن كل شيء . أنا ذاهبة للعمة لوتشيا للحديث معها قليلا وسأعود قريبا
سوّت ماما فستانها ، ونظرت حولها للتأكد من أن كل شيء على ما يرام ثم غادرت المكان .
كان كلب السنيور كاسترو المسمى وولف يراقب توتو من خارج السور، وما أن رآه الأخير حتى ركض نحوه وأخذ الاثنان ينبحان على بعضهما. جميع كلاب القرية تخشى توتو، فحتى أضخمها حجما كان يولى الأدبار عندما يبين توتو غضبه . صحيح أن توتو صغير الحجم نسبيا لكن كان له شعر أبيض طويل ينتصب واقفا مثل شعر القطط عندما يغضب، ويبدو أن ذلك ما كان يرهب الكلاب الأخرى .
من عادته أن يبتعد عن بقية الكلاب مفضلا الاستمتاع باللعب مع الدجاجات، وحتى الكلبات لم يكن يطيقها إلا في أوقات معينة . بالنسبة لي فقد كان ذا نسب عريق وذلك واضح مما يتمتع به من الميزات ، فهو يتمتع بهيبة كبيرة والشخص الوحيد الذي يخشاه هو ماما رغم أنها لم تضربه قط . غالبا نضطر إلى استدعائها إذا حاولنا إجباره للنزول عن أحد الكراسى حيث كان يهرّ ويكشر عن أنيابه حتى في وجه بابا .
وقف الكلبان وجها لوجه وبدأ وولف في التراجع و قد تمكن منه الخوف. في هذه الأثناء مر كلب الدكتور ريس وأخذ توتو في النباح عليه أيضا فما كان منه إلا الهرب، ووولف يجدّ في أثره ويعض على قائمتيه الخلفيتين ولم يتركه إلا بعد أن بدأ يتألم، وعندما عاد تكونت بينه وبين توتو صداقة وأخذا في اللعب سوية .
جلس نانديتو بجانبي ليخبرني أنه قد تعب من لعب الكرة .
لماذا أتيت هنا إذن ؟
ألا ترغب في صحبتي ؟
لم أقل ذلك .
سأبق إذن .
لك ذلك إن شئت .
نهضت من مكاني فتبعني ، أين تذهب ؟ هل ستصطاد ؟
كلا .
إلى أين إذن ؟
توقف عن مضايقتي ، فأنا لا أحب الحديث مع الأطفال .
أنت طفل أيضا ، فماما ماتزال تضربك .

تفوه بهذا مرة أخرى وسأسحق وجهك .
دخلت إلى حظيرة الدجاج فلحقني . كانت الأنابيب ساخنة فاستعملت خرقة لرفعها وثار الغبار كثيفا وخانقا .
عمّ تبحث ؟ هل يمكنني مساعدتك ؟
بدأت في رفع الكتل واحدة تلو الأخرى ، وحاول نانديتو القيام بالشيء نفسه . ابتعد ؟
ذهب إلى الزاوية المقابلة وطفق يبكي . عندما رفعت آخر كتلة من الكوم رأيت الثعبان وكان من نوع البامبا لونه بالغ القتامة . بعد أن تبين للثعبان أن أمره قد اكتشف تكوّر حول نفسه أكثر وأشرأب برأسه الثلاثى الشكل . كانت عيناه تلمعان في يقظة ولسانه الشبيه بشوكة يرتعش في وعيد .
تراجعت نحو السور ثم جلست أرضا لا تبك يا نانديتو .
أنت شرّير ولا ترغب في اللعب معي .
لا تبك . سألعب معك الآن ولكن لا تبك ؟
جلسنا صامتين فيما استقر رأس الثعبان الصغير بهدوء على حافة السلك العلوي، وسكن باقي جسمه لكنه استمر في مراقبتي بيقظة .
نانديتو ، تحدث إلي ، قل شيئا .
وماذا تريدني أن أقول ؟
أي شيء تريده .
لا أرغب في الحديث .
كان لا يزال يفرك عينية ويشعر تجاهي بالغيض
هل شاهدت ثعابين من قبل ؟ هل تحبها ؟ هل تخافها ؟ أجبني .
أين الثعبان ؟ قفز نانديتو مرتعبا وتلفت حوله.
إنه في الغابة . اجلس وتحدث معي . فجلس نانديتو ملتصقا بي .
أخاف الثعابين كثيرا ، وماما تقول أن هناك خطورة في الذهاب للغابة بسببها ، وأننا إذا سرنا على الحشائش فيمكن أن نطأ أحدها ويعضنا فنموت . تقول سارتينا إن أردنا ألا نموت من عضة الثعبان فيجب قتله ودفنه في الأرض حتى يجف ثم نأكله بعد ذلك ، وقالت أنها قد أكلت ثعبانا في السابق ولن تموت حتى لو جرى عضها .
هل شاهدت ثعبانا من قبل ؟
نعم شاهدته في بيت شيكو ، وقد قتله الخادم في المطبخ .
كيف كان يبدو ؟
كان أحمر اللون كبيرا ، وله فم ضفدعة .
هل ترغب في رؤية ثعبان الآن ؟
نهض نانديتو من مكانه على الفور واتكأ علي بخوف هل يوجد ثعبان في الحظيرة ؟ أنا خائف فدعنا نذهب .
إن أردت الخروج فاذهب بعيدا ، لم أطلب منك المجيء هنا و . . .
أخاف الذهاب لوحدي .
جلس كلانا في صمت تام لبعض الوقت .

كان كل من وولف وتوتو يلعبان خارج السور ، ويركضان من عمود لآخر ويدوران حول المكان كله ليبدأا من جديد، وعند كل عمود يرفعان أرجلهما للتبول ، ثم دخلا إلى الحظيرة واستلقيا على بطنيهما ليستريحا . على الفور رأى وولف الثعبان وأخذ في النباح ، وكذلك نبح توتو رغم أنه كان يدير له ظهره .
أخي هل يوجد ثعابين دائما في كل حظيرة دواجن ؟
كلا .
هل يوجد واحد الآن ؟
نعم .
أنا خائف .
اذهب بعيدا إن شئت . اذهب ؟
تقدم وولف نحو الثعبان وهو ينبح في سعار ، أما توتو فأدار وجهه ولم يعلم حتى تلك اللحظة ما الذي يحدث . كانت قوائم وولف ترتعد وأخذ يحفر الأرض بمخالبه في كرب شديد ، وبين الفينة والأخرى يطلق نحوي نظرات غير مفهومة، ولا يمكنه فهم سبب عدم استجابتي لانزعاجه الهستيري في الوقت الذي يملأ الذعر عينيه .
لماذا ينبح بهذه الطريقة ؟
لأنه رأى ثعبانا .
كان ثعبان المامبا متكورا في فجوة بين بعض الكتل ، ثم فرد جسمه ليعطيه أفضل نقطة ارتكاز ممكنة ، وظلت رقبته ورأسه ظاهران في الهواء في غير ما تأثر بباقي الجسم ، أما العينان فتلمعان مثل كرتا نارٍ .
في هذه الأثناء كانت استغاثات وولف تشق سكون المكان في رهبة ، ووقف الشعر حول رقبته ، وتينا ولولوتا ومادونانا متكئون على السور ينظرون في استغراب شديد .
لم لا تقتل الثعبان ؟ صاح نانديتو بصوت باك وهو يتشبث برقبتي .
لأنني لا أرغب في ذلك .
لم تتعد المسافة بين الكلب والثعبان خمسة أقدام ، وغرس الأخير ذيله في الزاوية بين الكتلة الحجرية والأرض ثم رفع ثنيات جسمه واحدة تلو الأخرى في استعداد للضرب ، وتراجع الرأس المثلث إلى الوراء بشكل تدريجي دافعا بقاعدة الرقبة المرفوعة للأمام . كأن الكلب كان على علم بقرب نهايته فقد أخذ يعوي بشكل محموم دون محاولة منه للابتعاد عن الثعبان ، أما خلفه مباشرة فقد نهض توتو وشارك في النباح .
لجزء من الثانية تكوّرت عنق الثعبان أثناء ميله برأسه للخلف ثمّ . . . وكأن ما يشد جسمه المرن قد انقطع فيه فجأة الرباط الذي يشد رأسه للأرض، فانطلق إلى الأمام بسرعة برق استحال تتبعها .
رغم أن الكلب قد رفع نفسه على قائميه الخلفيتين كما تفعل الماعز ، فقد ضربه الثعبان بقوة على الصدر ، وبعد أن تحلل ذيل الثعبان من مسنده على الأرض اخترق الهواء مرتعشا مع حركة آخر ثنية في جسمه .
سقط وولف على ظهره بعد أن ندت عنه أنة مكتومة ورفع مخالبه المتشنجة . تركه المامبا على الفور ، وبوثبة منه اختفى من جديد بين الأنابيب .
نهوكـا ؟ (1) صرخت سارتينا

دفعني نانديتو جانبا وهرب خارج الحظيرة صائحا ليلقي بنفسه بين ذراعي مادونانا . أما وولف فما أن أحس بتحرره من الثعبان حتى اختفي في نصف دستة من الوثبات صوب منزل السنيور كاسترو .
أخذ الأولاد في العويل دون فهم منهم لما يحدث ، فحملت سارتينا نانديتو بين ذراعيها واتجهت به إلى البيت ، ولم أستدع مادونانا ليساعدني في قتل الثعبان إلا بعد اختفاء الأولاد خلف سارتينا .
قمت بإزالة الأنابيب مستعينا بعصا مكنسة بينما كان مادونانا يرقب الثعبان ممسكا بخرقة في يده ، وما أن ظهر حتى رمى مادونانا بالخرقة فوقه تماما وقمت بدوري بإنزال الضربات بعصاي على تلك الكومة .
بعد أن عاد بابا إلى البيت استفاق نانديتو من صدمته وطفق يبكي بحرارة، أما ماما التي لم تر الثعبان بعد فقد توجهت معه للحظيرة ، وعندما التحقتُ بهم وجدت أبي يقلبه بعصاه .
لا أرغب في تصوّر ما الذي يمكن أن يفعله ثعبان مثل هذا لأحد أطفالي . ابتسم بابا وأضاف أو لأي شخص آخر . لقد كان قتله أفضل شيء ، وما يغيظني هو أن نموّ هذه الأقدام الستة قد تحقق على حساب دجاجاتي .
في هذه الأثناء توقفت سيارة السنيور كاسترو أمام منزلنا وتوجه بابا لملاقاته ، وتوجهت أمي للحديث مع سارتينا ، أما أنا فسرت خلف بابا .
عشية طيبة يا سنيور كاسترو .
اسمع يا تسميني ، لقد اكتشفت لتوي أن كلبي قد مات وكان متورم الصدر ، ويقول خدمي إنه جاء يعوي من جهة بيتك قبل موته ، لا أود سماع أية ترهات وكل ما أقوله لك الآن هو إما أن تدفع لي تعويضا ، أو أرفع الأمر للإدارة . لقد كان كلب الصيد المفضل عندي
عدت لتوي من العمل ولا أعلم من الأمر شيئا .
لست أهتم لما تقول ، ولا تجادلني . هل ستدفع لي أم لا ؟
ولكن يا سنيور كاسترو . . .
دع عنك السنيور كاسترو وادفع 700 باوس (2) ، ومن الأفضل لك أن تبقى هذه المسألة بيننا ولا تتطور أبعد من ذلك .
كما تشاء يا سنيور كاسترو ، لكنني لا أملك هذا المبلغ الآن . . .
سأمهلك إلى نهاية الشهر ، وسنرى عندها ماذا أنت فاعل ، وإن لم تدفع فستكون هناك مشكلة .
سنيور كاسترو . لقد عرفنا بعضنا لمدة طويلة جدا ، ولم يكن هناك ..
لا تحاول هذه الخزعبلات معي ، فأنا أعرف ما الذي ينقصكم جميعا .. ضرب مبرح بالسياط وهو الشيء الوحيد الذي . . .
ركب السنيور كاسترو السيارة ، وأثناء انطلاقها بعيدا سمعت " ابن الكلبة ..
توجهت نحوه وجذبته من كم معطفه . بابا . لماذا لم تقل ذلك في حضوره ؟ لكنه لم يحر جوابا .
بالكاد انتهينا من تناول عشاءنا عندما قال بابا أيتها الأم ، اخبري سارتينا أن تنظف المائدة بسرعة ولنصلّ يا أبنائي . لن نقرأ الكتاب المقدس اليوم ولكننا بكل بساطة سنصلي فقط .
كان حديثه لنا بلغة الروجنا ، ولذلك أسفت لتوجيه ذلك التساؤل إليه منذ لحظات . بعد أن انتهت سارتينا من تنظيف المائدة وطيّ القماش قال بابا " تتانا هاكو دوميا هوسي يا نيلو ميسابا ." (3)
ولما أن أتم بابا الصلاة كانت عيناه محمرتان .
آمين ؟

آمين ؟
نهضت ماما وسألت بعفوية ولكن بالمناسبة ما الذي يريده السنيور كاسترو ؟
ليس بالأمر المهم .
طيّب. أخبرني عن الأمر في غرفتنا فيما بعد . سأذهب الآن لأرتب حاجيات الأولاد ، وأنت يا جنهو استيقظ باكرا في الغد وخذ مسهلا . . .
عندما ابتعدتْ سألتُ بابا لماذا تلجأ دائما للصلاة عندما تغضب؟
لأن الله خير مستشار .
وما نوع الاستشارات التي يقدمها ؟
لا يقدم لي أية استشارات ، ولكنه يمنحني القوة للاستمرار .
بابا . هل تؤمن به كثيرا ؟
تمعن في بابا وكأنه يراني للمرة الأولي ثم انفجر يا بني . لابد أن يكون للانسان أمل ، فعندما يصل الانسان إلى نهاية يومه ويعرف أنّ الغد سيكون يوما مشابها ، وأنّ الأمور ستكون كعادتها دائما فلابد لنا أن نجد القوة للاستمرار في الابتسام ولأن نقول " ليس هذا بالأمر المهم " ويجب علينا أن نمنح جوائزنا الخاصة للبطولات التي تتحقق كل يوم ، بل يجب أن نحدد موعدا لمنح هذه الجائزة حتى ولو كان ذلك في اليوم الذي سنموت فيه؟ حتى هذا اليوم عندما رأيت السنيور كاسترو يقدم لي الإهانات : فلم يكن ذلك إلا جزءا من ضغوطات هذا اليوم ، لأن هناك الكثير الذي حدث ولم تره .
كلا يا بني ، لابد من وجود الأمل ؟ لابد من وجوده ، حتى لو كان كل ما يحدث الآن ينفيه ولكن لا يجب أن يغيب الأمل ؟ توقف فجأة واغتصب ابتسامة ثم أضاف بصوت خافت حتى الفقير يجب أن يكون لديه شيء يرنو إليه ولو كان مجرد أمل ، ولو كان أملا زائفا ؟
بابا لقد كان بإمكاني أن أمنع الثعبان من عض كلب السنيور كاسترو ..
حدجني بابا بنظرة مثقلة بالحنان وقال بصوت خافت لا يهم ذلك ، لقد كان عضه أفضل .
ظهرت ماما عند الباب هل ستترك الولد ينام أم لا ؟ ثم تطلعتُ إلى أبي وتذكرنا موقف السنيور كاسترو فانفجرنا بالضحك ، لكنها لم تفهم شيئا . هل جننتما ؟
نعم . فقد حان وقت الجنون . قال مبتسما .
كان في طريقه إلى غرفته ، ويبدو أنني كنت أتحدث لنفسي بصوت عال، لكن من الأفضل أنه سمع ما قلت بابا . . . في بعض الأحيان . . . في الحقيقة لست أعرف تماما، لكن لبعض الوقت . . . ظننتُ إنني لم أحبك مطلقا .. أعتذر عن . . .
لم تستوعب ماما ما كنا نقوله وقالت بغضب توقفا عن هذا وإلا . . .
هل تعرف يا بني ، نطق بابا كلماته برزانة مشيرا بيده مع كل كلمة من أصعب الأمور على الإنسان الشعور بالخواء التام . . . فذلك يعذبه كثيرا . . . كثيرا كثيرا كثيرا جدا . يكبر الواحد منا محتفظا بكمية هائلة من الكبت في داخله ، ولكن كما تعرف من الصعب الصراخ .
لكن يا بابا عندما يأتي السنيور كاسترو ؟ . . .
كانت ماما على وشك الاعتراض، لكنه أمسك بكتفيها بقوة .
لا يهم أيتها الأم ، لكن ابننا يظن أن الناس لا يركبون الخيول الجامحة ، وأنهم لا يستغلون إلا الجوعى ومن لا حول لهم ، ومع ذلك عندما يجمح حصان خارج السيطرة يطلقون عليه النار وينتهي الأمر . لكن الخيول المروّضة تموت كل يوم ، هل تسمعني ؟ إنها تموت كل يوم ، يوما بعد الآخر ، بعد الآخر ـ طالما باستطاعتها الوقوف على أرجلها ،

أثناء ذلك كانت ماما تحملق فيه وعيناها تكادان تبرزان للخارج .
هل تعرفين أيتها الأم ، أخاف أن أصدق أن تلك هي الحقيقة ، ولكن أيضا لا يمكنني القول بأنها كذبة . . . فهو يري بنفسه ، حتى في يومنا هذا فقد رأى شيئا . . . كل أملي هو أن تمكن القوة أبنائي من التعرف على الأمور الأخرى . . .
دخل بابا وماما إلى غرفتهما ولم أسمع المزيد من حديثه ، ولكن حتى من هناك صرخت في ماما غدا ستتناول الدواء المسهل للمعدة ، ولستُ مثل أباك الذي يمكن التلاعب عليه . . .
سريري كان يغطيه ضوء القمر الأصفر ، وقد تمتعت بالرعشة التي سرت في جسمي عندما لامسته برودة الأغطية . ولسبب لا أعرفه انتقل إلى جسمي دفء سارتينا وسبح في مشاعري ، وللحظات تمكنت من التشبث بوجودها شبه المادي ، وأردت النوم بقربها لكي لا أعود أحلم بالكلاب والثعابين .

(1) نهوكا ـ ثعبان

(2) 700 باوس ـ تعبير بالعامية للدولار الموزمبيقي (حوالي 30$)

(3) أبانا ، ملك السماوات والأرض .. نضع فيك كل ثقتنا .

(4) لويس برناردو هونوانا : (ولد في 1943) ترعرع في مامبو موزمبيق ، وبدأ في نشر قصصه في سنّ السابعة عشر . أمضى فترة في السجن خلال حرب التحرير ، ويعمل موظفا منذ الاستقلال . ترجمت مجموعته "قتلنا كلب مانجي ، وقصص أخرى " من البرتغالية ونشرت عام 1996 .

.

دقائــق من التألــق

انجوجاي وا ثيونجو (1)

كان اسمها وا نجورو ولكنها أحبت كنيتها بيبترس بصورة أكثر ، وهو الاسم الذي كان وقعه بالنسبة لها أكثر نقاء وبهاءً . ليس ذلك لأنها بشعة، ولكن لا يمكن وصفها بالجميلة كذلك ؛ وجسمها أسود اللون ممتلئ ، نعم فمقاييس جسدها جيدة، لكنه يبدو وكأنه بحاجة ليمتلأ بالروح . كانت تعمل في حانات بيع البيرة حيث يأتي أبناء النساء ليدفنوا كوامن صدورهم في علب البيرة وتوافه الأمور . لم يكن يبدو أن أحدا يلاحظ وجودها ، ربما عدا تلك الحالات التي ينادي فيها المالك أو أحد الزبائن البرمين على اسمها ، بيبترس ، وعندها يرفع البقية رؤوسهم للحظات وكأنهم يريدون التطلع إلى من تحمل ذلك الاسم الجميل ، وبما أنهم لا يجدون أحدا بالمواصفات المطلوبة، فإنهم يعودون إلى خمرهم ونكاتهم البذيئة وإلى ضحكهم ولعبهم مع البقية من فتيات الخدمة . أحست بأنها أشبه بطائر جريح أثناء طيرانه : تقوم بهبوط اضطراري من آن لآخر ، لكنها مع ذلك تتهادى من مكان لآخر بحيث يمكن العثور عليها في أماكن مختلفة مثل ،ألاسكا ، بارادايز ، ذي مودرن ، ثوم ، وعدد آخر من حانات البيرة في كامل مدينة ليمورو . أحيانا تُفصل من العمل بدون إنذار أو راتب بسبب ما يظنه مالك غضوب من أنها لا تجتذب ما يكفي من الزبائن، وعندئذ تنتقل مُجبرة إلى الحانة التالية . لكنها في أحيان أخرى كانت تمل البقاء في نفس المكان شاهدة يومية على مناظر مألوفة ، حيث يجري التطاحن عند وقت الإقفال على فتيات أكثر منها قبحا . وعندها تسأل نفسها بكآبة ؛ ما الذي يملكنه ولا أملكه أنا ؟ كانت تتطلع للعمل في (حانة ـ مملكة)، حيث تكون على الأقل أحد ملاكها ، وحيث يقدم لها طالبو الود هداياهم من البيرة ، وابتسامات محبطة ، وكثيرا من اللعنات التي تخبئ في طياتها رغبة وحبا، أكثر مما تخبئ كراهية .

تركت مدينة ليمورو، وجربت العمل في المدن الصغيرة التي بدأت تنمو حولها . عملت في كل من انجاريجا ، كاماريثو ، ريروني ، بل وحتى في تاييكونو ، وكانت الأمور نفسها تحصل في كل مكان تذهب إليه . صحيح فهي قد تعثر لها على زبون ما ، لكن أحدا لم يهتم بأمرها بالطريقة التي ترغب . في الحقيقة لم يكن يرغب فيها أحد إلى الدرجة التي يتقاتلون على الفوز بها ، لقد ظلت على الدوام الاختيار الصعب وآخر ملجأ للزبون . لم يكن هناك حتى مظاهر إدعاء ، لم تكن تُمنحُ حتى تلك المزاعم الحلوة التي ينخرط فيها الرجال بعد تناولهم لزجاجة خامسة من التوسكارز . في الليلة التي تليها أو في أيام قبض الراتب كان نفس الزبون يتظاهر بعدم معرفتها ، لكنه سيستخدم في ذات الوقت نقوده ونفوذه ، مع أخريات لهن أكثر من حصتهن من المعجبين .

أصبحت تمقت هذا الوضع وترى في كل فتاة منافسة لها وبالتالي تبنّت منهنّ موقفا غاضبا . على الأخص فقد نظرت إلى نياجوثوى باعتبارها الشوكة التي تخز دائما جسدها المجروح . فنياجوثوى فتاة منعزلة ومتعجرفة، لكن الرجال غالبا ما يتواجدون في محيطها ؛ تتشاجر معهم لكنهم يقدمون لها الهدايا لاسترضائها، وتقبلها منهم وكأن ذلك حق لها . بإمكان نياجوثوى أن تبدو ضجرة ، غير صبورة ، ومليئة بالازدراء لهم ومع ذلك يلتصق الرجال بها وكأنهم يستمتعون بنهرهم بجارح الكلام ، وبالشفاه المقلوبة ، والنظرات غير المبالية لامرأة حرّة . لقد كانت نياجوثوى أيضا مثل طائر في حالة تجوال ، لم تتمكن من الثبات في موقع واحد . ولكن كانت في حالة بحث مستمر عن التغيير والإثارة ؛ عن وجوه جديدة ومناطق جديدة لإخضاعها لسيطرتها . كانت بيبترس تمقت مجرد ظلها لأنها ترى فيها الفتاة التي أحبت أن تكون مثلها ، فتاة منغمسة بالكامل، وفي نفس

الوقت فهي فوق مستوى ما يجري في الحانات من عنف وجنس. وحيثما ذهبت بييترس كان ظل نياجوثوى الطويل يتبعها عاجلا أم آجلا .
هربت من ليمورو إلى إلمروج في ضاحية شيري التي كانت فيما مضى قرية أشباح لكنها أعيدت إلى الحياة بواسطة امرأة أسطورية تدعى نيانجندو، التي خلدتها كافة فرق الغناء الشعبي. لقد كانت هي المعنية بالأمر عندما غنى لها الراقصان الشابان موثوو وموشون :
عندما غادرتُ نيروبي إلى إلمروج
لم يدر بخلدي قط
أنني سأرزق بطفلتي الرائعة
نيانجندو .
نتيجة لذلك اعتبرت إلمروج على الدوام مدينة للأمل، حيث يجد المتعبون والمسحوقون راحتهم ويجدون الماء النقي . لكن الذي حدث أن نياجوثوى لحقت بها هناك .
اكتشفت أنّ إلمروج بالرغم من الأسطورة والأغاني والرقص لا تختلف كثيرا عن ليمورو ، ولهذا حاولت ممارسة حيل أخرى . الملابس ؟ ولكن حتى هنا لم تكن تكسب ما يكفي من النقود لتشتري الثياب البراقة . فما نفع خمسة وسبعون شلنا في الشهر بدون علاوة سكن ، وأنيق الملبس ، وصديق بمرتب شهري ؟ في تلك الأثناء وصلت شهرة مرهم أمبي إلى إلمروج ورأت بييترس أنه سيكون الحل لمشكلتها. ألم تر بأم عينها في ليمورو كيف تحولت فتيات أكثر منها سوادا من مجرد آثام بشعة إلى نجوم بيضاء بلمسة للجسد بواسطة مراهم تبييض لون الجلد ؟ وكان الرجال عندها يرمقونهن بهيام ، وحتى إنهم يتحدثون بفخر مبالغ فيه عن صديقاتهم اللائى ولدن من جديد . لقد رأت بييترس خلال لحظات من التمعن أن الرجال مخلوقات غريبة، ففي الوقت الذي يتحدثون خلال مناقشات حامية ضد استخدام أمبي ، وبوتون، وفاير سنو ، وموون سنو ، والباروكات ، وكوي الشعر ، فإننا نجدهم في ذات الوقت يفضلون صحبة الفتاة التي تبيّض جلدها بمرهم أمبي ، وتغطي رأسها بباروكة تقلد شعر الأوروبيين أو الهنود . لم تحاول بييترس مطلقا معرفة سبب تلك الكراهية الذاتية للون الأسود ، وقد قبلت هذا التناقض بكل بساطة ، وأخذت في استعمال أمبي بإفراط . كان عليها أن تزيل خجلها الأسود بالتدليك . لكن حتى أمبي لم تتمكن من استخدامه بوفرة ، وهكذا لم تستخدمه إلا على وجهها وذراعيها ، وظلت عنقها وساقاها على سوادهما . إلى جانب أجزاء من جسمها لم تتمكن من الوصول إليها ـ مثلا خلف أذنيها ، وفي المنطقة أعلى رموشها ـ وكان ذلك مصدر قلق وخجل دائمين لنفسها المتعلقة بالأمبي .
ستظل تذكر دائما تلك الفترة الأمبية بصفتها التي تلقت فيها الإذلال الأكثر قبل أن تعيش لحظات التألق فيما بعد . عملت في فندق وحانة ستارلايت إلمروج ، حيث كانت نياجوثوى بأقراطها الضخمة ومعاصمها المزينة بالأساور تخدم خلف بسطة البار . كان المالك روحا مسيحية طيبة يتردد دائما على الكنيسة ويسدد ما عليه للمشروعات الخيرية، لـه كرش ضخم وشعر أبيض ، وينطق بمعسول الكلام ، وهو معروف في كافة أنحاء إلمروج بأنه صاحب عائلة يمتاز بالاحترام . كان يكد في العمل ولا يترك المكان إلاّ عند ساعات الإغلاق ، أو بدقة أكثر عندما تغادره نياجوثوى . يتواجد بالقرب منها أغلب الأوقات ولا يتطلع إلى أية فتاة أخرى ويغرقها بالهدايا من الملابس بشكل متستر دون أن تبين لـه أي امتنان . كل ما تحصّل عليه منها هي وعود فقط ، أي الأمل في الغد فقط . وبينما ينقد الأخريات ثمانين شلنا في الشهر فقط ، كان لنياجوثوى غرفتها الخاصة ، وتصحو وقتما تشاء لاستلام البضائع . لكن على بييترس والأخريات النهوض عند

الخامسة صباحا تقريبا وإعداد الشاي للنزلاء ، وتنظيف الحانة ، وغسل الأطباق والكؤوس . ثم يبقين فيها حتى الثانية ظهرا حيث يتمتعن باستراحة قليلة . وعند الخامسة يتوجب عليهن التواجد في المكان مرة ثانية في أتم استعداد لاستقبال الزبائن وتقديم الابتسامات والبيرة المرغْوية لهم حتى منتصف الليل ، أو طالما وجد هناك زبائن متعطشون إلى المزيد من التوسكرز والبلسنر . ما كان يثير غضب بييترس ـ رغم أنه لم يكن يعني الكثير في حالتها ـ هو إصرار المالك على نوم الفتيات في الفندق، حيث قال بأنهن سيتأخرن عن العمل إذا نمن في مكان آخر ، لكن ما أراده في الحقيقة هو أن تستخدم الفتيات أجسادهن لاجتذاب المزيد من الزبائن للمكان . معظم الفتيات تقودهن نياجوثوى تحدين هذه التعليمات وكن يقدم الرشوة إلى الخفير ليسمح لهن بالخروج والعودة . فهن يرغبن في لقاء أصدقائهن الدائمين أو أصدقاء الليلة الواحدة في أماكن يتمتعن فيها بالحرية ولا يعاملن فيها كنادلات فقط . أما بييترس فكانت تنام في المكان على الدوام لأن رفاق الليلة الواحدة الذين تلتقيهم لا يرغبون في إنفاق الكثير . ذات ليلة اقترب منها المالك الذي كان قد رُفض من نياجوثوى وبدأ بأن عثر على أخطاء اقترفتها ، ثم أخذ يسبّها، وبنفس الفجاءة شرع يكيل لها المديح ولو أنها أحست بأنه يضن عليها بذلك إذ كان مديحه مشوبا بالازدراء . أمسك بها واشتبك معها بكل كرشه الضخم وشعره الأشيب . أما هي فقد شعرت تجاهه باشمئزاز غير عادي ، فليس بإمكانها ولن تجبر نفسها على تقبل هذا الشخص الذي نبذته نياجوثوى منذ قليل . يا إلهي ، كانت تبكي من الداخل وتقول لنفسها ما الذي تملكه هذه الفتاة ولا أملكه أنا ؟ أما هو فقد كشف عن نفسه أمامها . توسل إليها ووعدها بالهدايا، لكنها لم ترضخ . وفي تلك الليلة خالفت تعليمات النوم أيضا عندما قفزت من النافذة وعادت في السادسة صباحا . استدعاها المالك أمام الجميع وطردها ، لكن بييترس كانت قد فوجئت بما اتخذته من موقف متمرد .

بقيت بدون عمل لمدة شهر تتنقل من غرفة لأخرى تحت رحمة مزاج الفتيات الأخريات . لم يكن لديها الشجاعة لترك إلمروج والبدء من جديد في مدينة أخرى . آلمها الجرح كما أنهكها تعب التجوال من مكان لآخر، ولم يعد لديها نقود فتوقفت عن استعمال أمبي . نظرت إلى وجهها في المرآة وتبين لها أنها قد كبرت كثيرا، ولم يمر سوى عام منذ وقوعها في الخطيئة وتساءلت في نفسها لماذا هي كثيرة الوساوس ، لكن بشكل ما فقد واجهت رعب استجداء المحبين أو مقايضة جسدها مباشرة بالنقود .

ما كانت ترغبه هو عمل محترم ورجل أو عدة رجال يهتمون لأمرها . ربما كانت تحمل احتياجها للرجل والبيت والطفل معها إلى الفراش ، وربما كانت تلك الحاجة الحقيقية هي التي تنفر الرجال الذين لا يرغبون سوى في نادلات الحانة . ذلك هو الذي دفعها لتذكّر أهلها، وللبكاء في ساعات متأخرة من الليل . في مثل تلك الأوقات كانت قرية أمها في منطقة نييري تبدو في عينيها المكان الأحلى الذي خلقه الله على هذه الأرض ، هناك ستزين حياة أبويها القرويين بأوهام رومانسية حول السلام والوئام اللذان لا حدود لهما . كانت تتوق إلى العودة لرؤيتهما ولكن كيف السبيل إلى ذلك بيدين خاويتين ؟ في كل الأحوال فالمكان في ذاكرتها الآن عبارة عن منظر ريفي بعيد للغاية . أما حياتها فهنا بين هذا الجمع من الغرباء الضائعين . غارقة في الإثم، غارقة في الإثم . إنها جزء من جيل لن يكون لـه أي ارتباط مرة أخرى على الإطلاق بالتربة ، وبالمحاصيل ، وبالرياح والقمر . فالهمس في تلك الوشائع المظلمة ليس لهم ، كما هو الرقص وممارسة الحب تحت وهج ضوء القمر، ومرتفعات تومو تومو التي تلامس السماء . تذكرت تلك الفتاة من قريتها التي سمّمت نفسها بالغاز بالرغم من حياة الفتنة التي تمارسها، حيث كانت عشيقة لأحد الأغنياء بعد الآخر في ليمورو

. فهذا الجيل يبدو مروّعا بلغز الموت بنفس القدر الذي كان فيه جاسئا تجاه لغز الحياة . فكم أم غير متزوجة رمت بطفلها في المراحيض عوضا عن التخلي عن حياة البهرجة ؟ وظل موت تلك الفتاة مصدرا للنكات لعدة أسابيع . كانوا يقولون أنها قد تحولت إلى متريّة ــ كناية عن استقرارها في تابوت بالمقاسات المترية ــ دون عناء . ولمدة أسبوع بعد هذه الحادثة فكرت بييترس في التحوّل إلى مترية هي الأخرى ، لكنها لم تجرؤ على تنفيذ الفكرة . كانت ترغب في الحياة ، وترغب في الحب .

جرى افتتاح حانة جديدة في إلمروج تدعى (تري توب) تشتمل على مطعم ونُزل ؛ أما لماذا تري توب (أي قمة الشجرة) فقد فكرت بييترس أن ذلك كان بسبب وجودها في بناية متعددة الطبقات . مكان لتقديم الشاي في الطبقة الأرضية ، وبيع البيرة يتم في غرفة في الطبقة الأعلى ، أما البقية فغرف لنزلاء الدقائق الخمس ، أو الليلة بأكملها . صاحب المكان هو أحد الموظفين المتقاعدين ، لكنه مايزال من الفاعلين في الساحة السياسية ، فهو ذو ثراء فاحش، له مؤسسات أعمال وشركات في كل مدينة كبرى في كينيا، يتردد على حانته ذوي النفوذ من كامل البلاد . رجال مهمّون في عربات مرسيدس ، ورجال مهمّون في عرباتهم البنتلي ، ومهمّون آخرون في سيارتهم الجاكوار والدايملر . رجال متنفذون يرافقهم سائقون يرتدون الزي الرسمي ويمضون أوقاتهم يتكاسلون في السيارات المنتظرة في الخارج .

بالإضافة إلى ذلك فقد تواجد أيضا أولئك الأقل نفوذا ، الذين جاءوا بقصد إبداء مظاهر الاحترام للعظماء . أغلب حديثهم عن الأمور السياسية ، وعن العمل، وبالتالي فالإشاعة موجودة هنا بوفرة . ألم تسمع بالأمر ؟ نعم فقد تمت ترقية فلان . حقا؟ نعم وجرى طرد فلان لثبوت تلاعبه في الأموال العامة، لكنه في غاية الحماقة كما تعرف ولم يتعامل مطلقا مع الأمر بذكاء . كانوا يتجادلون ، ويختصمون وأحيانا يلجئون إلى الشجار بالأيدي حول قضية ما، خاصة في موسم الدعاية الانتخابية . النقطة الوحيدة التي يتفق عليها الجميع هي أن جماعة لوو هي أساس كل المشاكل في كينيا . وأن الأساتذة وطلبة الجامعات يعيشون في برج عاجي من الامتيازات والعجرفة ؛ وأن مقاطعة كيامبو حصلت على نصيب الأسد من مشاريع التنمية ؛ وأن المتحدرين من نييري وميورانجا قد سيطروا على كافة الأعمال الكبرى في نيروبي وهم يعتدون حاليا على حرمة مقاطعة شيري ؛ وأن العمال الأفارقة وخصوصا في مجال الزراعة كسالى وغيورين "منا " نحن الذين صببنا الكثير من العرق ثمنا لازدهارنا المفاجئ ، وإلا كانوا يلهجون بشكرنا أو يكيلون لنا المديح . أحيانا وفي غمرة حماسة السكر والإعجاب الشخصي كان أحدهم يأمر بجولتين من البيرة لكل المتواجدين في الحانة . حتى الفقراء من إلمروج يأتون إلى تري توب لتناول الطعام عند بوابات الأغنياء الجدد .

في هذا المكان تحصلت بييترس على وظيفة كعاملة نظافة، ومرتبة للأسرّة ، وهنا شعرت لعدة أسابيع بأنها قريبة من العظمة ، أنها الآن ترتب أسرة أشخاص كانت في الماضي تعرفهم بالاسم فقط . وشاهدت كيف أنه حتى الفقراء يحاولون تناول الشراب والتصرف مثل الكبار في حضرة الكبار . لكن سرعان ما لحق بها قدرها وأخذت الفتيات يتقاطرن على تري توب من الحانات الاخرى . فتيات قد عرفتهن في ليمورو وأخريات في إلمروج ، وأغلبهن ارتبطن بواحد أو أكثر من ذوي النفوذ ، يلعبن في أغلب الأحيان لعبة الاستغماية مع عشاقهن العديدين . أما نياجوثوى فهي على الدوام خلف بسطة البار وعيون الأغنياء والفقراء مسلطة عليها، لكنها بعيونها الكبيرة وأقراطها ومعاصمها المزينة بالأساور ماتزال تبدي نفس الضجر اللامبالي . وقد أصبحت بييترس

بعملها في التنظيفات وترتيب الأسرة محجوبة أكثر من ذي قبل ، تزدريها الفتيات اللاتي ساعدهن الحظ .
صارت تواجه الحياة بالأحلام . فبين وضع ملاءات جديدة على أسرة قد شاهدت لتوها صراعا لمدة خمس دقائق، انتهى بصرخة مكتومة وبعض البلل ، كانت تقف عند النافذة لمشاهدة السيارات ومراقبة السائقين وسرعان ما عرفت المالكين من أرقام لوحات سياراتهم ومن سائقيهم الرسميين .
حلمت بعشاق يأتون إليها راكبين سيارات مرسيدس رياضية لمّاعة مخصّصة لراكبين فقط . وتخيلت نفسها تمسك بيد واحد منهم وهما يذرعان شوارع نيروبي وممباسا ، وهي تضرب الأرض بكعب حذائها الطويل في خطوات قصيرة وسريعة ، ثم تقف فجأة أمام فترينة مبدية علامات تعجب في ذات الوقت ، أوه يا عزيزي .. هل تشتري لي هذه . . . ؟ وما هذه ؟ يسألها مبديا غضبا . هذه الجوارب يا عزيزي . إنّ ما فكرت به كمقياس على رغد العيش هو أن تكون مالكة لجوارب غير منسولة وليس بها ثقوب . لن تضطر بعدها لرفي الأشياء البالية ، أبدا ، أبدا ، أبدا. هل تفهمين ؟ مطلقا . فيما بعد أصبحت المالكة الفخورة لعدد من الباروكات الملونة .. الشقراء منها ، والبنية ، والحمراء ، والأفريقية ، باروكات ، باروكات ، باروكات . كل الباروكات التي في هذا العالم ؛ وعندها فقط ستغني الأرض بأكملها (هليلويا) لبييترس شخصيا . في مثل هذه اللحظات ستشعر بالمجد يغلفها ، وأنها ستخرج من نفسها المعتمة ، ولا تعود عاملة التنظيفات أو مسوّية للفرش التي مورس عليها حب خمس الدقائق السريع . لكنها ستكون بييترس ، المتحدرة من وانجو ماكييري والتي تجعل الرجال يشتعلون بالرغبة وهم يشاهدون جسدها يستحم بضوء القمر ، ابنة نيانجندو التي أسست إلمروج الحديثة ، التي طالما غنوا لها بأنها قد جعلت عددا من عشاقها عنينين .
ثم وقعت عيناها عليه، كان نقيضا لحبيب أحلامها . جاء في عشية يوم سبت يقود شاحنة بحمولة خمسة أطنان . ثم قام بإيقافها بعناية بين سيارات المرسيدس والجاكوار ، والدايلمر ، ليس كشاحنة ، ولكن كأحد تلك الهياكل المصقولة بلون القشدة وقد بدا فخورا بها . كان يرتدي بذلة رمادية فضفاضة وفوقها معطفا عسكريا ثقيلا من الكاكي . نزع معطفه وطواه بعناية ثم وضعه على الكرسي الأمامي . أغلق كافة الأبواب ونفض عنه الغبار ودار حول الشاحنة وكأنه يتفقد أضرارا قد تكون لحقت بها . وقبل خطوات من دخوله حانة تري توب التفت خلفه ملقيا نظرة أخيرة على شاحنته التي تُقزّم ما حولها . داخل الحانة جلس في أحد الزوايا ، وبصوت عال أميل منه للتحدي طلب أن تقدم إليه زجاجة كينيا جلس يحتسيها باستمتاع ممعنا النظر حوله عله يجد وجها يمكنه التعرف عليه . بالفعل فقد تعرف على أحد الكبار وعلى الفور ابتاع لـه ربع لتر من الويسكي . قبلت ضيافته بحركة خفيفة من الرأس وابتسامة مرافقة ، ولكن تم تجاهله عندما حاول أن يقرن كرمه بتبادل الحديث ، فتجمد في مكانه وغرق في كرسي الموراتينا . لكن ذلك لم يدم سوي لحظات حيث كرر المحاولة، لتقابله وجوه عابسة . كانت محاولاته للمشاركة في إلقاء النكات هي الأكثر إثارة للشفقة فقد كان يضحك بصوت عال مما يجعل الكبار يتوقفون تاركين إياه معلقا في الجو لوحده . في وقت متأخر من المساء عدّ مجوعة من الشلنات الجديدة من فئة المائة وسلمها إلى نياجوثوى خلف بسطة البار لتحتفظ لـه بها . تهامس الحاضرون ودمدموا بل وضحك بعضهم بسخرية رغم أن ذلك قد خلف في نفوسهم أثرا ما، لكن هذا التصرف لم يضمن لـه اعترافا فوريا به . ترنح صوب الغرفة رقم 7 التي كان قد استأجرها ، فأحضرت لـه بييترس المفاتيح ، وحملق فيها لوهلة ثم فقد أي اهتمام بها .

بعد ذلك كان يأتي كل يوم سبت عند الخامسة حينما يكون الكبار قد اتخذوا مجالسهم ، ويعيد نفس الطقس فيما عدا الجزء الخاص بتسليم النقود ، وكان دائما يتعرض للهزيمة . غالبا ما يجلس في نفس الركن ويؤجر نفس الغرفة ذات الرقم 7 فتعوّدت بيبترس على استباق زياراته ، ودون أن تدري كانت تعد لـه الغرفة . حتى بعد إذلاله في مجلس الكبار كان يبقي بيبترس معه في الغرفة ويحادثها ، أو بالأصح يحادث نفسه في وجودها . بالنسبة لـه فقد كانت الحياة عبارة عن نضالات مستمرة ولم ينخرط في المدرسة مطلقا رغم أن الحصول على تعليم كان أحد طموحاته ، لكنه لم يحصل على فرصته أبداً . كان والده أحد الذين وضعوا أيديهم على قطعة أرض في منطقة تواجد البريطانيين في وادي رفت ، وقد كان ذلك يعني الكثير في أيام الاستعمار تلك ، وكان يعني من بين أمور عديدة أن رجلا وأولاده مقدرٌ عليهم الكدح والعرق لصالح الشياطين البيض وأولادهم .
شارك في النضال من أجل الحرية، ومثل الآخرين دخل المعتقل ، وخرج منه كما أنجبته أمه لا يملك شيئا. مع الاستقلال اكتشف أنه لا يملك التعليم الذي يؤهله لشغل إحدى الوظائف الخالية في قمة الهرم الوظيفي ، فبدأ كعامل لتموين الآلات بالفحم الحجري ، ثمّ قصابا ، وأخذ يشق طريقه ببطء إلى أن أصبح ناقلا كبيرا للخضار والفواكه من وادي رفت ومقاطعات شيري إلى نيروبي .
كان فخورا بما أنجزه في نفس الوقت الذي كان فيه حانقا لأنّ أولئك الذين تسلقوا إلى مستوى ثرائهم الحالي عن طريق القروض والتعليم الذي حصلوا عليه بالمنح والمعونات لا يعترفون بأمثاله . كان دائم التذمر هكذا، متعلقا بتعليم لن يحصل عليه مطلقا، ومتحدثا عن فرص أفضل لأطفاله .
ثم يقوم بحرص شديد بعدّ ما لديه من نقود ليضعها تحت الوسادة ويصرف بيبترس . كان يشتري لها بيرة في بعض الأحايين، لكنه يبدو في العموم مرتابا من النساء اللائى لا يراهن إلا مستهلكات لنقود الرجال ، فهو لم يتزوج بعد.
ذات ليلة نام معها، وفي الصباح نقب عن ورقة نقد من فئة العشرين شلنا وأعطاها إياها ، فقبلت النقود ولكن صاحبها شعور غريب بالذنب . قام بذات الفعل لعدة أسابيع ولم تمانع في الحصول على النقود التي ستفيدها كثيرا ، لكنه دفع ثمناً لجسدها كما يدفع لشراء كيس من البطاطس أو الكرنب . بهذا الجنيه يكون قد دفع لها كمنصتة لحكاياته التي لم تكن إلا سيلاً من الشكاوي ضد من هم في القمة ، وهي لم تكن إلا وعاءً يصبّ فيه أعبائه . أخذت تمل غروره وقصصه التي لم يكن هناك اختلاف في محتواها ، لكن بشكل أو آخر فقد أحست بأن شيئا ما كان متوطنا هناك في غور أعماقه ، هي نارٌ متأججة أو بذرة أو زهرة مغطاة لا يمكنها النمو بحرية . ورأت فيه ضحية مثلها يتوق إلى زياراتها لـه ، أما هي فتتوق أيضا للحديث مع شخص ما، تتوق لبث لواعجها في إنسان يفهمها .
ذات ليلة سبت قامت بذلك. فجأة قاطعت قصة صعوده المتعثر إلى القمة ، ولم تدر سبب قيامها بذلك . . . ربما هي الأمطار في الخارج التي تنقر بإيقاع ناعم فوق ألواح الحديد المجعدة جالبة معها إحساسا بالدفء والنعاس اللامبالي . سينصت إليها ، فمن واجبه أن يفعل ذلك . . . جاءت من كاراتينا في نييري، وقد قتل أخواها من قبل الجنود البريطانيين ، وتوفي الثالث في المعتقل ، ويمكن القول أنها كانت الابنة الوحيدة في العائلة . كان أبواها فقيرين لكنها عملا بكد في أرضهما الصغيرة العارية وتمكنا من تدبير مصاريف تعليمها الابتدائي . وقد اجتهدت في دراستها خلال السنوات الستة الأولى، لكنها تكاسلت قليلا في الصف السابع، ولذا لم تنجح بدرجات عالية . بالطبع فهي تعرف آخرين بعلامات مماثلة، لكنهم التحقوا بمدارس ثانوية حكومية جيدة . وعرفت أيضا

آخرين تحصلوا على علامات أقل منها، والتحقوا بمدارس ممتازة بسبب ما لديهم من صلات . لكنها لم تُوجّه إلى أية مدرسة تكون مصاريفها معقولة ، فوالداها لا يمكنهما تدبير مصاريف مدرسة أهلية ، وهي لم تقبل إعادة دراسة الصف السابع . لزمت البيت مع أبويها ، وأخذت تساعدهما أحيانا في صناعة التحف الأفريقية وأعمال المنزل ، ولكن تخيل : أنها كانت طوال السنوات الستة الماضية تمارس الحياة بإيقاع مختلف عن حياة أبويها . كان البريق يعوز الحياة في القرية، وغالبا ما كانت تشد الرحال إلى نييرى وكاراتينا بحثا عن عمل . وفي كل مكان يمطرونها بنفس الأسئلة : ما نوع العمل الذي تريدين ممارسته ؟ ماذا تعرفين ؟ هل يمكنك الطباعة ؟ هل تعرفين الاختزال ؟ وهي شديدة اليأس بسبب ذلك . في نييري بينما كانت تشرب العصير في أحد المقاهي، والدموع تملأ مآقيها ، قابلت شابا من نيروبي يرتدي بذلة غامقة ويغطي عينيه بنظارات شمسية . اكتشف أنها في ورطة وتحدث إليها . هل تبحث عن عمل ؟ لا مشكلة في ذلك ، فمن السهل العثور على عمل في مدينة كبيرة كهذه ، نعم سيساعدها بكل تأكيد . المواصلات ؟ نعم فلديه بيجو بيضاء بلون القشدة . يا إلهي ، لقد كانت نزهة جميلة مع وعود ببزوغ الفجر . قادها إلى حانة على الرصيف ، واحتسيا البيرة وتحدثا عن نيروبي ، بإمكانها أن ترى من خلال النافذة أضواء النيون في المدينة وعرفت أنّه مايزال هناك أمل . في تلك الليلة سلمته نفسها وهي تأمل في فجر يجلب لها النور والسعادة واستغرقت بعدها في نوم جدّ عميق . عندما استيقظت في صباح اليوم التالي كان صاحب سيارة البيجو البيضاء بلون القشدة قد اختفى ولم تره بعدها مطلقا . ذلك كيف بدأت حياتها كنادلة في حانة ولم تر أبويها منذ سنة ونصف . ثم طفقت بييترس تبكي ، نشيج عال ترثي به حالها وفي ذهنها مازال مطبوعا ما صادفته من إذلال واضطرارها للتنقل الدائم ، فهي لم تتمكن من التعود على حياة الحانات مطلقا ، ودائما تتخيل أن شيئا ما أفضل مما هي فيه سيأتي في طريقها . لكنها كانت واقعة في شرك ، فهذه هي الحياة الوحيدة التي تعرفها، ولو أنها لم في الحقيقة لم تتعلم قط شروطها وقوانينها . مرة أخرى تنهدت بكل قوة ودموعها تنساب مع كل نشيج . ثم فجأة تجمدت في مكانها . لقد غطى الرجل نفسه منذ فترة ، وكان شخيره عاليا لا تخطئه الأذن .
شعرت بفراغ غير مألوف بداخلها ، وأحست بكتلة من المرارة تنفجر بداخلها . أرادت أن تبكي فشلها الجديد فقد التقت من قبل بالعديد من الرجال اللذين عاملوها بقسوة ، وضحكوا لحيرتها ، وعلى ما اعتقدوه أنها محاولة فاشلة منها لادعاء البراءة وتقبلت ذلك منهم . ولكن لا يمكنها قبول هذا . يا إلهي ليس منه بالذات . ألم يكن هذا الرجل ضحية مثلها ؟ ألم يكن يفضي بهمومه لها كل ليلة سبت ؟ لقد دفع ثمن ما تقدمه لـه من خدمات إنسانية ، دفع للتخلي عن مسؤولياته بقنينة التوسكر وبالنقود التي يسلمها لها في الصباح . كل ما كابدته من اضطراب داخلي لم يكن إلا تهويدة لتساعده على النوم . وفجأة فرقع شيء بداخلها ، فكل غضب العام والنصف المنصرمين وكل المرارة لما تعرضت له من مهانة صارا الآن موجهين نحو هذا الرجل .
وما قامت به فيما بعد امتاز بالدقة المحكمة ليدٍ خبيرة .
لمست عيناه واكتشفت أنه نائم بعمق ، ثم رفعت رأسه وتركته يسقط . كانت عيناها الخاليتان من الدموع الآن باردتين وجامدتين . جذبت الوسادة من تحت رأسه ونقبت فيها بدقة وأخذت نقوده ، وقد عدت خمس ورقات وردية جديدة من فئة المائة شلن ووضعتها بدخل صديريتها .
خرجت من الغرفة رقم 7 والمطر لا يزال يهطل . لم تشأ الذهاب إلى مكانها المعتاد ، فهي لم تعد تطيق تلك الغرفة الصغيرة مثل دولاب أو هذر رفيقتها بنبرتها المتعالية . سارت عبر الوحل

والمطر ووجدت نفسها تتوجه إلى غرفة نياجوثوى . طرقت الباب ولم تسمع شيئا في البداية ، ثم سمعت صوت نياجوثوى يأتيها فوق أزيز المطر .
من الطارق ؟
أنا . افتحي الباب أرجوك
من ؟
بيبترس .
أفي هذه الساعة من الليل ؟
أرجوك .
أشعلت الأضواء وفك الرتاجُ ثم انفتح الباب . خطت بيبترس إلى الداخل ووقفت المرأتان وجها لوجه، كانت نياجوثوى ترتدي ثوب نوم شفاف وتضع فوقه كنزة خضراء .
ما خطبك يا بيبترس ؟ سألتها أخيرا بنبرة قلقة .
هل يمكنني الراحة هنا لبعض الوقت ؟ فأنا متعبة ، كما أريد الحديث معك . كان صوت بيبترس يحمل في طياته قوة وثقة .
لكن ما الذي حدث ؟
كل ما أردته هو توجيه سؤال لك يا نياجوثوى .
كانتا لا تزالان واقفتان ، ثم بدون كلام جلستا على السرير .
لماذا تركت بيتك يا نياجوثوى ؟ مرت لحظة صمت أخرى ، وبدا كأن نياجوثوى تفكر في السؤال وبيبترس تنتظر ، وعندما خرج صوت نياجوثو كان مرتعشا بعض الشيء .
هي قصة طويلة يا بيبترس . فقد كان أبواي من الأغنياء وكانا متدينين أيضا. كنا نعيش وفقا لتعاليم معينة . . . لا يجب أن ترافقي الوثنيين، أو تحضري ما يمارسونه من طقوس وثنية ـ مثل الرقص ، وطقوس إجراء طهارة الذكور ـ وكانت هناك لوائح حول طريقة الأكل ونوعيته وأوقاته . بل ويجب عليك أن تمشي مثل سيدة مسيحية ، ولا يجب أن تشاهدي مطلقا وأنت ترافقين الشبان . قوا نين ، قوانين طوال الوقت . ذات يوم وبدلا من العودة إلى البيت هربتُ إلى إيستلي مع فتاة أخرى تعيش في ظروف مماثلة، ولم أعد إلى بيتنا مرة واحدة خلال هذه السنوات الأربع، هذا كل ما في الأمر .
انقضت فترة صمت أخرى ، ونظرت المرأتان إلى بعضهما باعتراف متبادل .
سؤال آخر يا نياجوثوى ، لست مضطرة للإجابة عليه ، ولكنني طالما اعتقدت أنك تكرهينني وتستخفين بي .
كلا ، كلا يا بيترس . لم أكرهك مطلقا ولم أكره أي شخص في حياتي. كل ما في الأمر أن لا شيء يثيرني ، حتى الرجال لا يحركون مشاعري الآن ومع ذلك أحتاج إلى الإثارة السريعة . أنا بحاجة للاهتمام الذي تمنحه تلك العيون المتملقة لتشعرني بالتوازن مع نفسي ولكن أنت .. لقد بدوت لي أنك فوق كل هذا وأنك بشكل ما تملكين شيئا بداخلك ، لا أملكه أنا .
حاولت بيبترس بصعوبة أن تحبس دموعها .
في باكر الغد استقلت حافلة إلى نيروبي وتنزهت في شارع بازار، وهي تتطلع إلى واجهات المحلات . ثم في طريق الجفرنمنت إلى أن وصلت جادة كينياتا وشارع كيماثي . دخلت محلا بالقرب من شارع حسين سليمان واشترت مجموعة من الجوارب ارتدت إحداها مباشرة بعد ذلك ابتاعت فستانا جديدا وأيضا ارتدته على الفور . وفي محل باتا اشترت حذاء عالي الكعب وارتدته

ثم ابتاعت قرطا لأذنيها . توجهت إلى مرآة ونظرت في صورتها ، وفجأة أحست بجوع هائل وكأنها كانت جائعة طوال حياتها ، ترددت لوهلة أمام مطعم موتي مهال . كان هناك بريق يشع من عينيها وهو ما جعل الرجال يلتفتون إليها وقد أثارها ذلك . اختارت لها طاولة في أحد الزوايا وطلبت طبيخا هنديا ، ترك رجل طاولته وجلس معها فتطلعت فيه بعينين سعيدتين . كان الرجل يرتدي بذلة غامقة ويرمقها باشتهاء . اشترى لها شرابا وحاول مشاغلتها بالحديث، لكنها استمرت تأكل في صمت . وضع يده تحت الطاولة ولمس ركبتها فلم تصده ، واستمرت اليد في الزحف إلى الأعلى صوب فخدها . فجأة تركت طعامها الذي لم تتمه وشرابها الذي لم تمسه وغادرت المكان . اقتفي الرجل أثرها . . . لقد كانت واثقة من ذلك دون أن تلتفت خلفها ، ثم سار بجانبها لعدة ياردات . ابتسمت لنفسها، لكنها لم تنظر إليه وعندها فقد ثقته بنفسه . تركته واقفا بخجل ينظر في إحدى فترينات محل جينو . عند العودة في الحافلة إلى إلمروج تخلى لها الرجال عن مقاعدهم وقد قبلت ذلك كحق لها، وعندما دخلت حانة تري توب توجهت مباشرة إلى بسطة البار . تواجد في المكان مجموعة الكبار المعتادة الذين توقفوا عن الحديث لعدة ثوان عند دخولها وتطلعوا إليها بعيونهم الداعرة ، كما سلطت عليها الفتيات أنظارهن .. وحتى نياجوثوى لم تستطع التظاهر بلامبالاتها المعتادة . اشترت لهم بييترس مشروبا على حسابها واقترب منها المدير غير واثق مما يرى وحاول أن يحادثها : لماذا تركت العمل ؟ وأين كانت ؟ هل ترغب في العمل بالحانة لتساعد نياجوثو خلف بسطة البار ؟ وأحضرت إحدى النادلات لها ورقة يريد فيها أحد الكبار أن يعرف إن كانت ترغب في مشاركتهم جلستهم . ثمّ وردت إليها المزيد من الطلبات من مختلف الكبار الحاضرين وكلها تحوي سؤالا واحدا : هل ستكون متوفرة هذه الليلة ؟ بل وحتى قدّم عرضا للذهاب في رحلة إلى نيروبي . لم تترك بييترس مكانها بجانب البسطة، لكنها قبلت ما قدموه لها من شراب واعتبرت ذلك بمثابة حق لها . لقد شعرت بقوة جديدة بل وحتى بالثقة بنفسها .

أخرجت شلنا ووضعته في صندوق تدوير الاسطوانات الذي أخذ يصدح بأغنية روبنسون موانجي " هيونيو وا ماشامباني " كان يغني عن الفتيات العاملات بالزراعة ويقارنهن بفتيات المدينة ، ثم دوّرت أغنية كامارو وأغنية راقصة، ورغب بعض الرجال في الرقص معها فتجاهلتهم، لكنها تمتعت بإطرائهم وتواجدهم حولها . هزت وسطها لأغنية راقصة أخرى وجسدها متحرر من القيود وشهيقها يعلو من شدة الإثارة والتوتر العالق في الجو المحيط بها .

فجأة عند الساعة السادسة اقتحم المكان صاحب شاحنة الخمسة أطنان ، وكان هذه المرة يرتدي معطفه العسكري ويسير خلفه شرطي . نظر الرجل حوله وكل العيون مركزة عليه ، لكن بييترس استمرت في تمايلها الراقص ، أما هو فلم يميّز في بداية الأمر بأن بيترس هي نفسها الفتاة التي ترقص بالقرب من صندوق الاسطوانات، وتحتفل بعدة لحظات من التألق ، وعندها أطلق صيحة انتصار هذه هي الفتاة ؟ لصة ؟ لصة ؟ جلس الحاضرون مجدا إلى كراسيهم وتوجه إليها الشرطي ليضع الأغلال في يدها ، فلم تبد أية مقاومة، لكن عند وصولها إلى الباب التفتت وبصقت خلفها ثم غادرت المكان يتبعها الشرطي .

تحوّل الصمت المطبق داخل الحانة إلى ضحك صاخب عندما أطلق أحدهم مزحة حول ممارسة السرقة اللذيذة دون اللجوء إلى العنف . تحدثوا عن فعلتها وقال بعضهم إنه كان يجب ضربها . وتحدث آخرون بازدراء عن " فتيات الحانات " بينما أشار البعض إلى قلقهم الذي عبروا عنه بهز رؤوسهم غير مصدقين لما حدث ، كما تحدثوا عن ارتفاع معدلات الجريمة وتساءلوا عن إمكانية أن تشمل عقوبة الشنق كافة أنواع السرقات. دون أن يتفطن أحد أصبح صاحب شاحنة الخمسة

أطنان بطلا بينهم . فتحلقوا به مطالبين بتفاصيل القصة ، حتى أن بعضهم أشترى لـه شرابا . والأكثر مدعاة للملاحظة أنهم كانوا ينصتون لـه وصمتهم المجامل يقطع أحيانا بنوبة ضحك تقديرا لـه . كان التهديد للممتلكات قد جعلهم يتكاتفون وكأنهم عائلة واحدة . أما الرجل الذي قبلوه بينهم للمرة الأولى فقد استمتع بسرد قصته .

لكن نياجوثوى كانت تبكي خلف بسطة البار .

(1) انجوجي وا ثيونجو (ولد في 1938) ويعتبر من أكثر كتاب شرق أفريقيا شهرة ، وتسجل روايته العديدة ومنها " النهر الوسيط " و " لا تبك يا طفلي " و " حبة القمح " وبلغته المحلية الجيكويو " الشيطان مصلوبا " قصة العسف الاستعماري وغير الاستعماري في كينيا ، كما كتب بعض المسرحيات والقصص القصيرة ، وقد سجن بعد صدور مسرحيته الأولي الجيكويوية التي نشرت بالإنجليزية بعنوان " سأتزوج عندما أرغب " وعاش في المنفى منذ سجن العديد الطلبة والأساتذة الكينيين في العام 1982 .

.

تحـت التدريــب

بقلم أودن بالوجن (1)

يرجع الفضل في اجتياز أوجنمولا للمحنة التي مر بها أثناء فترة تدريبه إلى ما يتمتع به من ماض يعود إلى أيام جده الأكبر أوبا الحاكم المشهور، والحكيم في نفس الوقت .

كان لأوجنمولا الخيار في الالتحاق بالمدرسة لكنه لم يشأ ذلك ، فقد كان شاهدا على مصير جده، وهو ما جعله يقرر موقفه للمرة الأولى والأخيرة . لم يتجاوز مرحلة الطفولة آنذاك وكان الجد في أوج ازدهار حكمه حيث كان للحياة معنى كما هو الحال في فترة حكم والده أوبا الشهير. لقد تمتع جده بمحبة واحترام رعاياه وعمّ السلام والهدوء كما ساد الرضا والوئام بين الناس . . .

ثمّ فجأة حلّوا بالمكان بصورة مفاجئة ودون دعوة . وكأن ذلك ليس كافيا بحد ذاته فقد ادعوا أيضا بأنّ جده غير جدير للقيام بأعباء الحكم . جدّه ؟ سليل الأوبا الشهير ؟ الذي صارت قدرته على الحكم في أوقات الغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والسلم والحرب نوعا من الأساطير .

لم يكن ذلك كل شيء ، فادّعوا بأن الحياة لا تسير كما يجب ، ومن الضروري تغيير كل شيء . . . وأنه لابد من بداية جديدة . وذلك ما حصل ، فقد شرعوا على الفور في إجراء التغييرات بسرعة وتهور يخلوان من الانسانية . وشاهد أوجنمولا الذي كان مجرد طفل كل شيء ، لقد أربكه ما حدث، لكنه لم يجد صعوبة في فهم سبب موت جده المفاجئ، وتملكه الرعب لما أن عرف أنّ أباه لن يرث الملك عن جده ، أي لن يستطيع أحد مواصلة حكم الأوبا ذلك الملك العظيم . مستحيل أن يحدث هذا الأمر . ثارت دماؤه الملكية بعنف ضد هذا الاقتراح بالخضوع لاستعباد خسيس أو عبادة إله مزيف . كل ذلك وهو لم يزل طفلا .

رغم كل هذا أرادوا لـه أن يلتحق بالمدرسة ؟ وأن يصادق على تلك التغييرات ويعترف بهم كرسل من الله لتحقيق العدالة . هو ، أوجنمولا سليل الأوبا الملك العظيم ؟ ذلك من المستحيلات. ثارت دماؤه الملكية بعنف ضد هذا الاقتراح بالخضوع لاستعباد خسيس وعبادة إله مزيف ، وهو بعد في مرحلة الطفولة .

لكن لابد من القيام بعمل ما . لقد ولد وانتهى الأمر ، ولن يهم شيئا إن كان قد ولد في هذه الأوقات الصعبة . ألم يكن القصد من مولده وخروجه لهذا العالم أن يجعل للحياة معنى ؟ قبل أوجنمولا التحدي وقرر أن يصبح حدّاداً له شأن ، وهكذا بدأت سنوات تدرّبه على هذا العمل ، ومن الآن فصاعدا سيكون للحياة معنىً ، أو هكذا ظن .

كان أوجنمولا مخطئا في اعتقاده حيث لم تبدأ متاعبه إلا في هذا الوقت بالذات، فلم تكد تمر سنة على تدربه على يد المعلم أوموتاياي حتى اختلى به الأخير جانبا وقال له :

أوجنمولا خاطبه بنبرة إنسانية هادئة تعلمُ أنني أحبك مثل ابن لي ، وأنني أحمل لك تقديرا عاليا كمتدرب ، كما توجد لدي قناعة بأنك ستعمل على رفع شأن صيتي أكثر مما هو عليه الآن . ولهذا يحزنني أن أرى نوعية بعض أعمالك في المدة الأخيرة .

لأن أوجنمولا أحب معلمه واحترمه بصورة كبيرة فقد أنصت لكلماته في غم شديد وأجابه بصوت متهدج بفعل العاطفة :

هل لي أن أعرف ما الذي يحزنك يا معلمي ؟ إذا كان الأمر في مقدوري فسأعمل ما بوسعي لتصحيحه .

عندما أمعنُ النظر في هذه السيوف والسكاكين، وما تصنعه من أدوات أخرى لا أجد فيها صفة متميزة ولا شكلا منتظما ، وكلما دققت فيها أجد أنها فشلت تماما في إظهار الدروس التي تجشمت الصعاب لتلقينها لك . لقد أخبرتك مرارا وتكرارا أن هدفك يجب أن يكون تشكيل معزقة تكون مفيدة ورخيصة في نفس الوقت ، فما فائدة معزقة جميلة إن لم يتمكن أحد من شرائها ؟ وبالنسبة لما تسير عليه الأمور الآن فسرعان ما سيقول الناس أنك تلميذ أوموتولا وليس تلميذي . بهذه الكلمات الحزينة أنهى المعلم حديثه لأوجنمولا .
أن يقول أموتاياي بأن عمل متدرب لديه يشبه ما تنتجه ورشة أوموتولا من أشغال فإن ذلك يعد أقسى نقد يوجه إلى أي متدرب تحت إشرافه . كان أوجنمولا يعرف ذلك ولهذا السبب فقد انزعج للأمر، فهو وإن كان لم يعارض معلمه في بادئ الأمر إلا أنه يحس بشيء في أعماقه ، شيء خاص به فقط يمكنه أن يستعين به في صناعة المعازق بحيث تصبح أكثر فائدة ، وأقل ثمنا ، وأكثر جمالا ، كما يمكن الحصول عليها بسهولة . لهذا السبب قام بالعديد من التجارب وبدأ يقترب من هدفه شيئا فشيئا ، لكن كلما اقترب منه أصبحت المعازق التي يصنعها مختلفة عن صناعة معلمه. لقد لاحظ ذلك وأنزعج كثيرا، لكنه كان يأمل بألا يلاحظ معلمه الفرق ولكن لسوء الحظ . .
.
يا معلمي ، بدأ أوجنمولا في الاعتذار أنت تعلم بأنني لا أقلد أوتومولا ، وكل ما هناك أنني أحاول صناعة معازق بطريقتي الخاصة .
ما تقوله هراء ، يا فتاي ، فهذه قصة قديمة متكررة ، إذ أنّ هذا هو ما يقولونه عندما يبدأون في التحول ضدك ، ولكن أن تقوم أنت بالذات بهذه الفعلة ؟ أنت الذي أحبك مثل ابن لي ، أنت الذي . .
. تهدج صوت المعلم وغلبته العاطفة ، ولم يتمكن من إتمام حديثه . مع ذلك وبعد فترة استوى في جلسته وأضاف بصوت حازم لا يعرف اللين تذكر أنك إذا اخترت أن تكون عدوّا لي فأن العدوّ هو العدوّ .
داخل أوجنمولا الخوف ولكنه تمكن من أن يقول : لست بعدوّ لك يا معلمي .
لم يصدق كلامه، ومع مرور الوقت صارت حياته في ورشة معلمه تتسم بالصعوبة ، وحاول من جانبه أن يقتل روح المبادرة في نفسه، لكن مع ذلك فكل ما تصنعه يداه كانت له ميزة معينة تختلف عن معلمه . شيء يخصه وحده . أما في عيون معلمه فذلك الشيء الخاص يبين تشابها مستمرا لمنتجات ورشة أوتومولا ، وتحول حبه لتلميذه إلى عدم ارتياح له وسرعان ما تطور إلى عداوة، وعند هذا الحد لم تجد أية تبريرات ولم تفعل في واقع الأمر إلا زيادة الأمور سوءا .
حاول أوجنمولا خلال هذه فترة التدريب الصعبة هذه مقاومة تلك الحقيقة القاسية عن طريق الهروب إلى ماضيه . ظل يسترجع قصص عائلته المشهورة كما روتها له أمه ، وبدت لـه الأحداث كأنما يراها بعينه . كان يحلم كل ليلة بجد أبيه أوبا العظيم والملك الحكيم، وامتلأ فؤاده بالسعادة وهو يتذكر آخر أعمال أوبا البطولية . . .
ضرب الوباء بصورة مفاجئة أخبرته أمه كان أوبا يحكم في ذلك الوقت والناس سعداء يتوفر لديهم كل شيء ، وبقدر بساطة الحياة إلا أنه كان لها معنى ، وفجأة جاء الوباء ؟
جاءت النتائج سريعة وحاسمة ، فقد مات الناس بالمئات وسرعان ما تأكد أنهم سيندثرون بسببه وعند ذلك فقط لجأ الحكماء إلى الكهنة .
لقد أهينت الروح المقدسة في هذه الأرض، ولابد أن يضحي رجل بنفسه ككفارة عن ذلك ، على ألا يكون هناك إجبار في الأمر فالشرط الأساس أن يكون فعلا اختياريا تحركه بواعث روحية فقط هي

حبه للناس ، وما عداه فلن ترضى الروح به. كان هذا ما قاله الكهنة .
لفترة طويلة لم يتبرع أحد وأخذ الناس يموتون بالمئات . وفي وقت مبكر من أحد الصباحات قام الملك الحكيم أوبا المحبوب من رعاياه باستدعاء عائلته، ثم احتضن كل منهم وقد تملكته عاطفة رقيقة وأعلمهم بنواياه .
انتشرت القصة كما تنتشر النيران في الهشيم ، وازدادت المناقشات في كل لحظة وتباحث القوم سوية ثم أرسلوا مبعوثا منهم ألا يكفي أننا نموت كالدجاج ؟ فهل يجب أن نعاني أيضا من البقاء دون حاكم ؟ وبالذات حاكم في مثل منزلتك ؟ إننا نفضل الموت جميعا على خسارتك . قيل له هذا الكلام ، بل وقيل أكثر من ذلك، لكن أوبا لم يقبل بالتزحزح عن موقفه .
حدث الأمر ذات عشية كئيبة وكان الأسى يملأ كل القلوب ، والخوف يرتسم على كل الوجوه فيما كان أوبا ، الشهير ، والقائد الحكيم يسير بهدوء نحو الجبل . عمّ الصمت المطبق على جمع الرعايا الحزانى الذين يرافقون حاكمهم المحبوب أثناء رحلته الأخيرة . أحيانا كان يخترق ذلك الصمت الكئيب صرخات تشق القلب تنبعث من البيوت المهجورة على الطريق . كان المكلومون يندبون ميتهم . في كل خطوة تقريبا يتيبس أحد المشاركين في المسيرة ويسقط ميتا مثل عود شجر يابس تذروه الرياح، وهو الذي كان منذ لحظات حيا ومعافى . كان الحزن في كل القلوب والأسى على كل الوجوه .
تم تهدئة روح ذلك المكان وبدأت حياة جديدة وتسلم جدّك الملك . تتبع خطى أوبا ، والده الواسع الشهرة وفخر البلاد . من جديد عرفت البلاد الإشراق والسناء وتمتع الرعايا بالكثير من سبل الراحة . لقد كانت الحياة بسيطة وذات معنىً . . . وفجأة جاءوا ، دونما دعوة من أحد . . . وتعرف بقية القصة يا بني . هكذا انتهت أمه من رواية القصة بصوت حزين .
غادرت أمه الحياة منذ سبع سنين، لكن استعادته للقصة أشعره وكأنها عادت للحياة من جديد؛ وكأنه لا يزال طفل السنوات الست العابث . كان سعيدا ومسرورا لما عرفه من أن الحياة كان لها معنى في وقت ما ، وأنه فيما مضى من وقت كان هناك ملك يعرف كيف يحكم ، ويوما ما قد يكون هناك غيره . . .
صارت هذه الأفكار هي عون أوجنمولا خلال أيام تدريبه الصعبة ، وسرعان ما أصبح أوموتياي يكرهه بمرارة ، فلم يمض وقت طويل إلا وطلب المعلم من تلميذه أن يرحل دون إعطائه شهادة تفيد استكماله لفترة التدريب ، وعليه لم يتمكن أوجنمولا من مزاولة المهنة بالرغم من شعوره بأن تزوّد بما يكفي من قواعد الحرفة ليضيف إليها من عنده ويصبح معلما بذاته . وهكذا وجد نفسه على الجانب الثاني من النهر يطرق باب أوتومولا .
إه ، انظروا من هنا ؟ تعال إلى الداخل . ألم أقل بأنك مرحب بك على الدوام في بيتي ؟ نعم . . . حقيقة ؟ أنا لست متفاجئا ، أليست من الحقائق المعروفة أنّ أوموتياي رجل مجنون ؟ ورغم ذلك فأنا سعيد لما حدث . لطالما حلمت بأن يكون لدي متدرب مثلك ، فمعي ستكون الأمور مختلفة تماما . ستكون حرا في تشكيل المعازق والأدوات والسكاكين بالطريقة التي تحبها تماما . لك مطلق الحرية . طبعا من سيفكر في صنع معزقة ليس بإمكانها تحمّل العمل ، أو أن تكون قبيحة الشكل ؟ فالناس يعرفون أنهم يشترون نوعية جيدة وبالطبع فهم عى استعداد أن يدفعوا أكثر قليلا . لماذا تشغل نفسك بكل من هبّ ودبّ ؟ وأين الضمان إذا كان هذا الذي بإمكانه شراء معزقتنا لن يتمكن من استخدامها بطريقة مثلى ؟ كما ترى فأنت مرحب بك . تعال واجلس .

كان ذلك كيف استقبل أوجنمولا من قبل أوموتولا العدوّ الرئيس لأوموتياي معلمه الأسبق . فهم أوجنمولا شروط قبوله، لكنه عرف أيضا أنه وُعد بالحرية . وعلى كل لم يكد يمر عام واحد حتى استدعاه أموتولا ليفسر له أمراً .
لقد منحتك ما يكفي من الوقت لتتخلص من ذلك الهراء الذي حشى به أوموتياي رأسك ، ولكن يبدو أنك لست في عجلة من أمرك . وربما لا تفكر في الأمر مطلقا . . . نعم ، نعم ، فأنا أفهم أكثر مما تعتقد . فكلكم تقولون هذا ، وحتى في اللحظة التي تقفون فيها ضد المرء ، لكن هذه لعبة قديمة يا فتاي والإجابة التي ستأتي بها قديمة قدم الكتاب المقدس . فأنت لا تستطيع أن ترضي معلمين في نفس الوقت وعليه إما أن تكون معي أو ضدي وقد حان الوقت لتعلن موقفك.
مرة أخرى أصبحت الحياة صعبة لأوجنمولا ، فماذا عليه أن يفعل ؟ لقد كان يرغب في الاحتفاظ بكرامته عندما رفض الذهاب للمدرسة ، ولكنه انتهى ليجعل الأمور أكثر صعوبة . وكأنه لا يكفي في هذه الاوقات العصيبة أن يقع المرء في وسط غرباء يمارسون نزاعات عائلية مما يحرمه من كرامته وحقوقه .
كان كل من أوماتياي وأوموتولا ، كما تقول الشائعات توأمان . أحدهما طويل القامة له جسم رياضي ، والثاني يشبهه في صحة الجسم وما يتمتع بع من صخب ، كما يماثله في الشجاعة والطموح ، والموهبة ، والعمل الجاد ، والعصبية والدبلوماسية ، وكونه معلما من الطراز الأول ، و . . .
بإمكان المرء أن يستمر إلى ما لا نهاية في تعداد نقاط التشابه ، ومع ذلك فهذا التوأم سيكون أول من يمنع وجود مثل هذا التشابه في أي نوع من العلاقة . لم يعرفا بعضهما منذ آدم . ألم تدرس الجغرافيا ؟ فكيف يمكنك أن تفرق بين شخص يعيش على هذا الجانب من النهر وآخر يعيش على الجانب المقابل ؟ ألا يمكنك التعرف إلى علامات الوقت ؟ لماذا إذن لا يمكنك التفريق بين الطريق التي تقود إلى الأمام صوب المستقبل ، والطريق التي تقود إلى الخلف صوب الماضي . . . ؟
لم تكن تلك الحجج تنضب أبدا
سمع أوجنمولا كل شيء ولم يتمكن من شرح كيف أنه لا رغبة لديه في أن يصبح حكما في النزاعات العائلية ، وأنه لا يرغب أن يكون في منطقة تقاطع النيران المتبادلة بين أخوين ، وأن رغبته الوحيدة هي أن يكون حدادا ، مجرد حداد يشكل المعازق بطريقته ، ويحلم بالأوبا ذلك الملك الحكيم ، جده في أوقات الشدة تلك .
هل هذا مطلب مبالغ فيه ؟ لم يستطع أوجنمولا الإجابة على ذلك ، فكل ما يعرفه أن هذا وقت عصيب ، وتمنى أن يتمكن من اجتيازه .
(1) Odun Balogun مدرس للغة الإنجليزية في جامعة بنين ، نيجيريا .

.

العريــس

بقلم : نادين جوردايمر (1)

دخل إلى مخيمه في تلك العشية للمرة الأخيرة ووجد أنّ المكان يبدو أكثر ترتيبا مما قد يكون عليه أي بيت . الرمال التي تتطاير بنعومة في المكان الخالي من الشجر ، وبراميل الماء التي يظللها قماش المشمع ، وأروقة خيمته المغلقة لتدرأ الحرارة . وعلى بعد ثلاثين ياردة جثت امرأة سوداء ، تطحن الذرة بينما يلعب ثلاثة أو أربعة أطفال مغبرين بالتراب بلون صحراء كالاهاري مع كلب أعجف. لم تكن صيحاتهم الحادة إلا كزقزقة طير في تلك الفضاءات الشاسعة التي تاه فيها المخيم .

غالبا ما يتبقى أثر من برودة الليلة الماضية في داخل خيمته ، هواء راكد، لكنه مشوب بالبرودة مثل هواء الكنيسة . هناك يتواجد سريره الحديدي، وثوبه الكاروس الواسع، ووسادته بغلافها النظيف ، وهناك طاولته وبجانبها كرسيه القابل للطي بمقعده المشمع الأحمر، ثم الخزانة حيث يحتفظ بملابسه . على الخزانة تتربع ساعة المنبه التي توقظه في الخامسة من كل صباح، وصورة لفتاة في السابعة عشر من عمرها من فرانسيستاون سيتزوجها قريبا . تواجدت الصورة والمنبه هناك لفترة طويلة يراهما عندما يفتح عينيه في الصباح وفي العشية عند عودته من العمل ، لكن هذه المرة ستكون الأخيرة ، حيث سيغادر صباحا إلى فرانسيستاون في الشاحنة التابعة لمصلحة الطرق . وعند عودته في الأسبوع القادم سيكون قد تزوج وسيحضر معه الفتاة والكرافان التي توفره المصلحة كسكن للمتزوجين . بينما هو جالس على السرير يخلع حذاءه كانت عيناه على صورة الفتاة المبتسمة مثل تلك الوجوه المقتطعة من المجلات ؛ وطفق ينزع بذلته الكاكي المتيبسة بفعل الغبار المتراكم عليها ، ثم نادى بصوت هادئ وببساطة " يا بييت ، تعال هنا ." لكن الرجل الأسود ذو العظام البارزة والحاجبين المرتفعين بفعل مجهود منه كمهرج سيرك يجر قدميه اللتين تنوءان بما يحمل كان قد دخل إلى الخيمة يحمل ليّان استحمام من الصفيح، كان فيه الماء الساخن يتلاطم من جانب لآخر فيحدث صوتا مُرنّا .

بعد أن اغتسل وارتدى قميصا نظيفا من الكاكي وسروالا رماديا قد بُلي من كثرة اللبس ، وسرّح شعره للخلف مستعملا مرهما ذا رائحة زكية، خطى خارج خيمته في نفس الوقت الذي غطى فيه جفن الأفق على عين الشمس الدموية الاحمرار . كان الوقت شتاءً تغرب فيه الشمس بعد الخامسة بقليل؛ وقد اتخذت الرمال الرمادية لونا ورديا باهتا ، أما شجيرات الزعرور المنخفضة فنشرت ظلالا وبقعا ذات لون أرجواني فاتح تتجاور في تناسق ؛ وظهرت على سطح الصحراء بثور ومسام لدقيقة أو اثنتين ، شيء يشبه سطح القمر عندما يشاهد من خلال عدسات المجهر . في هذا الوقت ماتزال السماء محتفظة بنورها فوق الأرض التي تسلل إليها الظلام، وبان الشعاع البلوري الصافي لنجمة المساء . تحولت نيران المخيم ــ ناره ، ونار السود المتأججة هناك ــ من خفقات من اللون المائي لا تكاد تُرى إلى بؤر ساطعة من ألسنة الضوء المتقافزة . ها قد خيّم الظلام . في كل مساء كان يجلس مثل هذه الجلسة أثناء المراسم القصيرة التي تجري في نهاية اليوم ، يعبئ غليونه ببطء، وبنفس البطء يسترخي مديرا ظهره لدفء النار محاول التخلص من عناء يومه بالتثاؤب .

فجأة تسبّب ما كان يشعر به من إثارة في إطلاق ضحكة مكبوتة لنفسه . لقد بدا وجودها أمرا حقيقيا له عندما رأي وجهها في الصورة على خلفية باب العربة المتنقلة، فنهض من مكانه وصار يذرع أنحاء المخيم مترقبا ما ينتظره من وعد . رمى بقطعة خشب أخرى في النار وأصدر أمرًا لبييت ، ثم اتجه نحو الخيمة، لكنه غير رأيه وابتعد مرة أخرى . في الموقع الخاص بهم على أطراف

مخيمه كان عمال الطرق منغمسون في جو الضحك ، والحديث ، والصراخ، وهي الأمور التي لا يتخلون عنها مطلقا حالما ينتهون من العمل . كانت الأذرع السوداء تومض تحت الرغوة الكثيفة للصابون الأبيض ، فيما تسمع شهقة مقرونة بغمغمة عندما يخترق الرأس القوّة الباردة لسطل مملوء بالماء ، ووميض قيعان قدور الطبخ الحديدية تُحملُ من مكان لآخر أثناء عملية الإعداد للطهو التي لا تخلو من ثرثرة . لم يكن يفهم كثيرا مما يقولون فهو يعرف ما يكفي من لغة تساوا ليصدر إليهم أوامره بمساعدة من بييت وواحد أو اثنين من الذين يفهمون لغته الأفريكانس . كان ما يحدثونه من أصوات يلائم هذا الوقت من المساء ، فأحد الأطفال الذي غالبا ما ينخرط في البكاء، كان مستمرا في إطلاق عويل رفيع مُتجاهلٌ من الجميع ، بينما الأطفال العراة مندمجون في لعبة الاستغماية الأمر الذي جعل الكلب يأخذ في النباح ، ثم عاد وجلس إلى النار ليتم تدخين غليونه .
بعد فترة معينة (كانت محددة تماما رغم انها لم تكن مؤقتة باستخدام ساعة، لكنها العادة الطويلة التي تأسست من حساب انقضاء الوقت المناسب بين حمّامه ، وغليونه ، وموعد تناول طعامه) نادى بلغة الأفريكانس هل نسيت طعامي يا رجل ؟
من بعيد خلال رقعة الظلمة غير المنتظمة حيث لا يتقابل الضوءان المنبعثان من نارين متجاورتين، لكنهما يرميان بظلال مبهمة ومتذبذبة وأنوار متداخلة ، طرقت أسماعه ضحكة احتجاج بصوت أجش لم تكن تقديرا لنكتة جديدة أكثر مما هي استمرار في التمتع بأخرى قد قيلت من قبل .
وبعد عدة دقائق : بييت ؟ ما أظن إلا أنك قد حرقت كل شيء ، إه ؟
ماذا ؟
أين الطعام ، يا رجل ؟
في الوقت الذي يناسبه ظهر الرجل الأسود يحمل الطاولة المطوية ومصباح الكيروسين ، وأخذ يروح ويغدو بين الضوء والعتمة حاملا الصحون وأواني الطعام، مبديا عدم رضاه باللغتين الإنجليزية والأفريكانس . تريد الكوكستر ، ولهذا صنعت لك الكوكستر . طلبت ذلك مني في هذا الصباح فقمتُ بتسخين الزيت بشكل جيد ، وجهزت كل شيء . . . أعرف أن هناك بطئا إلى حدّ ما ، لكن لا يمكنني أن أقوم بكل شيء بسرعة ، بسرعة ، بسرعة . لقد تعجلت الأمور هذه الليلة ولا تريد الانتظار ، فمن المستحسن إذن أن تتناول الكوكستر يوم السبت حيث سيكون لدي متسع من الوقت في العشية ، فأنا أعدها بطريقة جيدة . . . نعم ، أعتقد أنه من الأفضل في المرة القادمة أن . . .
كان بييت طاهيا ماهرا " لقد علّمتُ فتاي كيف يقوم بكل شيء " ذلك في الغالب ما كان الشاب يخبر به قومه في فرانسستاون " بإمكانه حتى إعداد الكوكستر ." قال مرة لأمّ الفتاة أثناء واحدة من فترات الصمت الشائكة التي يصعب تجاوزها، وتعبّر هي من خلالها عن عدم رضاها. واجهته صعوبات جمة أثناء محاولته التغلب على تحامل أبوي الفتاة بسبب نوعية الحياة التي بإمكانه أن يوفرها لابنتهما . لقد تمكن من اقناعهما أن الحياة ليست بمستحيلة ، وأبديا موافقتهما على الزواج، لكنهما لا يزالان يظنان أنّ الحياة غير مناسبة ، وجعلته رغبته في إرضائهما وطمأنتهما متلهفا لرؤية الأمور من خلال عيونهما، لكي يحبط اعتراضاتهما من خلال ما يقوم به من تغييرات .
كانت الفتاة قد تربّت في مزرعة ولن تتوق كثيرا لحياة المدينة ، لكن كما أخبرته أمها فليس بإمكانه أن ينكر لأبويها أن الحياة في مزرعة مع وجود أبويها وعائلتها من حولها وتواجد جيران لا يبعدون أكثر من ثلاثين أو أربعين ميلا عنهم ، ستكون مختلفة عن الحياة وحيدة معه في مخيم

لمصلحة الطرق " محاطين بمجموعة من عمال الكافير طوال اليوم " ويبعدون مائتين وعشرين ميلا من المدينة والقرية . أما هو فبكل بساطة لم يفكر مطلقا في الذي ستفعله الفتاة أثناء تواجده في عمله على الطريق ؛ لكنّ بالنسبة لها فإلى أن ينتهي هذا الأمر، لن يشغلها شيء سوى الإعداد للزفاف ، وأختاها الصغيرتان تسيران خلفها مرتديات ثيابا وردية ، وثوب زفافها الذي يحاك لها الآن ولم تتعرف على نفسها فيه ، وكعكة الفرح التي أمر بها تعلوها دمية صغيرة من الخزف لعروس في ثوب الزفاف وعريس يرتدي بذلة السهرة .

نظر إلى المائدة المرتبة وإلى حافة علبة المربى المفتوحة وحافظة الملح وقد ربطت بإحكام بورقة بنية اللون فوق جزئها العلوي المكسور، ثم قال لبييت ، لابد أن تقوم بكل ما هو لطيف عندما تحضر السيدة .

ماذا ؟

نظر كل منهما إلى الآخر و في الحقيقة لم يكن ضروريا قول أي شيء .

لابد أن تعد المائدة كما يجب ، وأن تحافظ على نظافة كل شيء .

دائما ما أحافظ على نظافة كل شيء ، فلماذا تقول لي الآن أن أحافظ على نظافة . . .

انحنى الرجل برأسه على طعامه في إشارة إلى صرفه .

أثناء تناوله لطعامه فكر في التغييرات التي يتوجب القيام بها استعدادا لاستقبال الفتاة . كان معتادا على التصرف حيال المواقف الآنية وليس على تخيل وقوعها . والأمر أشبه بدرس يتم تعلمه بلغة الصمّ ؛ فهو على علم بالمتطلبات العامة، لكنه يخفق إذا وجد نفسه في مواجهة تفصيلة جزئية : لأنه لا يعرفها أو يعرف كيفية التصرف حيالها . لابد أن يبتعد بييت عن طريقهما وهذا هو الأهمّ . سيتطلب الأمر أن يأتي بييت لمقر الإقامة مرات عديدة للقيام بأعمال الطهي والغسيل . غالبا ما يأتي العمال ـ وخاصة المكلفون بصيانة الشاحنات وآلات رصف الطرق ـ إليه بأسئلتهم حول ماذا يفعلون حيال هذا الأمر أو ذاك ، وإن لم يتوجهوا إليه بالأسئلة فلن يحسنوا التصرف . بصق قطعة غضروف لم يتمكن من بلعها وسرح تفكيره في أمر مختلف .. تلك النسوة هناك ـ بإمكانهن القيام بأعمال الغسيل للفتاة . يالهن من مجموعة من الكفيريات عديمات الخبرة ، فهل سيتمكنّ من القيام بأي شيء بصورة صحيحة ؟ عشرون رجلا بالإضافة إلى خمس من نسائهم ـ لن يمكنك إخفاءهم تحت شجرة زعرور ، وكل ما في الأمر أنهم لا يجب أن يتسكعوا في أنحاء المكان ، هذا كل شيء ، يجب أن يفهموا هذا الأمر بوضوح . نظر حوله بحدة خلال دمى الظلال التي تصنعها حاشية اللهب في عتمة الظلمة ؛ تلك الأصوات المتقطعة ، يغلب عليها هدوء الإحساس بالرفقة ، وغير متصلة بسبب تناولهم الآن للطعام ثم سمع صدي ششوت ؟ الذي يحدثه تقطيع الحطب ، والصوت البالغ الخفوت لعويل طفل مستمر أثناء كل ذلك ـ إنهم يقيمون في جانبهم من المخيم ومع ذلك داهمه إحساس بالغرابة ، واعتملت في صدره الظنون .

أثناء تناوله لطعامه توشعت أفكاره بصورة بطيئة ولكن متواصلة ، وهو الأمر الذي لم يعهده طوال حياته من قبل ـ لقد كان مشغول البال . أحدث صوتا عندما مص على إحدى أسنانه ؛ بييت ، بييت ، بييت هذا الكفيري كثير الكلام بطريقة مزعجة . وكيف يمكن لبييت أن يتوقف عن الثرثرة كلما أصبح بالقرب منك ؟ إن تحدث معها .. من المؤكد مثلما هو وجود جهنم أنه سيتحدث معها . فكر في الذي سيقوله لبييت حول هذا الأمر ؛ كلمات مثل تلك الأشياء التي لا تقال ويكتبها الناس على الجدران ليراها الآخرون في لحظات الخصوصية ، ولكن لا يمكنهم البوح بها.

أحضر بييت القهوة والكوكسترس ، ولم يحاول الشاب النظر إليه .

لكن الكوكسترس كانت لذيذة ، هشة ، التصاقية ، وحلوة المذاق . وبينما أحس بالمادة المعتادة والمذاق على لسانه يتناوب عليه مع لسعات القهوة الساخنة ، أصبح على الفور مشغولا بالسعادة المطلقة التي تصاحب عملية الأكل كما ينشغل طفل بكل جوارحه بالتهام علبة حلوى ، ولم تتوان الكوكسترس عن منحه هذا الشعور البرىء بالمتعة الكاملة . عندما بدأ عمله كمشرف على مجموعة عمال الطرق كانت تمر به ساعات غريبة من القلق في الليل وفي أيام الأحد . بدا له أنه يشعر بالجوع، لكنه لم يحس بالشبع عندما كان يأكل ، وكان يذرع أنحاء المكان أغلب الوقت مثل مخلوق جائع . في يوم أحد قرّر فعلا أن يقوم بالمسير (كانت مصلحة الطرق صارمة فيما يخص استخدام شاحناتها في الأعمال الخاصة) مسافة أربعة عشر ميلا عبر الرمال إلى مركز تغطيس الأبقار حيث يتواجد المشرف الحكومي وزوجته يعيشان في بيتهما المصنوع من الحديد المغضن وهما من الأفريكانار مثله، ويعدان الأبيضان الوحيدان المتواجدان في كامل المنطقة بين مخيمه وفرانسستاون . بمحض الصدفة كانا قد قررا في نفس اليوم أن يذهبا لزيارته في سيارتهما وقابلاه في منتصف الطريق تقريبا عندما أخذ يبطئ في المسير مما أصابه من إعياء ودوار بفعل الحرارة العالية . بعد هذه الواقعة بقليل تسلم بييت مهمة الطهي لـه والعمل على راحته ، بل وتعلم حتى صناعة الكوكسترس وفقا لإرشادات قدمتها زوجة ضابط الأبقار للشاب . كانت الكوكسترس تعد إحدى المباهج التي ترتبط بها طفولته ولأن بإمكانه الآن أن يتناولها متى شاء فقد عُدت معلما بارزا لعملية استقراره في المكان، وتحول المخيم الموحش إلى مكان يمارس فيه حياته الشخصية بترتيباتها ومتعها الخاصة .
تعال هنا يا بييت ؟ ماذا فعلت بالكوكسترس ، ها ؟ صاح فيه بمرح
وصلته صيحة كان معناها في الحال ثم ظهر الرجل الأسود وهو يجفف يداه المبتلتان في خرقة، وتبدو عليه مظاهر الحيي المازح لشخص يعرف أنه يبدع في عمله.
ما بال هذه الكوكسترس ، يا رجل ؟
هز بييت كتفيه بلامبالاة أخبرني أنت ، فلست أعرف ما بها .
خذ واحضر لي المزيد منها ، يا رجل . وبتجهم دفع الشاب إليه بالطبق الفارغ، وبينما ذهب بييت ضاحكا ناداه الشاب من خلفه لابد أن تصنعها هكذا دائما ؟
كان يحب تناول شرابه أثناء الاحتفالات والأعراس وفي أعياد الميلاد ، ولم يكن بالرجل الذي يتناول شرابه من البراندي كل يوم . من عادته تناول كأسين من البراندي في عشية السبت عند نهاية العمل الأسبوعي ، وفيما خلا ذلك تقبع القنينة التي اشتراها أثناء مهمته للتبضع من فرانسستاون في الخزانة داخل الخيمة. لكن في ليلته الأخيرة هذه دفعته نزوة لمغادرة مكانه بجانب النار والتوجه إلى الخيمة لإحضار القنينة (ثمة شيء لم يسمح به ، وهو الثقة في أحد الكفيريين لمناولة شرابه ، فتلك غواية كبيرة لا يجب تعريضهم لها .) ثم أحضر مع القنينة كأسا للشراب من الطقم السداسي المصنوع من الزجاج المظلل قليلا وصب لنفسه جرعة ومدد ساقيه حيث يمكنه الإحساس بدفء النار من خلال قاع حذائه . ليس من العادة أن يكون الليل باردا إلا عندما يبدأ هبوب الرياح في الثانية أو الثالثة صباحا، لكنه يحس الآن ببرودة واضحة في الجوّ . بين الفينة والأخرى يأتي أحد الرجال من مخيم السود ليلقم قطعة أخرى من الحطب للنار التي بدأ لهيبها يخبو ويتحوّل إلى اللون الأزرق . شعر الشاب بالتوهج الذي بداخلة يخبو أيضا فعالجه بجرعة أخرى من البراندي، فيما كان عواء الثعالب يصل عنان السماء مثل ريح تلتف ببيت ما، لكن لا يوجد ثمّة بيت عدا تلك الأصوات القادمة من وراء بهرة الضوء المرتعش الذي تطلقه ناره نحو الظلمة. هذا

الخليط من الأصوات التي ينقصها المعنى ، والأطفال الباكون، والسعال ، والتنخع ـ قد كوّن جدرانا تحيط بهم وسقفا يأويهم . زال عنه الغطاء وتحول عاريا نحو الفضاء المحيط بهذا العالم مثل لطخة ماهي في النهاية إلاّ مجرّد ذبابة ملتصقة بنافذة طائرة ، لكنه لا يعلم بذلك .
كان اللحن الجذل لأنغام مختلفة من الموسيقى يظهر ثم يختفي في الظلام ، تنفخ أو تنقر ثم تغطي عليها الجلبة . في هذا الوقت شاهد رجلا أسود ضخم الجثة يكاد سرواله وقميصه الرثة الهيئة أن يتمزعا بفعل ما يتعرضان لـه من ضغط ، كان يمشي بتبختر صامت نحو بهرة الضوء ثمّ جلس في وسطها مبتعدا قليلا عن النار ، أما قدماه المطويتان بألفة فكانتا متشققتان وقد تغير مظهرهما بفعل الأحوال الجوية وأصبحا كما أخشاب طافية فوق الماء . وضع في فمه آلة موسيقية لها وتر واحد تشبه القيثارة قد قدّت من عود خشب على شكل نصف هلال وشُدّ طرفاها بسعفة نخيل جافة . كانت شفتاه الضخمتان تلامسان السعفة برفق ، وفيما هو ينفخ عليها كانت يده تضبط ارتعاشة السعفة التي يحدثها النفخ فينتج عن ذلك لحن هادئ ورائع لا يكاد يسمعُ ولا تلتقطه الأذن البشرية إلا باستخدام الحد الأقصى لمقدرتها . ربما كانت تلك تشبه أول موسيقى يسمعها الانسان عند بدايات محاولاته للوقوف وسط التدافع حول الأنهار . وعندما كانت الموسيقي تتوقف يصبح من العسير معرفة النقطة التي تلاشت فيها .
اعزف لنا اللحن الثاني . قال لـه الشاب بلغة التسوانا ، ولم يتحرك من حوله إلاّ الدخان الصادر عن غليونه .
استقرت اليدان براحتيهما الورديتين حول الآلة ، والشفاه الغليظة الطرية لا تزال مبللة ، وانبعث ذلك الصوت الخافت من جديد . كانت الموسيقى مثقلة بوطأة الوحدة إلى درجة أنّ كلا من العازف والمستمع يحسان بأنهما يسمعانها في داخلهما. في هذه المرة قام العازف بالتقاط عود قصير، وفيما هو ينفخ أخذ يحكّ به أماما وخلفا على السطح الداخلي لقوس القيثارة حيث توجد عليه الثلم المختلفة محدثا صوت انزلاق مرتعش وجاف مثل أصوات حفيف أقدام الراقصين الآتية من بعيد . وهنا بانت لـه هيأتان أو ثلاث لها وجود فعلي أكثر من الظلال حيث يتداخل الضوء مع الظلمة . حضروا ثمّ تقرفصوا بجانب النار، وقد حمل أحدهم نصف صفيحة كيروسين فارغة قد البست حافتها بالخشب وربط إليها أوتار وأسلاك . عندما توقف عازف القيثارة لبعض الوقت نازعا آلته المكونة من قطعة الخشب وسعفة النخيل ببطء عن فمه وماسحا شفتيه بظهر يده، بدأ الآخر في العزف . كانت مداعبة متكررة للحن البانجو وأخذت قدم الشاب تضرب الأرض برفق كما صفق مرة أو اثنتين في توافق مع النغم . ثم اندفع إلى الأمام رجل رفيع الحجم يميل للصفرة وسط تعليقات الحضور وسخريتهم وتوسّد عجيزته واضعا بين قدميه طبقا من الصلصال ، وفي فمه آلة نفخ بألسنة معدنية . بعد تبادل لبعض الحديث بدأ العزف وغنى الباقون اللحن من أنوفهم بصوت منخفض مما جلب المزيد من المتسكعين نحو النار . توقفت الموسيقى بشكل لطيف ثم بدأت من جديد كمن يلتقط نفسا . عند نقطة معينة قال الشاب دعنا نري آلتك الغريبة هذه ، أليست جديدة ؟ ولم يفهم الرجل المشار إليه بالحديث شيئا، لكنه سلمه مندولينه المصنوع من صحيفة الكيروسين مع إحساس بالفخر وبالعجب أيضا لما صنعت يداه .
قلبها الشاب بين يديه وداعب وترها مرة وهو يرسم ابتسامة عريضة ويهز رأسه. لا يتطلب الأمر إلا وترين وعلبة مربى قديمة ويصبح لديك فرقة موسيقية بأكملها ، وقد سمعهم فيما مضى يعزفون عليها ألحانا مجنونة . تطلعت الوجوه المحيطة إليه في حبور ، ضحكوا ثم تبادلوا التعليقات بهدوء . لقد كانت الآلة غريبة المظهر بالفعل ولكنها تعمل بكفاءة . استلم الرجل آلته من جديد وأخذ في

العزف مع قليل من التهريج مما دفع الحاضرين للضحك والتنكيت . كانوا متحلقين حول النار في هذه الأثناء وتعكس وجوههم الضوء المنبعث من اللهب وكأنها قد طليت به، ثم صاح فيهم الشاب بحبور في الأسبوع القادم .. في الأسبوع القادم عندما أعود هنا سأحضر معي مذياعا ، حيث يوجد الكثير من الموسيقى الحقيقية ، كل الفرق البيضاء المشهورة تعزف فيه . . . قال أحد الذين عملوا ذات مرة في جوهانسبرج: ستاشمو وفهم الباقون أن هذه الكلمة تعني ما سيحضره لهم الرجل الأبيض من المدينة وأخذوا يرددون بأدب ستاشمو ، ستاش ـ مو ، .. في الأسبوع القادم ستنصتون إلى موسيقى مثل تلك التي تُعزفُ في الحفلات الكبيرة للبيض في صالات المدينة . ران على الجماعة صمت ودّي تعبيرا عن حالة التقدير لما قيل واستلقوا في دفء النار يرنون إليه بنظرات ملؤها التسامح . ثم حدث لـه شيء غريب ، فقد أحس بسخونة تغشاه . بدأت في رقبته ، ثم أذنيه ووجهه . ليس الأمر بالمهم طبعا لأنهم سينسونه بحلول الأسبوع القادم، فهم لا يتوقعونه منه على كل حال . وأغلق ذهنه على صورتهم متجمعين حول الكرافان للانصات للمذياع ، وهو يخرج إليهم قائلا . . .

فكر للحظة في إعطائهم ما تبقي من قنينة البراندي . ولكن كلا يا رجل ، فما ذلك إلا الجنون بعينه . لو أنهم تذوقوه مرة ، فسيعملون على سرقته طوال الوقت . سيعطي بييت بعض السكر والخميرة وأشياء أخرى من المخزن ليصنعوا البيرة غدا عندما يكون قد غادر المكان . ثم وضع يديه في جيوبه وتمدد بجسمه نحو النار وقد سقط رأسه على صدره . التقط عازف القيثارة آلته من جديد وببطء. كان ما يعتمل في صدر الشاب قد تحول إلى لحن مسموع يخترق المساء خلف النار منطلقا من صدره ومخلفا وراءه الطمأنينة . واستمر صوت القيثارة المتوحد في العزف أكثر فأكثر كأنما قد خرج من الفضاء اللامتناهي وبالإمكان إعادته إليه في أي وقت . لم ينطق أحد بكلمة فقد سقط حاجز اللغة أمام الصمت ، وغادرت الشاب كل هواجس الانشغال فيما غطى سطوع القمر اليافع الشاهق على التجمعات الشائكة للنجوم الباردة مبرزا شكل قيثارة . جلس الشاب دون أن يتفطن للوقت كما فعل من قبل في ليالي عديدة والنجوم تعلو رأسه والنار عند قدميه .

لكن أخيرا توقفت الموسيقى وبدأ حساب الوقت من جديد . لم تكن الليلة هناك ، ولكن الغد موجود حتما عندما سيغادر إلى فرانسستاون . وقف منتصبا فأخذ الجمع في التفرق ، ونفض عازف القيثارة أنفه بأصابعه ، وحملت الأقدام المغبرة أثقالها المعتادة من جديد . توجهوا إلى خيمهم يتبعهم أثر من خيبة الأمل، وتوجه هو إلى خيمته، ثم أصدر تثاؤبا حيوانيا بصوت عال ومزعج ، صوت غير خجول يصدر عن رجل يعيش بمفرده . سار ببطء فوق الرمال ؛ لقد كان الظلام يعم المكان، لكنه كان يسير مسترشدا بالثقة أكثر من استرشاده بعينيه أنت يا بييت ؟ زعق عند وصوله إلى خيمته عليك أن تصح مبكرا صباح الغد . إه ؟ ولا أريد سماعك تقول أن الشاحنة لم تشتغل . اعمل على تشغيلها ثم تعال إلي . هل تفهمني ؟

كان يوقد مصباح الكيروسين الذي تركه لـه بييت على خزانة الملابس ، وبينما أخذ اللهب في التنامي ألقى بضوئه على محتويات الخيمة : الخزانة ، والسرير ، والساعة ، وعلى الوجه المبتسم للفتاة الحيية ذات السبعة عشر ربيعا . جلس على السير ممررا يده خلال فرو الكاروس الناعم الملمس . ثم سحب نفسا وأبقاه للحظات ناظرا حوله بمعنى . التقط الصورة وثنى مسندها ثم وضعها في الخزانة مع أشياء أخرى استعدادا للرحلة .

(1) نادين جوردايمر من جنوب أفريقيا(ولدت 1923) نشرت أكثر من دزينة من مجموعات القصص القصيرة والروايات ، تدور أغلبها عن أحداث في بلدها ، جنوب أفريقيا . اقتسمت جائزة بووكر (بريطانيا) عام 75 ،

ومنحت جائزة الأدب العالمي الفرنسية في نفس العام . منحت جائزة نوبل للأدب في العام 1991 .

.

شبكـــــة العنكبــوت

ليونارد كيبيرا (1)

أضحى جسمه متصلبا داخل التابوت . حاول أن ينقلب ولم يشعر إلا بوخز المسمار الذي كان قد غرز هناك في غير مبالاة ولم يبعد عن كتفه إلا قليلا . لم يحس بأي ألم ، لكنه شعر بأنه قد ذهب إلى غير رجعة ، وأحس بالوحدة كذلك . محاصرٌ داخل هذا الصندوق الحقير بهوائه الفاسد وهو على يقين من وجود الهواء النقي في الخارج. بإمكانه سماع الكاهن الورع هناك في الخارج يرتل صلاة الموتى في نغمة لا تخلو من فرحة بالنصر. . . من التراب إلى التراب . . . إنّ هذا الانتحار يا إخوتى . . . ؟ لا حق لديهم في ذلك ، ليس لهؤلاء القوم حق في القيام بذلك . أخذوا في الغناء فوق قبره بحزن شديد وكأن رؤيتهم لـه يعود من جديد ستخيب أملهم . لكنه مع ذلك سيقفز إلى الخارج وسيجعل تلك المسامير الصدئة ترتد إليهم ، ويعطي درسا لذلك الحانوتي الرخيص في كيفية تحويل الصناديق القديمة إلى توابيت ، فهو في نهاية المطاف ليس مواطنا من الدرجة الثانية . اخرجوني من هنا؟ لكنه لم يجد الطاقة الكافية ليصيح عاليا أو حتى ليدور قليلا بسبب ذلك المسمار المجاور لكتفه، بينما كان القوم في الخارج هناك في عجلة لترديد ترنيمة جديدة ، ليتسنى للأب أن يقول في أية لحظة آمين ؟ ويرسل بالجسد عميقا إلى بطن الأرض من حيث أتى . أحدهم كان يبكي بحرقة في الفواصل بين الإنشاد ، وقد ظن أنها السيدة انجوقو . وأثناء الصمت المطبق الذي أعقب ذلك، وبينما كان يُدلّى في الحفرة شعر بنفسه يحترق بينما كان صندوقه الصغير الوضيع يصرّ عند المفاصل، وتغشّاه بظلمة وقعت عليه مثل حمْلٍ من الخطايا . حذار ، حذار ، فهو ليس كومة زبالة . . . كان هذا صوت السيد انجوقو. إلى الأسفل ، إلى الأسفل ببطء . أصدر الحبل اللامبالي اهتزازات وضيعة عجلى مثل التي تحدثها شبكة العنكبوت، مما أدى إلى ارتطام تابوته على الجنبات ليرسل تحذيرا للأبواب العالية وكل من سيستقبله بأنه في طريقه إليهم ، ثم انهال التراب عليه ببطء . باستطاعته الإحساس بذلك وللمرة الأولى شعر بأهميته . لقد أصبح يعني شيئا ما الآن وكل العيون قد تقلصت من غير شك لتركز على الحفرة المظلمة . بينما الحاضرون يهسهسون: يا لروحه التعسة ، برفق ، برفق . وبعد ذلك انقصم الحبل محدثا صوتا عاليا، ثمّ ارتد جزء من الحبل المقطوع إلى القبضات المشدودة عليه بقوة هناك في الخارج . شعر بنفسه ينطلق نحو القاع ورأسه إلى الأسفل منفجرا في بوابات الجحيم بضجة عالية لم تخل من فظاظة . بانج ؟ .
صحا انجوثو من نومه مذعورا ، ثم مسح العرق المتصبب منه بذيل ملاءته . هذا الأمر ليس في صالحه بالمرّة، ففي السابق كانت أحلامه تدور حول حفلات البيرة ، أو النساء، أو القتال ضد النحل أثناء محاولته طرده من العسل باستخدام الدخان . أما في الآونة الأخيرة فعندما لم يكن يُطردُ بالدخان خارج هذه المدينة التي ينتمي إليها كثيرا في بعض الأحيان، وأحيانا أخرى لا ينتمي لها البتة ، فقد كان يطرح قضيته عند تلك البوابات البيضاء ، أو يحكم عليه بالذهاب إلى جهنم في تلك التوابيت الرخيصة . هذا الأمر ليس صحيا على الإطلاق . . .

لكنه كان في أتم الصحة . دفع بالملاءة بعيدا عنه وثنى ذراعاه ومرفقاه لأداء التمارين ، ثم رفعهما للأعلى وأبقاهما هناك في وضعية الاستسلام . حسن فهذا يكفي . بعد ذلك ثناهما مرة أخرى وضغط بأصابعه على كتفيه فتجمعت فيهما قوة وانعقدا على شكل كروي إلى أن برزت أطراف بُرجُماته. ثم قذف بلكمة شمالية خطرة وأبقاها مشدودة هناك غير متزحزح قيد أنملة إلى أن شعر بالتصلب بالكامل ، وبالدم يضخ في جبهته . تمكن منه الدّوار أخيرا فسقطت يده على الفراش دون

حراك ، ثم فجأة فك التقلص سراح يده اليمنى وارتطمت بقوة بالجدار مسببة ألما وارتعاشة . هل مازالت الأبعاد الصغيرة لغرفته مجهولة له حتى بعد انقضاء ثمان سنوات ؟
لم تكن تلك المرة الأولى على كل حال . ببسالة لا تحدّ قفز مرتين على السرير للقيام بالمزيد من التمارين محاولا تجنب اللولب البارز بين نتوءات الفراش القديم، الذي أصاب فخده صباح الأمس .
أخذ يهمهم أفريكا نييتشي يووتا ، وقذف برجله إلى الأرض . سووــــوا ؟ . سيكلفه هذا التمزيق ثلاثة شلنات ثمن ملاءة أخرى يبتاعها عند الأبواب الخلفية لمسجد كويا . ثم سحب انجوثو نفسه من الفراش .
كان صباح الأحد جميلا ، ولم يكن لديه ما يشغله طالما لن يرتكب خطيئة الذهاب إلى الكنيسة . فقد كانت الكنائس تصيبه بالكآبة ، لكن ذلك الحلم مايزال يزعجه . (كان بإمكانهم على الأقل استخدام حبل أقل تهوّرا) . وتلك المسامير .. ألم يكن لديه ما يكفي من الأمور التي توخزه منذ صافحته السيدة نايت وسلمته خمسة جنيهات قائلة سأراك في إنجلترا . لتأتي بعدها(ممصاحيبته) (2) الجديدة السيدة انجوقو يسبقها أزيزها وتستعير منعه شلنين ؟ ثنى انجوثو ذراعاه فوق صدره وتثاءب ، ثم أخذ شاربه بين أصابعه متأملا، ولفه على شكل قرنين . كان عليها أن تعيد الشلنين على الأقل .. كأن تكاليف المعيشة لم ترتفع هذه الأيام ليأخذ أصحاب العمل بالأمر كأحد المسلمات . وقف عند باب البيت المكون من غرفتين ويتقاسمه مع خادم أخر على النقيض منه، إذ لم يكن يطبخ للمصاحيب. بدلا من ذلك كان كاجو يكلف بمهام مختلفة ، ويهذب العشب ، وينظف فناء الفيلا مؤكدا على أن يتتبع بدقة أثر فضلات الكلاب التي تضعها خلال الليل . بإمكان انجوثو أن يرى ذلك المستيقظ باكرا ، وهو يتشمم ، ويمسح المكان بعد التصرفات الشاذة لوامبوي ليلة البارحة . (وامبوي هي كلبة إلزاسية بنية تم جرجرتها من القرية وتعريضها للصدمة بإدخالها إلى الحضارة ، طوق عنق وعظام معلبة من السيدة انجوقو التي تقوم برفقة صديقتها إلزي بلوم باصطحاب الكلبتين في نزهات مختلفة .) ، ثمّ سرّح انجوثو حنجرته .
أهلا ، يا كاجو ؟
كاجو الذي كان يعاني من قضمة صقيع ، حك إبهام قدمه بين الأصابع واستدار .
كيف كان إفطار الكلبة ؟
نايوكووا ؟
أطلق انجوثو ضحكة ، وقال :
ليس من الضروري أن تهين أمي ، فالعظام المعلبة لوامبوي ، والكورن فليكس لممصاحيب هما نفس الشيء ، سيشنق كلانا إن لم نقدمهما .
اتكأ كاجو على مكنسته وهرش قمة رأسه وقد ارتسمت على وجهه ملامح غباوة ، وأخير اكتشف أن لانجوثو وجهة نظر معقولة .
كان كاجو هذا روحا طيبة ، وخنوعا كما طفل . حقا لم يكن هناك شك في عدوانيته الجاهزة للبروز فجأة عندما يتعلق الأمر بمن هم في مستواه ، لكنه أمام السيدة انجوقو يأخذ في التأتأة ، ويضع ذيله بين رجليه ، لكنه في هذا الصباح كان يشعر بحالة من السلم تجاه العالم.
ربما كنت على حق . قال لأنجوثو ، ثم غطس إصبعه بين أصابع رجله وسأل عن وجود أي من المناسبات البسيطة التي ستجري في هذه العشية ، مثل حفل احتساء البيرة .
الملكـــة ؟

عند سماعه للاسم ، نسي كاجو كل شيء يتعلق بالشراب والتف حول نفسه وشعر بألف شيء يدق في رأسه في نفس الوقت . هل يستمر في الكنس والشم ، أم يذهب لإحضار علب البوب ؟ هل يتوجب عليه فتح علب البوب ، أم يسرع لإحضار صحيفة الأحد ؟ ترى هل تفضل السيدة انجوقو تنظيف وامبوي بالفرشاة خلف اذنها ؟ أم تراها قد خرجت الآن لتسأله عن سبب وجود الحبل مرميا عند الباب بينما وامبوي تدور بدون رباط في أنحاء المكان ؟
بمؤخرته المتجهة نحو باب ممصاحيب اتخذ كاجو وضعية المنهمك في عمله وأسترق النظر من بين رجليه ، لكن ممصاحيب لم تكن قلقة بشأنه ، ليس الآن على الأقل . وقفت عند الباب برجليها في وضعية انحراف ، وأخذت تقرّع انجوثو بسبب الكورن فليكس .
أطلق كاجو زفرة اطمئنان وأخذ ينظف بمكنسته بحرارة، فقد رأي انجوثو يستند بظهره إلى بيت الخدم فكتم ضحكة . بعد تلقيه لسيل من الكلمات باللغة الانجليزية بدأ يخطو بحذر مسافة الخمسين خطوة الصعبة التي تفصل بين البابين ، الفجوة الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية التي لن يكون بالامكان تجاوزها . أثناء اقترابه من السيدة انجوقو بدا وكأنه يأخذ مسارا بانحناء تكتيكي خرج به عن الممر ليتجه إلى الحائط أولا، ثم يعود أدراجه ببطء نحو باب أسياده ، وكان يأمل أن تفسح لـه ممصاحيب الطريق . أما بالنسبة للملكة فقد رفرفت بجناحيها ونشرت نفسها في الموقع بنوع من الترف ولسان حالها يقول : ستضطر للركوع والغطس بين ساقي إن أردت الدخول . ثم أخرجت لسانها مرتان ، ورفعت ثدييها ، وبصقت لبنا وعسلا على الممر ، ثم اختفت في الخلية ، وتبعها انجوثو .
هرش كاجو إبهام رجله وافترش الأرض ليضحك .
انتهى افطار ممصاحيب ، وغادر انجوثو البيت لقطع آثار مسمار مؤلم في قدمه بسكين المطبخ . بإمكانه تحمل نتيجة هذه المغامرة وقد أدخل ذلك السعادة إلى قلبه، لكن عليه التحرك إلى الجانب الآخر من الجدار فقد كان السيد انجوقو يستخدم في هذه اللحظة صندوق طرد دورة المياه وربما يقرر أن يفتح النافذة الضبابية الصغيرة، وعندها ستقع عينه على ما يفترض أن يكون سكين المطبخ النظيف وهو يلمع تحت أشعة الشمس فوق ضفر رجْلٍ قذرٍ .
الإفطار . ألا تستطيع ممصاحيب الوثوق به فيما يخص الحليب والسكر حتى بعد العمل معها لأربع سنوات ؟ هل من الضروري أن تطن حوله وهو يكيل مقادير الفطور لشخصين ؟ لم يكن لديه شيء ضد الكورن فلايكس . في الحقيقة فمنذ أن أصبحت تشك في أمره ، أصبح يجد نفسه يلتهم كميات أكثر من طعامها كلما غفلت عنه، وكان أيضا يأخذ بعض السكر في جيب صديريته، لكنه أصبح يكره نفسه لهذا التصرف وشعر بأنه طريقة الجبناء في الانتقام . مع ذلك ما الذي يمكنه أن يفعله ؟ فقد بدأت السيدة انجوقو تصبح في عينيه غريبة بصورة متزايدة ، بل اكتشف أنه ينظر إليها من طرف عينه بينما كان في السابق يحدّق في وجهها مباشرة . كان يودّ أن يتحدث معها ليؤكد لها أنه لا يزال خادمها الموثوق به، لكن كل شيء أصبح متشابكا وحساسا بصورة أكبر . كل ما ستقوله إنه ينتقدها ، وما الذي ينتظر إن لم يكن سعيدا بالعمل ؟ لكن أين سيذهب إذا تركها ؟ لقد أطلق سراح البطالة في كامل البلاد كما لم يحدث من قبل مطلقا ، وستسمع ربات البيوت في المنطقة أخبار وقاحته مضخمة إلى أبعد الحدود عبر الهاتف من السيدة انجوقو قبل أن يذهب إليهن طالبا للعمل، وقبل أن يطلقن عليه سراح كلابهن .
حك انجوثو شعر رأسه الأشيب وأيقن أن قومه قد تجردوا بالكامل من عادة إبداء الاحترام لكبار السن . هل هذه هي نفس الفتاة التي عرفها في السابق باسم لويز في قريته ؟ من المفارقة أنها كانت

صديقة لابنته . كانت صغيرة ، خجولة ، بساقين نحيلتين ووجه تغطيه البثور . كانت لويز معلّمة في مدرسة القرية وتعد مثالا جيدا لكل الناس ، فقد فضلت أن ترتدي الملابس الرخيصة عوضا عن رؤية والديها المسنين يجوعان لقلة النقود .
يجب أن تقتدين بلويز كانت الأمهات يحذرن بناتهن ويصلن إلى حد الضرب للتأكيد على هذا الأمر وما عنينه في الحقيقة هو أن يبقين ، مثل لويز دون زواج لفترة أطول ، ولا يفرّن بكل ببساطة مع أي شاب يرتدي أشيك الملابس ويرفض دفع المهر . سرعان ما صار الوضع أسوأ لمثل أولئك الفتيات عندما أصبحت لويز بطلة للقرية ، ودخلت السجن .
أثناء حصة معلومات عامة كتبت لويز السؤال على السبورة، بينما السيدة المشرفة التي تمر على المدارس واقفة بثبات في الجهة المقابلة . نظرت لويز إلى التلاميذ وهزت عصاها إلى الأسفل والأعلى ثم قالت :
ما هو " الكومنويلث " يا أطفال ؟ لا تخجلوا ، فما الذي تعنيه هذه الكلمة ؟
عضّت البنات على أناملهن .
هيا ، هيا ؟ . إذن سنباشر من البداية . . . من يحكم إنجلترا الآن ؟
ببطء أدارت الفتيات رؤوسهنّ وواجهن المشرفة البيضاء . كن يعرفن أن عليهن أن يقلن إليزابيث .
لكن لماذا أوصلتهن لويز إلى هذا الحد ؟ لقد كانت إنجلترا بالنسبة لهن مبجلة بما يكفي . فهل يجب عليهن الاستمرار بحيث تسمع تلك السيدة البيضاء التي تقف خلفهن نطقهن الخاطئ لاسم ملكة إنجلترا ، بل وحتى أن تتفوه به هذه المخلوقات الغضة ولا تزال أنفاسهن تعبق برائحة البصل الذي تناولنه البارحة ؟ من ستكون الأولى ؟ عقدن أصابعهن تحت الأدراج ونظرن إلى كراريسهن وأجبن واحدة تلو الأخرى بعدم المعرفة . قامت فتاة أو اثنتان شجاعتان منهن بالالتفات خلفا ليواجهن بنظرة غريبة تنبئ عن كارثة في عيون الملكة البيضاء ، ومباشرة أدرن أنظارهن نحو السبورة لتقع على عصاة لويز ، فانخرطن في البكاء .
كأنكم لم تسمعوا بالاسم مطلقا . وبدأت لويز تفقد صبرها طيّب . للمرة الأخيرة سأعطيكم تلميحا آخر . ما اسمُ بلادنا ؟
في نفس الوقت انطلق من تحت المقاعد تجمع من الأيدي ، وبصخب صاح أربعة وثلاثون نفسا من الذرة والبصل :
مستعمـرة ؟
بتأنّ وبخطى خفيفة عبرت السيدة المشرفة الفصل ، وضيقت من الفجوة التي تفصل بين السيد والخادم لتقف قبالة لويز وجها لوجه .
عض الأطفال على المماحي المطاطية .
ثم صفعت الملكة البيضاء لويز على فمها واتجهت إلى باب الفصل ، لكن لويز أمسكت بها من شعرها وردت لها صفعة واثنتان وبصقت على وجهها ثم أعطتها ركلة كروية، وأطاحت بها بضربة يمينية .
أخيرا وعندما نظرت لويز إلى الفصل لم تر إلا كراريس ممزقة مرمية على الأرضية ، وهرب أربعة وثلاثون زوجا من الأرجل عائدين إلى بيوتهم عبر النافذة، من ناحية طلبا للعون من حكومة الملكة التي كان مؤكدا قدومها على وجه السرعة ، ومن ناحية أخرى لنشر أخبار ملكتهم وبطلتهم الجديدة .

لقد كانت ملكة بحق . فكر انجوثو بينما كان يستند إلى الجدار بظهره . كورن فليكس في السرير ؛ ملابس غالية الثمن ، وسجائر . هل هذه هي لويز ؟ لقد جاء السيد انجوقو مباشرة من الجامعة ليحصل على عمل مهم كان يشغله أجنبي، ثم شوهدت سيارة أنيقة بجوار منزل لويز ، ومع الوقت أخذت تلك الزيارات تتكرر وتنذر بالخطر . لكن لم يفاجأ أي من أهل القرية عندما نجح انجوقو أخيرا في إبعاد لويز عن ذلك المجتمع المحافظ، وقال إنّ دفع المهر أمر يليق بسكان الجبال .
لكي يلعب الحظ لعبته لأنجوثو ، غادر السيد نايت وزوجته البيت وجاء انجوقو وزوجته ليشغلاه ، أما هو فكان سعيدا لأن يغسل ملابس السود كنوع من التغيير . لقد أقسم الجميع أنه سيعملون على بناء شيء ما معا ، شيء يمتلئ بالتحدي والمسؤولية، شيء سيجعل الرجل الأسود يحظى بالاهتمام في بلده ، وكان انجوثو على استعداد للخدمة ولأن يحافظ على النار مشتعلة ، وهي التي كان دخانها سببا في إخراج الرجل الأبيض . منذ الآن لن يكون هناك ثارات أو استغلال . وبعد ذلك لم يتوقع شيئا لنفسه فقد كان يعرف أنه سيكون هناك دائما سادة وخدم .
هرش انجوثو نفسه بين الفخذين وسقط مستندا على الجدار . أمعن نظره في العنكبوت الذي كان ينسج بيته تحت الشرفة ببطء ودقة مطلقة . قذف بحصى صغيرة على النسيج ولم يفلح إلا في لفت انتباه العنكبوت .
ألم ينبض قلبه بقوّة مع آلاف الآخرين في ذلك اليوم، وهو الذي كلما أغلق عيناه يرى شيئا مثيرا وميراثا من المسؤوليات التي تتطلب روح المقاتل ؟ ألم يصلّ من أعماق قلبه من أجل التعاون والانسجام ؟ لكن ما يتبدى لـه الآن هو أنّ الهدف المشترك قد غاب عن النظر وأصابه ذلك بالفجيعة . لم يملك إلا أن يشعر بأن المحاربين قد ألقوا بنبالهم جانبا وذهبوا في طرق مختلفة ليعملوا من أجل مصالحهم . وبينما هو يمعن التفكير في مقتنيات بيوتهم ، لم ير إلاّ طيف لويز التي لم يعد يجرؤ إلا على مناداتها بممصاحيب ، فقد بدت في ذهنه تتحرك بقوّة وذات نفوذ كبير.
تساءل انجوثو في نفسه إن كان هذا هو البيت الذي عرفه في السابق . هل هذا هو الجزء الذي يربط بين السيد والخادم ، والذي كان في غاية الوضوح والمباشرة مع السيدة نايت ؟
بالتأكيد فهو لا يرغب في عودتها ، فقد ضُرب عدة مرات من قبلها ، وأحسّ كيف يكون الأمر عندما يضرب بمقلاة من قبل السيدة نايت وهي تذكره في نفس الوقت بأن يكون ممتنا لها. لكن كل شيء كان في غاية الوضوح وبدون تمسك بالشكليات : فقد أكدا لـه أنهما لم يكونا يحبان أنفه الأفطس ، وأنهما يعتقدان أن الفئران تعيش تحت سريره . كانا يسخران منه بقولهما إنه إنما يكره كل ما يمت للون الأبيض في الوقت الذي يتحول فيه شعر رأسه إلى البياض المشابه للثلج. البياض المنعش هو الذي يحمي قمة رأسه ، أما تحته فلا يوجد إلا ذاك الحيوان الأسود يغلي برفق وينسج المكائد في نفس الوقت . هل يرغب في حلاقة شعره ؟ كلا ، فهو لا يرغب في ذلك. أحيانا يبديان سرورهما بدجاجة أو ديك رومي مطهو جيدا وهما يتحدثان عن مسؤوليات البيض في أفريقيا . إذا لم يكونا رائقي المزاج فإنهما يصرفانه ويطلبا منه ألا ينسى إحضار القهوة . لقد عرف انجوثو أنّ كل ما يحدث هو بسبب ما يعتريهما من ارتباك وخوف . وأنهما ربما كانا مضطران لتوجيه السلاح نحو كل السود في الوقت الذي أصبحت فيه حتى الكنيسة منحازة . لكن مهما كان الوضع في البيت فقد كانت هناك صراحة في العلاقة بين البيض والسود ، حيث لا ضرورة للتنميق والاعتذارات في محيط من الكراهية وانعدام الثقة . وإذا كانت السيدة نايت هي التي تقوم بنهره طوال الوقت ، فقد جالت بخاطرة فكرة أنّ السيد نايت هو من كان يغلق باب غرفة النوم ويلقي بثقله عليها وعلى ما عداها، رغم أن الجميع تحكمهم امرأة في إنجلترا .

سار انجوثو بتثاقل نحو الشجرة اليافعة التي زرعتها السيدة انجوثو منذ ثلاث سنوات، وتساءل عن سبب لجوئه في هذا الصباح إلى القيام بالسير في اتجاه منحنى عندما كانت ممصاحيب تغلق مدخل البيت ، وهو يعلم أنها لم تكن المرة الأولى التي يفعل فيها هذا الشيء . أصبح كل شيء ملتويا، ومصقولا ، وعليه أن يراقب تصرفاته ، فصحيفته الشعبية الشهرية أكدت ذلك ، وشعر بالنتيجة أنه محاصر . قبض على الشجيرة من عنقها وهزها بعنف . تالله ما العيب في بعض أولئك الرجال ؟ هل أصبح السيد انجوقو ذكرا لا حول له في خلية عسل الملكة السمينة التي تقوم في تمهل بحلبه إلى أن يجف ويفقد كل حيوية ، ويشرف على الموت ؟ أين هو من المحارب القديم الذي يعود إلى بيته عند انتهاء المعركة ، ويجعل امرأته تئنّ تحت عرقه الغزير ؟ كل ما يراه قبالته وهو يهز الشجرة هو صف من البيوت الأنيقة . هنا حيث وصل المحاربون إلى نهاية معركتهم وافترقوا ، لينسوا رفاقهم ولتتم هدهدتهم للنوم دون حتى أن يتفطنوا لذلك . يلتقون أحيانا فقط ليشربوا البيرة ويرددون الأغاني التقليدية . وهناك حيث كان يوجد في السابق القوس والسهم عند ناصية السرير ، لم ير انجوثو سوى مؤامرة الطاولة المستديرة ، وكتاب الدليل إلى أحدث الأوضاع مرميا بجانب الوسادة .
لقد جاهد لكي يفهم ما يجري . لكن عندما تقع عينه على زوجاتهم الحوامل، حيث لا يرى إلا جيلا جديدا من المتملقين المساكين الذين سينقلهم سائق إلى المدرسة وهم يرتدون كابات تغطي مقدماتها أعينهم لتمنع عنهم الرؤية. وسيتعلمون في تلك المدارس أن الجانب الآخر من المدينة مملوء بالقذارة . بصق انجوثو تحت الشجرة مباشرة . لقد جال بخاطرة مرة أو اثنتان أن يركل السيد انجوقو الذي كان يبدو له أنه في غاية الاقتناع بأناقته ونظافته وهو يجدّ في إثر زوجته ويغمغم بسبب ياقة غير مكوية و ـ أثر لبقعة مربى فوق رباط عنقه ـ
أصبح انجوثو حساسا للغاية وواعيا بذاته أيضا . فلم يعد بإمكانه التذمر قليلا من الضرائب أو التندر حولها دون أن يكتشف أحدهم وجود مغزى حاذقا خلف تلك الابتسامة ، حيث يفترض وجود الخادم في مجال المؤامرة الكاملة . وهناك خلف السيد والملكة ثمة مخطط أكبر ، نموذج معين محاط بسياج فوق الخلية غاية في دقة التصميم ، شبكة محكمة البناء يكمن في مركزها العنكبوت الذي يحمي ، ويراقب ، ويسجن في ذات الوقت. كان انجوثو يعرف جيدا أن هذه الشبكة كانت قد بُنيت ببطء وبكل هدوء ، وأنّ رميها بحصاة لن ينجح إلا في تنبيه العنكبوت وستسقط على الأرض بوهن .
رمى بنظره إلى الجانب الآخر من المكان ، فوجد أن كاجو قد استغرق في النوم بينما كانت وامبوي تدور طليقة في أنحاء المكان وحبلها لا يزال ملقيا عند الباب، فأحس انجوثو بالوحدة وبأنه مغلوب على أمره وواقع في شرك . بصق في اتجاه كاجو واقتلع أملودا من أحد أغصان الشجرة الذي بدأ مكانه يتحلب . أحكم قبضته حول الغصن وطرح عنه وُريقاته المقاومة . إنه فقط يريد أن يعرف ما الذي أصاب الرّب ؟
لقد أدى الإله القديم مهمته بكل إخلاص عندما ذبلت شجرة التين تلك عند قرية انجوثو وفقا لنبوءة عراف القبيلة . كان خبرا متداولا في أوساط الناس حيث أشيع مؤخرا عن قيام أحد رجال الأعمال بتشييد فندق في عين المكان تكريما للإله القديم . أما انجوثو فبالكاد كان يؤمن بأية آلهة على الإطلاق. أحدهما كان يعيش داخل دم فاسد ، ينما يتواجد الثاني فوق منابر المبشرين المنافقين ، ولكن كان عليهم على الأقل وهم يحرصون على أناقتهم أن يكرموا القديم بطريقة شريفة . كيف

لهذا المنقذ الجديد أن يشتت المحاربين في طرق مختلفة ومقصورات منعزلة لكي يسرّحوا مراحيضهم فوق الإله القديم؟
مسح انجوثو بيد مبجلة فوق جبهته المتغضنة ومررها فوق رأسه الأشيب، ثم اقتلع أملودا ثانيا من الشجرة الخطرة . وفجأة سمع أزيزا فوق أذنه .
ماذا تفعل بشجرتي ؟
ثم تحوّل الأزيز إلى صراخ .
أريد أن أنظف بها أسناني . وبين أنجوثو صفا من الأضراس البارزة في تحدّ .
رفرفت الملكة بجناحيها وحطت على الأرض بشكل متقن . ثم بدأت تلهث بقوّة وتنظر إليه شذرا بعيون ضيقة بينما هو يحاول تلافي نظراتها . إلى الخلف منها وخلال نافذة غرفة النوم وقع نظرة على السيد انجوقو يلمّع نظارته بكم منامته ، ويحاول جاهدا التركيز ــ بوضوح ـ على ما يجري في الخارج . رفرفة من الجناحين، ثم شعر انجوثو بضربة على الفم من اليد التي ضربت السيدة البيضاء ذات مرة . بعد ذلك تمايلت الملكة في طيرانها وحطت عند الباب صارخة في السيد انجوثو للخروج وإثبات رجولته .
لم يسعد السيد انجوقو بما رأى ، فرمى بنظارته وفضل أن يرى الأشياء معتمة .
يا لهاته النسوة . غمغم متذمرا ملوحا صوبهم بكم منامة أنيق، ثم دفن رأسه تحت الملاءة وبدأ في الشخير . كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا .
وقف انجوثو مشدوها فخارج كوخ أمه لم يسبق وأن ضربته امرأة من قبل . شعر بعينية ينغلقان وجفنية يشتعلان بعنف تحت لهيب الشمس . من شبكة العنكبوت تدفق إلى فكره بصورة مكثفة ، شرطة ، ورجال قانون ، وحانوتيين من الدرجة الثالثة . فتح عينيه وهو يتصبب عرقا ثم وقع السكين من يده تحت الشجرة مسددا طعنة إلى مكان وقوعه واهتز مرة ، ثم أخرى ليسقط بعدها على جانبه دون حراك .
بعد ذلك أمسك بالسكين مطلقا صرخة مدوية ودلف إلى البيت مسرعا ، لكن السيد انجوقو رآه قادما بينما السكين يلمع أكثر قربا وأكثر وضوحا في نظره ، فما كان منه إلا القفز من السرير .
فجأة غلب عليه ما أحدثه من رعب ، وبإمكانه على الأقل رؤية الملكة تبكي بهستيريا على الهاتف بينما حبس السيد انجوقو نفسه في الحمام وأخذ يبكي بمرارة . ألقى انجوقو بنظرة على السكين في يده . لقد نجح فقط في طعن الرجل في فخده وقد انقلب السكين الآن إلى اللون الأحمر . سرعان ما سيمد العنكبوت اللزج خيطا ، وسيقبضُ عليه كما لم يجرب ذلك من قبل عندما شعر بالسعادة لأنه سيعمل في خدمة لويز .
وقع نظره على حبل وايومبوى لا يزال مرميا عند الباب ، فاتجه مباشرة إلى غرفته وأغلق عليه الباب .

(1) ليونارد كيبيرا ترعرع إبان سنوات الأزمة في كينيا ، نشرت له رواية " صوت في الظلام " ونشر مع أخيه صامريل كاجيا مجموعة قصصية بعنوان " الرماد الحي "

(2) ممصاحيب : Memsahib لقب يطلق على سيدة أجنبية بيضاء ، واستعمل للمرة الأولى في الهند لوصف زوجة الموظف البريطاني

.

الأوراق الخضراء

بقلم : جريس أوجوت (1)

لابد وأنه يمرّ بحُلُمٍ ، لكن الأصوات تعالت ، وعند ذلك أزاح نياجار الملاءة عن أذنيه وأرهف السمع . نعم فهو محق لأنّ أصواتا ووقع أقدام ثقيلة كانت تقترب . التفت ليوقظ زوجته لكنها لم تكن موجودة فنهض من مكانه وأسرع إلى الباب فوجده مشرعا . أين نايموندهي ؟ وكيف أمكنها التسلل عائدة إلى كوخها بكل هذا الهدوء؟ تساءل في نفسه . لقد أفهمتها مرة بعد الأخرى ألاّ تترك كوخي مطلقا قبل أن توقظني لأوصد الباب . سترى ما أنا فاعل بها غدا ؟

إرو ، إرو ، هناك ، هناك ؟ أصبحت الضوضاء قريبة منه الآن ـ حوالي الثلاثين ياردة ، فلف نياجار الملاءة فوق جسده الضخم ثم تلمس حوله باحثا عن رمحه وهراوته وغادر الكوخ .

بتي ، بتي ، بتي . كانت مجموعة تركض في اتجاه بوابته ، ففتح البوابة واندس ملاصقا للسور . لم يُردْ نياجار ملاقاة المجموعة مباشرة لقناعته بأن شخصا خطيرا ما تتم مطاردته .

مرق ثلاثة أو أربعة رجال من خلال بوابته ، ليقتفي أثرهم مجموعة كبيرة ، فما كان منه إلا مغادرة مخبئه وتعقب الجميع .

أولاد الزنا هؤلاء أخذوا ثيراني الستة الحرّاثة سمع صوتا يسبّ .

لا تقلق ، فسيدفعون ثمن فعلتهم . أجابه صوت آخر .

التحق نياجار بمجموعة الملاحقة ، و تبين لـه الآن أنّ الثلاثة أو الأربعة رجال الذين رآهم يعبرون بوابته هم لصوص الأبقار ، وقد التفوا الآن حول منعطف . هناك على بعد حوالي الثلاثين ياردة تتواجد أشكال ثلاثة ، ولا يمكن إلا أن يكونوا هم سارقو الأبقار .

لا تدعوهم يفلتون . صاح أحد الرجال .

لن يتمكنوا من ذلك . أجاب الجمعُ في آن واحد .

أخذت الفرجة بينهم تضيق ، واختفي الهلال فساد الظلام المكان .

لا تطلقوا أي رمح . حذر أحد الشيوخ ، فباستطاعتهم استخدامه ضدنا إن لم يصب الهدف .

سلك اللصوص المنعطف الخطأ ، واغفلوا استخدام الجسر الذي يعبر نهر أوبوك الفاصل بين عشيرتي المسالا والميروجي، واتجهوا بدلا من ذلك إلى اليمين ، وعند محاولتهم عبور النهر وجدوا أنفسهم وسط دوّامة فتدافعوا خارج الماء وجلين .

إرو ، إرو . ندت صيحة عن مجموعة الملاحقة .

قبل أن يتمكن اللصوص من العثور على موقع آمن يمكنهم عبور النهر عنده ، لحق بهم الجمع وعملوا فيهم ضربا بهراواتهم حتى أوقعوهم أرضاً، فملأت صرخات المقبوض عليهم أرجاء المكان ، لكن الجمع لم يبد حيالهم أية رحمة .

أثناء المعركة هرب أحد اللصوص واختفى داخل الدغل الكثيف المجاور للنهر .

اتبعوه ؟ اتبعوه ؟ . صاح أحدهم .

ركض ثلاثة من الرجال في الاتجاه الذي اختفى فيه وأصوات زفيرهم تتعالى بقوة . كان الدغل كثيفا ومليئا بالأشواك فتوقف الرجال في أماكنهم دون حراك وأرهفوا السمع لكنهم لم يسمعوا صوتا . أخذوا يهوون بالضرب على شجيرات الدغل من حولهم ـ ومع ذلك لم يسمعوا صوتا . لقد هرب طريدهم.

استل لص آخر مديته وغرسها في عظمة كتف أحد المطاردين الذي سقط خلفا والمدية لا تزال مغروسة فيه . وأثناء الفوضى التي تلت ذلك نهض اللص واتجه مسرعا إلى الدوّامة ، ولدهشة الحاضرين فقد شوهد وهو يسبح دون عناء عبر الدوامة إلى الجانب الثاني من النهر .
جذب نياجار المدية من كتف أومورو ووضع يده فوق الجرح لمنع النزيف . أما أومورو الذي لازال يرتعد فقد ترنح واقفا واتكأ على نياجار . كانت خيوط من الدم تسيل على ظهره إلى أن أصبحت إليتيه مخضلتان به .
أحد اللصوص كان لا يزال مرميا يئنّ على الأرض ، وبما أنّ الآخران قد تمكنا من الهرب فقد اراد الجمع أن يجعل أمثولة منه . ضربوه عدة مرات على الرأس والصدر ، فتأوّه ثم بسط يديه ورجليه وكأنه يسلم الروح.
أأ ، أأ صرخ فيهم أومورو لا تدعوا العدو يموت بين أيديكم . فستظل روحه مقيمة في قريتنا . دعوه يسلم الروح بعد أن نعود إلى أكواخنا.
استجاب الجمع لتحذير أومورو . فقطفوا أوراقا خضراء من الأشجار القريبة وغطوا بها الضحية بالكامل ، لكي ينادوا في صباح الغد على القبيلة بكاملها للحضور ودفنه بجوار النهر.
عاد الرجال سائرين إلى بيوتهم في صمت . مشى أومورو الذي توقف كتفه عن النزف ، مستندا إلى صديقين لـه تطوعا لمرافقته إلى بيته . لا يزال الضوء غائبا، لكن عيونهم قد تعودت الآن على الظلام ، وعندما وصلوا إلى بيت نياجار ــ كانت البوابة ماتزال مشرعة .
تذكرْ أن تنهض مبكرا صباح الغد ، قال لـه أحد الأصوات لابد أن نكون في الموقع لنمنع النساء من التوجه إلى النهر .
دلف نياجار إلى بيته بينما واصل الآخرون المسير دون النظر خلفهم . لابد وأن النساء كن يقظات ولكنهن لم يجرؤن على محادثة أزواجهن فقد كانت القرية مهدّأة . مهما يكن الذي قد حصل فسيعرفنه لا محالة في الصباح . وبعد أن اطمأنن لعودة أزواجهن سالمين استدرن للجهة الأخرى واستغرقن في النوم .
دخل نياجار إلى كوخه ، ثم بحث عن صرة دوائه إلى أن وجدها في ركن الغرفة . فتحها ثم أخرج منها حاوية صغيرة من خشب البامبو . فتح الغطاء واغترف بعض الرماد ووضع قليلا منه على لسانه وخلطه جيدا بلعابه ثم بلعه . وضع قليلا منه على راحته ونفخ في اتجاه البوابة، وبينما كان يضع حاوية البامبو في الصرة ، أحس بالسلام يغمر قلبه .
جلس على حافة سريره وأخذ ينزع ثيابه ، ثمّ غير رأيه . بدلا من ذلك جلس هناك وراح يتطلع في الفراغ أمامه . في النهاية استقر رأيه على الذهاب إلي الميت بمفرده.
فتح الباب ببطء وأغلقه خلفه بهدوء . لا أحد يجب أن يسمعه . لم يتردد عند البوابة وسار أمامه على نحو أعمى .
ترى هل أغلقتُ البوابة ؟ تساءل في نفسه ثم نظر خلفه . نعم لقد أغلقها ــ أو أنها بدت له كذلك.
فيما عدا صوت مشؤوم راح يخترق ظلام الليل أحيانا ، فقد ران الصمت على كل شيء. لابد وأن الفجر كان يقترب فبالإمكان رؤية ومضات الضوء الباهتة والذهبية التي تظهر في الشرق ترتفع من جوف الأرض نحو السماء، وهي عادة ما تكون بشيرا لمولد يوم جديد . لابد وأنه يحتفظ بالكثير من النقود في جيبه قال نياجار لنفسه بصوت مرتفع . كان يعلم أن سارقي الماشية يبيعون الأبقار المسروقة في أقرب فرصة تسنح لهم .

كان الآخرون حمقى لعدم تفتيشهم إياه . توقف ثم أنصت . هل ثمة أحد قادم ؟ كلا ، فما هي إلا صدي خطواته .
ربما يكون اللصان الآخران اللذين هربا قد عادا إلى الموقع ؟ فكر في نفسه بعصبية . كلا ، لا يمكنهما ذلك ـ لا يمكنهما أن يكونا بهذا الغباء ليضلا في نفس المكان .
وقع نظره على كومة أوراق الخضراء فسرى خلال عموده الفقري ألم خدري صاعق ، وظن أن قلبه قد توقف عن النبض . توقف ليتأكد من الأمر فوجده لا يزال ينبض ، كل ما في الأمر أنه يشعر بعصبية فقط . تحرك إلى الأمام بسرعة أكثر وقد أزعجه صدى وقع خطواته .
عند وصول نياجار إلى موقع الجريمة لاحظ أن كل شيء باقٍ على نفس الهيأة التي تركوها من قبل . توقف هناك لوهلة غير مدرك ماذا سيقرر ونظر في كافة الاتجاهات ليتأكد من أنّ أحدا لم يأت ، فلم ير مخلوقا . كان لوحده مع جثة إنسان وعندها شعر بالعصبية . لماذا تزعج جثة إنسان ؟ سأله هاتف من داخله . ما الذي ستفعله بالنقود ؟ فلديك ثلاث أزواج واثنا عشر طفلا . لديك الكثير من الأبقار وما يكفي من الطعام فماذا تريد أكثر؟ استمر الصوت الذي بداخله وأحس بعصبيته تزداد . كان على وشك النكوص على أعقابه عندما حثته على البقاء رغبة شديدة أقوى من إرادته .
قطعت كل هذه المسافة من أجل قضية واحدة ، وهاهو الرجل يرقد ميتا أمامك . فما عليك إلا أن تضع يديك في جيوبه وستكون كل النقود من نصيبك . لا تخدع نفسك بملكيتك لما يكفي من الثروة فلا أحد في هذا العالم لديه ما يكفي منها .
انحنى نياجار فوق الجثة وأخذ يزيل عنها أوراق الشجر بكل سرعة . خلال ذلك لمست يده ذراع الرجل التي ترتمي فوق صدره فوجدها ماتزال دافئة . مرة أخرى سرت خلال جسده قشعريرة ونهض واقفا ، وفكر أنه ليس من العادة أن يكون جسد الميت دافئا . رغم ذلك فقد أستبعد تلك الفكرة، فربما إنما هو يتخيل الأشياء بسبب ما يكتنفه من عصبية . انحني فوق الميت ثانية وقلبه على ظهره . يبدو له أنه ميت فعلا.
تلمس بسرعة باحثا عن جيوبه وغطس يده في أول جيب فبدا لـه خاويا ، ثم بحث في الجيب الثاني وكان خاويا هو الآخر . سرت خلال فؤاده لذعة من خيبة الأمل وعندها تذكر أن تجار الماشية غالبا ما يحملون نقودهم في صرة مربوطة بخيط حول أعناقهم .
ركع بجانب الميت وعثر على عنقه . بالفعل فقد كان هناك خيط مربوط حول عنقه تتدلى منه صرّة صغيرة . ارتسمت على جانبي فمه ابتسامة المنتصر . ولعدم وجود سكين لديه لقطع الخيط من على رقبته قرر تمريره فوق رأس الرجل ، وبينما كان نياجار يرفع رأس الرجل تلقت عينه اليمنى ضربة ساحقة فتقهقر بضع خطوات للخلف ثم سقط على الأرض مغشيا عليه .
استعاد اللص وعيه لتوه وكان لا زال يشعر بالضعف الشديد ، ولكن ليس لديه وقت ليضيعه. تمكن من الوقوف على قدميه بعد المحاولة الثانية وكان جسده مضمخا بالدم، لكن تفكيره كان واضحا ، فطفق يجمع ما يمكنه من أوراق الشجر الخضراء ويخسف بها على نياجار ، واتجه بعد ذلك إلى الجسر الذي فشل في العثور عليه خلال المعركة .
ابتعد مسرعا ـ فلا يجب أن تغادر الروح الجسد وهو لا يزال في المكان . يكاد الفجر أن يبزغ وسيصل إلى نهر ميجونا في الوقت المناسب لينظف ملابسه من الدم .
قبل شروق الشمس أطلق أوليلو شيخ القبيلة طبول الجنازة لتنبيه الناس . وخلال ساعة اجتمع ما يقرب من مائة رجل من القبيلة تحت جذع شجرة الأوبوك حيث درجت العادة أن يجتمع الشيوخ هناك للنظر في الجرائم والقضايا المدنية . ثم خاطب أوليلو المجتمعين :

اسمعوا يا قومي . ربما قد سمع بعضكم عن المشكلة التي حدثت في قبيلتنا ليلة البارحة، فقد سطا اللصوص على زريبة أوموجو وسرقوا ستة من ثيرانه الحرّاثة .
أوووه ؟ صاح القوم في تعجب .
أكمل أوليلو كانت النتيجة أن أريقت الدماء ، ولدينا الآن جثة مرمية هنا .
هل تلك حقيقة ؟ سأل أحد الشيوخ .
نعم تلك حقيقة أجاب أوليلو والآن انصتوا إلي . رغم أنّ قوانيننا تمنع أي قتل متعمد، إلا أننا نعتبر اللصوص والزناة بمثابة حيوانات . وإن قتل شخصٌ أي واحدٍ منهم فلا يعدُّ مذنبا باقتراف جريمة القتل ، بل ينظر إليه بأنه خلّص المجتمع من روح شيطانية ، وبالمقابل يتوجب على المجتمع أن يحميه ويحمي أولاده . تعرفون جميعا أن هذا الشخص يجب أن يتطهر قبل انخراطه في المجتمع من جديد لكن قوانين الرجل الأبيض مختلفة ، فوفقا لتلك القوانين لو أنك قتلت رجلا وجدته يسرق أبقارك ، أو ينام في كوخ زوجتك فأنت مذنب باقتراف جريمة القتل ـ وعليه لابد أن تقتل . ولأن الرجل الأبيض يظن أن قوانينه أرقى من قوانيننا ، فلابد أن نتعامل مع الأمر بحذر . نحن لدينا أسلاف في حين أن الرجل الأبيض لا أسلاف لـه، ولها السبب يدفنون موتاهم بعيد جدا من بيوتهم .
إليكم ما سنفعله . سنرسل إلى الرجل الأبيض بثلاثين من قومنا ليقولوا لـه بأننا قد قتلنا لصا. ستخبره تلك المجموعة بأن القبيلة بأكملها قد قتلت اللص، وثقوا بكلامي يا أبنائي ، إنّ ألاعيب الرجل الأبيض لا تفعل فعلها إلا بين المنقسمين على أنفسهم ، وإذا وقفنا متّحدين فلن يقتل أي منا .
لقد تحدث الشيخ بحكمة تامة . صاح الجميع ، بعد ذلك تمّ اختيار ثلاثين شخصا توجهوا فورا إلى مقر الرجل الأبيض .
كان المزيد من الناس بما فيهم النساء يتقاطرون على المكان ليزداد عدد المجموعة ، ثم تحركوا إلى النهر حيث يرقد جثمان اللص تغطيه أوراق الأشجار انتظارا لحضور الرجل الأبيض .
اقتربت نايموندهي من ضرتها قائلة أين نياجار ؟ لم تقع عليه عيني .
أمعنت الضرة النظر في الجمع ثم أجابت ما أظن إلا أنه ذهب مع الثلاثين . يبدو أنه غادر البيت مبكراً فقد صحوت مبكرا جدا هذا الصباح لكن البوابة كانت مشرعة . لقد ترك القرية .
تذكرت نايموندهي أنهم قد دخلوا الممر الضيق الذي يقود إلى النهر وشعروا بأنّ أقدامهم تبتل بفعل طل الصباح ، بينما كانت الأعشاب الطويلة التي تنوء تحت ثقل الطل وتنحني صوب الممر وكأنها تؤدي صلاة استقبال الفجر . أرادت أن تسأل ضرتها عن احتمال ذهاب زوجهما لكنها قررت الصمت بعد أن لاحظت لامبالاتها .
لم تعجبني رؤية القط الأسود الذي مرق أمامنا عندما كنا في طريقنا هنا . قالت نايدهومي لضرتها .
نعم فهو فأل سيئ أن يعبر أمامك قط أسود أول شيء في الصباح .
سمعوا صوت شاحنة ، ونظروا ليشاهدوا سحابة من الغبار وشاحنتين تابعتين للشرطة تقتربا منهم . توقفت الشاحنتان عند كومة الأوراق الخضراء ونزل منهما ضابط شرطة أبيض وأربعة أفراد شرطة من السود، ثم فتحوا الباب الخلفي لإحداها لينزل منها الثلاثون رجلا الذين أرسلتهم القبيلة لمركز الشرطة .
أين رئيس القبيلة ؟ سأل الضابط الأبيض .فتقدم أوليلو إلى الأمام .
أخبرني بالحقيقة . ما الذي حدث ؟ فأنا لا أصدق كلمة مما يقوله هؤلاء الناس . ما الذي أرسلتهم ليقولوه لي ؟

تحدث أوليلو بكآبة وبطء بلغة الدهولو ، وحرص على نطق كل كلمة بوضوح ، وقام شرطي أفريقي بترجمة كلماته .
أرسلتهم لإخبارك أننا قد قتلنا لصا ليلة البارحة .
ماذا ؟ قتلتم رجلا ؟ وتحرك الرجل الأبيض نحو أوليلو ليتبعه رجال الشرطة الباقون .
قتلتم رجلا ؟ كرر الرجل الأبيض .
كلا . لقد قتلنا لصا . أصر أوليلو
كم مرة أبلغتكم بأنه يجب التخلي عن هذه العادة المتوحشة بقتل أحدكم الآخر ؟ لا أحد يعدّ لصا قبل مثوله أمام محكمة قانونية وإثبات ذنبه . ما أنت وقومك إلا مجموعة من الصمّ . ثم أشار إلى أوليلو بطرف عصاه بطريقة تنذر بالسوء .
هذه المرة سأجعلكم تعرفون كيفية إطاعة القانون . من قتله ؟ سأل الضابط الأبيض بغضب .
جميعنا . أجاب أوليلو مشيرا إلى الجمع .
لا تكن غبيا . من ضربه أولا ؟
بدأت حالة من القلق تسود الجمع ، وأخذوا في التقدم نحو أفراد الشرطة مهددين .
جميعنا شارك في ضرب اللص . صاحوا بهم . وإن أردتم القبض علينا فأنتم أحرار لتفعلوا، لكن من الأفضل طلب المزيد من الشاحنات .
أين الميت ؟ وجه الرجل الأبيض السؤال لأوليلو .
هناك . أجابه مشيرا إلى كومة الأوراق .
تقدم ضابط الشرطة نحو الكومة ، والجمع كذلك تقدم . أرادوا أن يلقوا نظرة عليه قبل أن يأخذه الرجل الأبيض بعيداً .
في آخر مرة قتل فيها رجل في المنطقة أخذت الشرطة الجثة إلى كيسوموا حيث قطعوها ثم خاطوها من جديد وأعادوها لقومه قائلين إليكم برجلكم لتدفنوه . وقد ادعي بعضهم قائلا إن الفضلات قد أخرجت من الجسم وقدمت إلى كلاب اقتفاء الأثر التابعة للشرطة ، ولهذا السبب يمكن لتلك الكلاب تتبع أي لص إلى باب بيته . لقد آمن الكثيرون بهذه القصة ، وكانوا على يقين أن الشرطة تأخذ هذه الجثة أيضا .
أمر الشرطي الأوروبي الآخرين أن يعرّوا الجثة ، فترددوا قليلا ثم أطاعوا .
نظر أوليلو إلى الجسد الذي أمامهم غير مصدق . ثم نظر إلى قومه ثم إلى الشرطيين . هل هو طبيعي ؟ وأين اللص ؟ نظر إلى الجسد ثانية وأيقن أنه ليس بمجنون . لقد كان الجسد المسجى أمامه لابن عمه نياجار ، وقد غرست وتد كبير الحجم في عينه اليمنى .
أفلتت نايموندهي من الجمع وركضت تجاه الجثمان ، ثم سقطت على جسد زوجها الميت وطفقت تبكي بمرارة، ثم التفتت صوب الجمع صائحة : أين هو اللص الذي قتلتموه ؟ أين هو؟
انقسم الحاضرون إلى مجموعات من اثنين وثلاثة في الوقت الذي ارتفعت فيه حدة التوتر . بدأت النساء في العويل ، بينما نظر الرجال الذين قتلوا اللص ليلة البارحة إلى بعضهم البعض في حيرة تامة . لقد تركوا نياجار وهو يدخل قريته بينما استمروا هم في المسير . يمكنهم أن يقسموا على ذلك . وبدون أن يحاول أوليلو إخفاء وجهه المبلل بالدموع ناشد قومه بهذه الكلمات: يا قومي ، لقد ضربتنا يد الشر ولا يجب أن يؤدي ذلك إلى انقسام مجتمعنا ، ورغم أن نياجار قد مات إلا أنّ روحه لا تزال ترفرف بيننا .

لكن نايموندهي لم تبال بتعازي جادونج أوليلو أو تثق بالرجال الذين أقسموا أنهم رأوا نياجار يدخل قريته بعد حاثة الاشتباك مع اللصوص . أبدت مقاومة عنيفة تجاه الشرطة الذين حملوا جثمان زوجها ووضعوه في الشاحنة ليأخذوه إلى المشرحة في كيسومو . عزّاها أحد أفراد الشرطة مع وعد بأن تحقيقا كبيرا حول ظروف مقتل زوجها سيشمل كل القرية وسيبدأ فورا .
لكن نايموندهي هزت برأسها . سأصغي لك فقط إذا قلت أنك ستردہ إلي حيا .
مزقت ملابسها ، وأصبح نصفها الأعلى عاريا ، وأخذت تسير ببطء خلف الناس الحزانى ، باكية ، صائحة ، وهي ترفع بيديها فوق رأسها .

يا حبيبي يا ابن أوشينج
وابن أومولو
ستهطل الأمطار
نعم لابد أن تهطل الأمطار
الليالي ستظلم
وتكون باردة وطويلة
أوه ، يا صهر أمي
لا قلب لدي ليصفح
ولست أملك فؤادا ليعفو
كل هؤلاء المعزين يغشّونني الآن
نعم فهم يغشونني
لكن عندما تغرب الشمس
ويسقط الظلام سيسلوني الجميع
في ساعات الليل الباردة
تلتصق كل امرأة برجلها
ولكن ليس من بينهن أية امرأة
ولا حتى واحدة
ترضي بأن تعيرني زوجها في المساء
آه ، حبيبي يابن أوشينج
يا صهر أمي .

(1) جريس أوجوت ، (ولدت عام 1930) ، ترعرعت في وسط كينيا ، وعملت كممرضة وقابلة، وكاتبة ، ومذيعة . نشرت رواية بعنوان " الأرض الموعودة " وهي معروفة جيدا ككاتبة قصة قصيرة ولها مجموعة قصصية بعنوان " أرض بدون رعد "

.

مهذبو الأدغال

بقلم: جومو كينياتا (1)
كان ياما كان في زمن مضى أن صادق فيل رجلاً . وذات يوم هبّت عاصفة رعدية فذهب الفيل إلى صديقه الذي كان يقطن كوخا صغيرا في أطراف الغابة قائلا له : " يا عزيزي الرجل الطيب هلاّ سمحت لي بوضع خرطومي في كوخك لأحميه من هذه الأمطار الغزيرة ؟ " أجابه الرجل بعد رؤيته للحالة التي كان عليها صديقه : " يا عزيزي الفيل الطيب . كوخي صغير جدا كما ترى ، لكن ثمّة متسع لخرطومك ولنفسي ، فأرجو أن تضعه برفق." شكر الفيل صديقه قائلا : " لقد أسديت لي صنيعا حسنا ، ويوما ما سأكافئك على لطفك ." لكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ بمجرّد أن وضع الفيل خرطومه داخل الكوخ ، أتبعه برأسه، وفي نهاية المطاف رمى بالرجل خارجا في المطر، ثمّ استلقى براحة داخل كوخ صديقه قائلا : " يا صديقي. إنّ جلدك أصلب من جلدي وليس هناك متسع لكلينا . باستطاعتك البقاء تحت المطر بينما أقوم بحماية جلدي الحسّاس من عاصفة البُردْ ."

أخذ الرجل في الاحتجاج بعد أن رأى ما فعل به صديقه . فسمعت الحيوانات المتواجدة في الغابة القريبة الضوضاء، وجاءت لتستطلع الخبر، ووقفوا حولهما منصتين إلى الجدل الحاد بين الرجل وصديقه الفيل . وسط هذه الهياج حضر الأسد يسبقه زئيره وقال بصوت عال :" ألا تعرفون جميعا إنني ملك الأدغال ؟ كيف يجرؤ أي شخص على إعاقة السلام في مملكتي ؟ " بعد سماعه لما قاله الملك، أجاب الفيل الذي كان أحد الوزراء المهمين في هذه المملكة صارخا: " ليس هناك أية إعاقة للسلام في مملكتك ، يا مولاي ، كنت فقط أتبادل حديثا قصيرا مع صديقي حول ملكية هذا الكوخ الصغير هنا ، والذي أشغله حاليا كما يرى جنابكم . بصوت نبيل أجاب الأسد الذي كان يرغب أن يعمّ الأمن والسلام مملكته: " آمر وزرائي أن يعينوا لجنة تقص للحقائق لتبحث هذا الموضوع بالتفصيل، وتقدم تقريرها وفقا لذلك ." ثمّ التفت إلى الرجل قائلا: " لقد أحسنت صنعا بعقدك صداقة مع أفراد شعبي، خاصة مع الفيل الذي هو أحد وزراء الدولة المهمين . وأريدك ألاّ تتذمر أكثر من ذلك ، فالنسبة لك لم تفقد كوخك بعد . عليك بانتظار انعقاد اللجنة الإمبراطورية المشكلة ، وستعطى فرصة كبيرة لطرح قضيتك ، وأنا على ثقة أنّك ستسعدُ بالنتائج التي ستتوصل إليها اللجنة . "

كان الرجل سعيدا لدى سماعه لهذه الكلمات المعسولة من ملك الأدغال وظلّ ينتظر فرصته ببراءة تامة معتقدا بطبيعة الحال أنّ كوخه سيعود إليه.

امتثل الفيل لأمر سيده وانشغل مع بقية الوزراء بتشكيل اللجنة ، وقد عُيّن شيوخ الأدغال الآتي ذكرهم ليكونوا أعضاء في اللجنة : 1 ـ السيد خرتيت 2 ـ السيد الثور البرّي 3 ـ السيد تمساح 4 ـ جناب المحترم السيد ثعلب كرئيس للجنة . بعد رؤيته لقائمة الأسماء اعترض الرجل قائلا : أليس من المفترض أن تشتمل القائمة على عضوٍ من قومه ، لكنه إجيب بأنّ ذلك مستحيل ، لأنّ لا أحدٌ من قومه متعلم بما فيه الكفاية ليفهم تعقيدات قانون الأدغال ، وزيادة على ذلك فلا ضرورة للخوف لأنّ أعضاء اللجنة هم جميعا من ذوى السمعة الحيادية الجيدة فيما يتعلق بأمور العدالة ، وبما أنهم قد أُختيروا من الله لرعاية مصالح الأجناس الأقل تمتعا بالأنياب والمخالب ، فيجب أن يتيقن أنهم سيبحثون المسألة بعناية فائقة ، ويعدّون تقريرا غير منحاز .

انعقدت اللجنة للاستماع إلى الأدلة ، وكان أول من استدعي هو جناب الفيل المحترم الذي مثل أمام اللجنة متبخترا ، يمسح على سنّيه بشُجيرة زوّدته بها السيدة زوجته ، وبصوت قوي ومتسلط قال : لا يوجد سببٌ لأضيّع وقتكم بسرد قصّة لا أشكّ أنكم قد سمعتموها من قبل ، فطالما اعتبرتُ أنّ من واجبي حماية مصالح أصدقائي، ويبدو أنّ ذلك قد تسبب في سوء فهم من قبل صديقي هذا الذي استدعاني لحماية كوخه، خوفا من أن تطيّره العاصفة التي تمكّنت من الدخول للكوخ بسبب الفراغات غير المستغلة فيه ، وقد رأيت أنه من الضرورة القيام بذلك العمل لمصلحة صديقي . أنّ الدخول إلى هذا لمكان غير المستعمل واستغلاله بطريقة اقتصادية عن طريق بقائي فيه هو واجب كان سيقوم به أيّ منكم في ظروف مشابهة .

بعد سماع المرافعة النهائية لجناب الفيل المحترم ، استدعت اللجنة السيد ضبع وبعضا من شيوخ الأدغال الآخرين الذين أيدوا جميعا أقوال السيد الفيل . بعد ذلك مباشرة أُستدعي الرجلُ الذي ما أن بدأ يقدم وجهة نظره في الخلاف حتى قاطعه أعضاء اللجنة قائلين : " نرجو يا صديقنا الطيب أن تقتصر على سرد القضايا ذات العلاقة . لقد استمعنا إلى ملابسات القصة من مصادر مختلفة وكل ما نود معرفته هو هل كان ذلك الفراغ غير المستغل في كوخك مستعملا من قبل أي شخص آخر قبل أن يستغله السيد الفيل ؟ " بدأ الرجل يقول : " كلا ولكن ـــ" وعند هذه النقطة أعلنت اللجنة أنها قد استمعت إلى ما يكفي من الأدلة من كلا الطرفين ، ورفعت الجلسة لاتخاذ قرارها .

بعد تمتعهم بتناول وجبة شهية على حساب جناب الفيل المحترم ، عادت اللجنة لإعلان قرارها، فاستُدعي الرجل ليعلن بما يلي : حسب رأينا فإنّ هذا الخلاف قد ظهر إلى الوجود بسبب سوء فهم يؤسف له ، ويعود في المقام الأول إلى تخلّف في أفكارك . نرى أنّ السيد الفيل قد أوفى بالتزاماته فيما يتعلق بحماية مصالحك ، حيث أنه من الواضح أنّ استغلال المكان على الوجه الاقتصادي الأمثل هو لمصلحتك . وبما أنك لم تصل إلى المرحلة المناسبة من التوسع التي تمكنك من ملئ الفراغ ، فنرى أنه من الضروري ترتيب حل وسط يناسب الطرفين . عليه بإمكان السيد الفيل الاستمرار في احتلال كوخك ، ولكننا نمنحك الإذن بالبحث عن موقع لبناء كوخ جديد يناسب احتياجاتك بصورة أكثر واقعية ، وسنعمل على أن تتمتع بحماية جيدة.

لم يكن للرجل بديل ، وخوفا من أنّ رفضه سيعرضه إلى أنياب ومخالب أعضاء اللجنة ، فقد فعل ما أشاروا به عليه ، ولكن ما أن بنى كوخا آخر حتى اندفع السيد خرتيت مخفّضا قرنه في وضعية الهجوم وأمر الرجل بالتوقف . مرّة أخرى شكلت لجنة تحقيق ملكية للنظر في القضية ، وتوصلت إلى نفس نتائج اللجنة السابقة . وتكرر هذا الأسلوب إلى أن تحصل السيد جاموس ، والسيد نمر ، والسيد ضبع ، والباقون على أكواخ جديدة لكل منهم. بعد ذلك قرّر الرجل اتباع أسلوب جديد لحماية نفسه ، ولأنه لم يكن يبدو أنّ لجان التحقيق ستعود عليه بأية فائدة في المستقبل فقد جلس وأعلن ((نجيندا ثي ناداجاجا موتيجي)) والتي تعني حرفيا (لا يوجد شيء يدبّ على الأرض لا يمكنُ الإيقاع به) أو بكلمات أخرى ، يمكنك الضحك على عقول الناس لبعض الوقت ولكن ليس إلى الأبد .

في صباح ذات يوم عندما بدأت جميع الأكواخ المستغلة من قبل سادة الأدغال في التآكل والتداعي ، ذهب الرجل إلى مكان أبعد قليلا وشرع في بناء كوخ أكبر وأفضل . ما أن رآه السيد خرتيت حتى جاء مندفعا بقوة ، ليجد السيد الفيل قد صار داخل الكوخ يغطّ في نومه . حضر بعده السيد النمر إلى النافذة ، ودخل إلى الكوخ من الأبواب كل من السادة ، الأسد ، والثعلب ، والجاموس ، بينما أخذ السيد الضبع يعوي طالبا مكانا يستظل به ، أما السيد التمساح فقد كان يرتمي متكاسلا

فوق السطح ينشد ما تبثه أشعة الشمس من دفء . أخذوا في النقاش بحدة حول حقوقهم في المكان ، وتحول النقاش إلى شجار وعندما كان الجميع مشتبكون في الصراع ، أضرم الرجل النار في الكوخ بمن فيه من أسياد الأدغال ثم عاد إلى بيته يردد : " السلام مكلف، لكنه يستحق العناء " وعاش بعد ذلك في سعادة .

(1) جومو كينياتا (1891 – 1978) أصبح رئيسا لوزراء بلاده ثم رئيس الدولة بعد حصول كينيا على استقلالها ، وهذه القصة هي جزء من دراسته المعنونة " في مواجهة جبل كينيا " (1938) التي تدرس العلاقة بين الجيكويو و الأوروبيين .